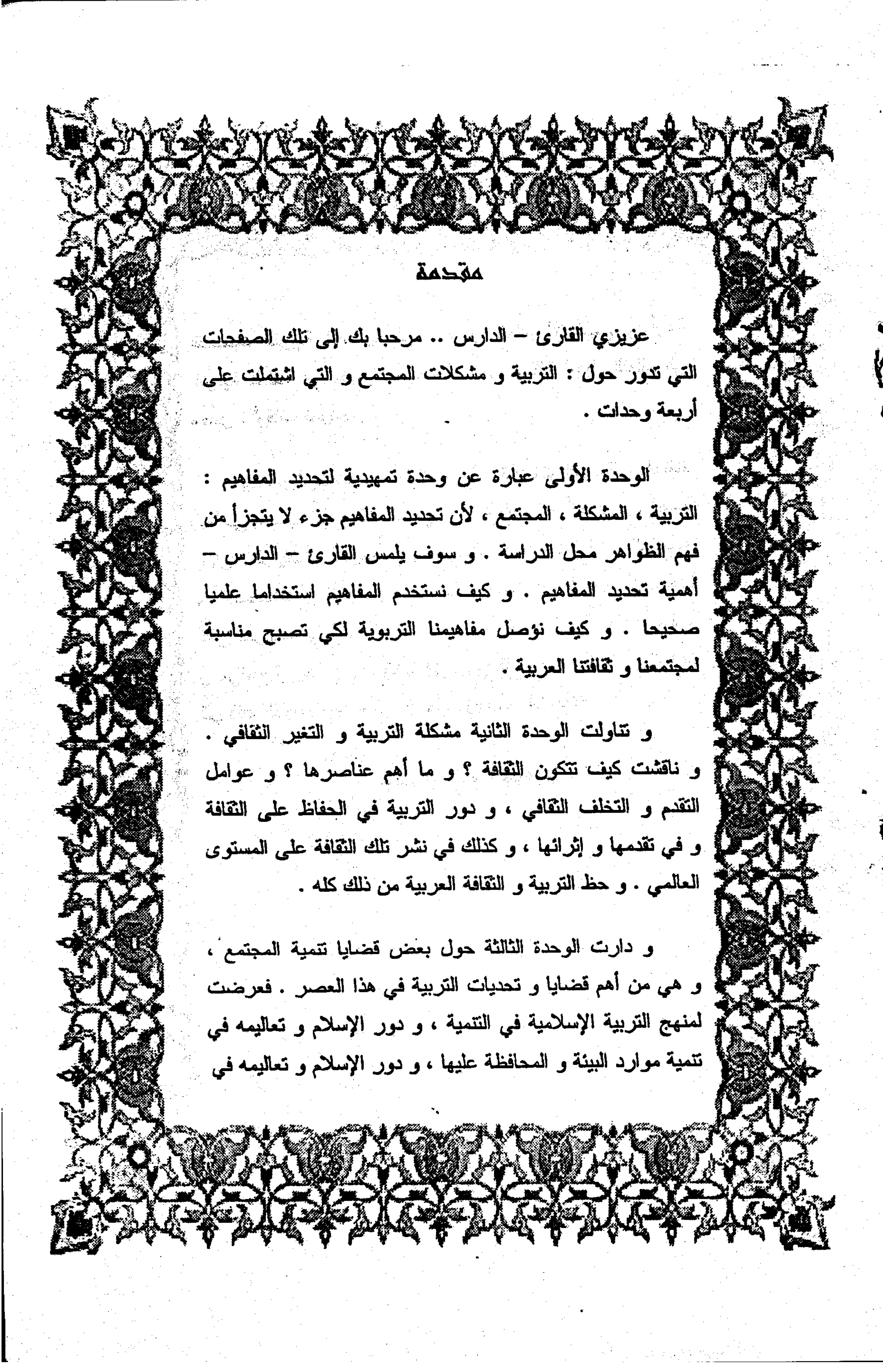


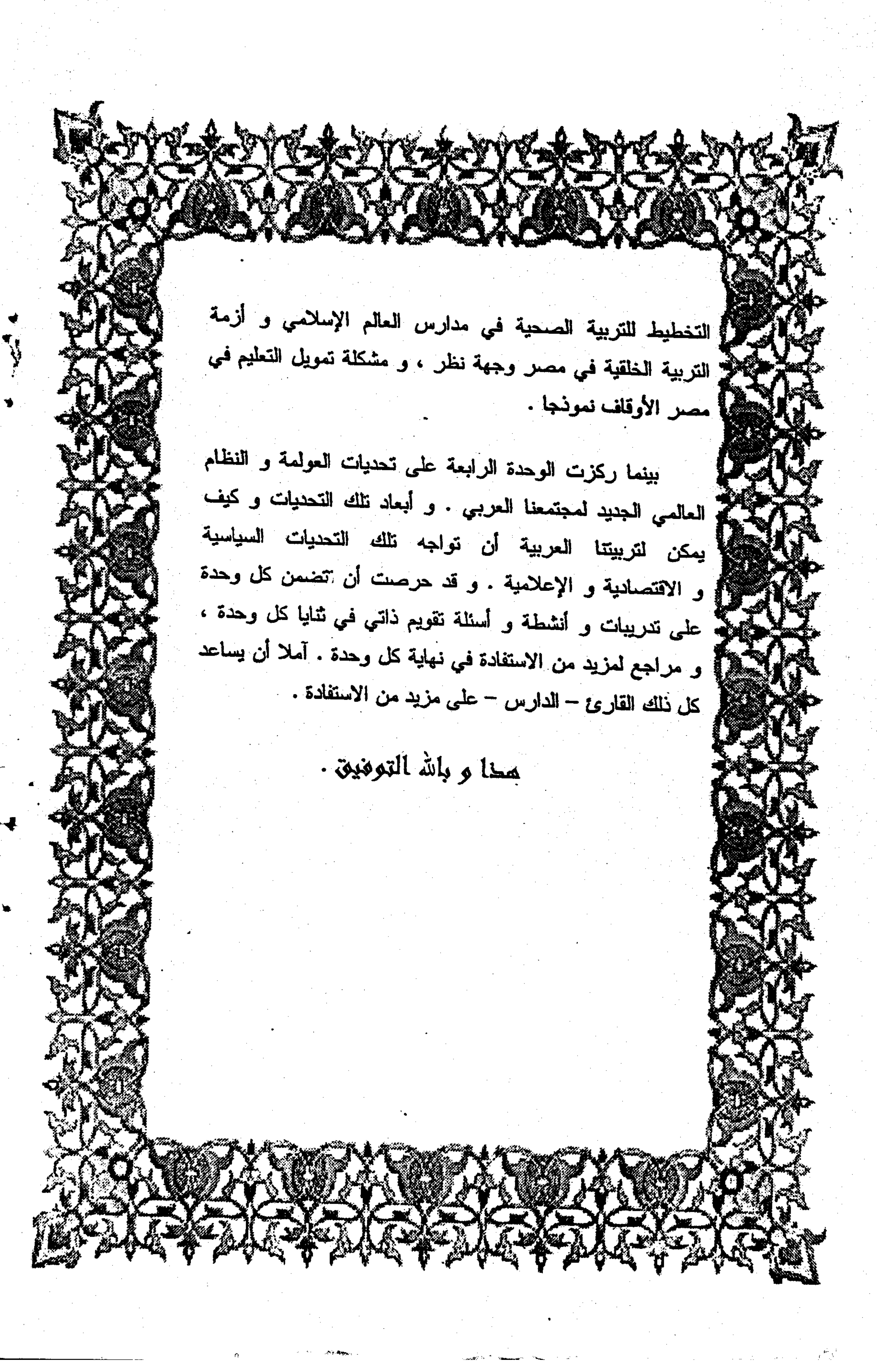
مقدمة

عزيزي القارئ – الدارس .. مرحبا بك إلى تلك الصفحات التي تدور حول : التربية و مشكلات المجتمع و التي اشتملت على أربعة وحدات .

الوحدة الأولى عبارة عن وحدة تمهيدية لتحديد المفاهيم : التربية ، المشكلة ، المجتمع ، لأن تحديد المفاهيم جزء لا يتجزأ من فهم الظواهر محل الدراسة . و سوف يلمس القارئ – الدارس – أهمية تحديد المفاهيم . و كيف نستخدم المفاهيم استخداما علميا صحيحا . و كيف نؤصل مفاهيمنا التربوية لكي تصبح مناسبة لمجتمعنا و ثقافتنا العربية .

و تناولت الوحدة الثانية مشكلة التربية و التغير الثقافي . و ناقشت كيف تتكون الثقافة ؟ و ما أهم عناصرها ؟ و عوامل التقدم و التخلف الثقافي ، و دور التربية في الحفاظ على الثقافة و في تقدمها و إثرائها ، و كذلك في نشر تلك الثقافة على المستوى العالمي . و حظ التربية و الثقافة العربية من ذلك كله .

و دارت الوحدة الثالثة حول بعض قضايا تنمية المجتمع ، و هي من أهم قضايا و تحديات التربية في هذا العصر . فعرضت لمنهج التربية الإسلامية في التنمية ، و دور الإسلام و تعاليمه في تنمية موارد البيئة و المحافظة عليها ، و دور الإسلام و تعاليمه في



التخطيط للتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي و أزمة التربية الخلقية في مصر وجهة نظر ، و مشكلة تمويل التعليم في مصر الأوقاف نموذجا .

بينما ركزت الوحدة الرابعة على تحديات العولمة و النظام العالمي الجديد لمجتمعنا العربي . و أبعاد تلك التحديات و كيف يمكن لتربيتنا العربية أن تواجه تلك التحديات السياسية و الاقتصادية و الإعلامية . و قد حرصت أن تتضمن كل وحدة على تدريبات و أنشطة و أسئلة تقويم ذاتي في ثنايا كل وحدة ، و مراجع لمزيد من الاستفادة في نهاية كل وحدة . آملا أن يساعد كل ذلك القارئ – الدارس – على مزيد من الاستفادة .

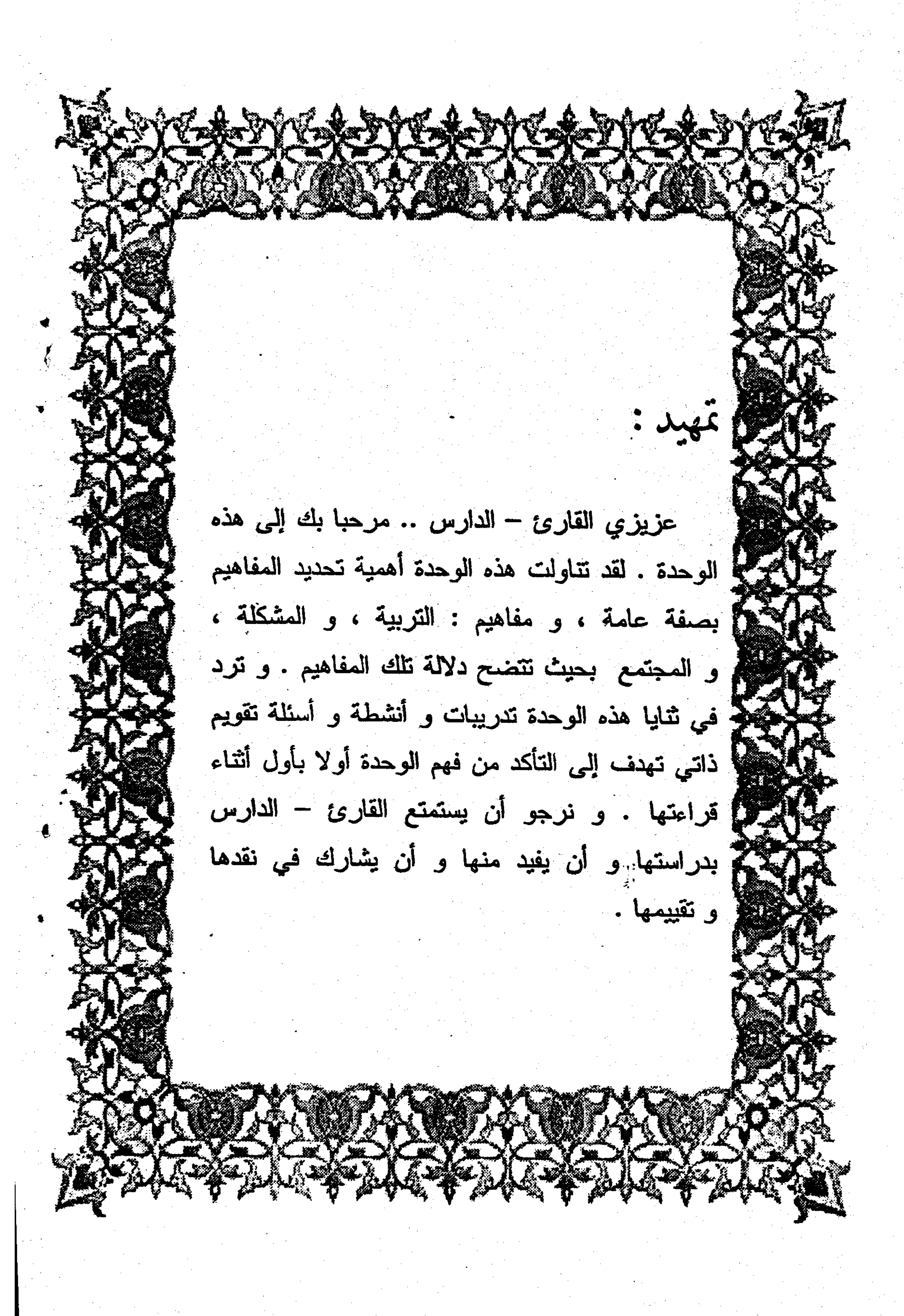
هذا و بالله التوفيق .



وحدة تمهيدية

تحديد المفاهيم:

(التربية، المشكلة، المجتمع)



تمهيد :

عزيزي القارئ – الدارس .. مرحبا بك إلى هذه الوحدة . لقد تناولت هذه الوحدة أهمية تحديد المفاهيم بصفة عامة ، و مفاهيم : التربية ، و المشكلة ، و المجتمع بحيث تتضح دلالة تلك المفاهيم . و ترد في ثنايا هذه الوحدة تدريبات و أنشطة و أسئلة تقويم ذاتي تهدف إلى التأكد من فهم الوحدة أولا بأول أثناء قراءتها . و نرجو أن يستمتع القارئ – الدارس بدراستها و أن يفيد منها و أن يشارك في نقدها و تقييمها .

مقدمة :

نحن نعيش في عالم من المفاهيم ، و مفاهيم الإنسان هي التي تحدد شخصيته و عالمه . الفلاح له عالمه ، و له مفاهيمه التي تتعلق بدنياه . و العالم له عالمه و له مفاهيمه ، و كذا الفيلسوف . هذا على دائرة المجتمع المحلي أو الوطن . كذلك هناك تغير في المفاهيم على مستوى العالم و مستوى التغير في الثقافات . فحرية المرأة في المجتمع الغربي كمفهوم تختلف قطعا عن مفهوم حريتها في المجتمع العربي و الإسلامي . إن مفهوم حرية المرأة في الغرب يتسع ليشمل حرية تكوين أسرة من امرأة ثانية (سحاق) أو تكوين أسرة من صديق بدون زواج أو قبل الزواج (عشيق) . كما تتضمن حريتها في أن تقضي الليل خارج منزل الوالد أو الزوج مع من تحب ، بل حريتها في أن تتزوج أو لا تتزوج ، تنجب أو لا تنجب .. الخ من دلالات هذا المفهوم الغربي .

أما مفهوم حرية المرأة في المجتمع العربي و الإسلامي فإنه يختلف قطعا عن هذا المفهوم ، لأنه يخضع لتعاليم سماوية ، تجعل حرية المرأة في سياج من القيم و الأخلاق و الالتزام الذي تؤمن به المرأة المسلمة و تتمثله في كل حياتها و سلوكها بدون قهر خارجي ، لأنه جزء من كيانها و ثقافتها ، إلا إذا خلعت المرأة المسلمة دينها و ثقافتها و ارتضت ثقافة الغرب و من ثم رضت قيمه و مفاهيمه . و قس على ذلك سائر المفاهيم التي نستخدمها في حياتنا مثل مفهوم العدل ، و العلم ، و التقدم ، و الإنسان .

إن المفاهيم التي نستخدمها هي التي تحدد هويتنا ، و تحدد نمط حياتنا . و من ثم تأتي أهمية دراسة المفاهيم ، و تحديد المفاهيم التي نستخدمها . و التأكد من أن هذه المفاهيم مفاهيم صحيحة ، و مفاهيم دقيقة . و من هنا تأتي أهمية دراسة ماذا نقصد بالتربية ، و ماذا نقصد بمشكلات المجتمع . و هل يختلف مفهوم التربية الآن عن مفهوم التربية منذ خمسون عاما مثلا ؟ و هل يختلف مفهوم التربية في المجتمع العربي الإسلامي عنه في المجتمع اليهودي أو الأمريكي ؟ و ما هي العناصر المشتركة في هذا المفهوم و ما هي

العناصر المختلفة ؟ و قس على ذلك مشكلات المجتمع ؟ متى تكون المشكلة مشكلة بحق ؟ و هل مشكلات المجتمع المصري هي نفسها مشكلات المجتمع اليهودي أو الأمريكي ؟ و ما هي العناصر المشتركة في هذا المفهوم و ما هي العناصر المختلفة . و أيضا ما مفهوم المجتمع ؟ و هل يختلف مفهوم المجتمع العربي و الإسلامي عن مفهوم المجتمع اليهودي أو الأمريكي ؟ و ما هي العناصر المشتركة في هذا المفهوم ؟ و ما هي العناصر المختلفة ؟ .

تختلف دلالة المفاهيم باختلاف المجتمعات . ناقش

إن الاهتمام بدراسة المفاهيم مجال جديد شغل أذهان العلماء الباحثين في هذا القرن . و لقد ظهر هذا الاهتمام مع التقدم العالمي و مع محاولة فرض مفاهيم الغرب على العالم كله باسم توحيد المفاهيم و باسم أن الغرب هو مقياس و معيار التقدم ، و أن مفاهيمه هي المفاهيم الحضارية الصحيحة . و أن على العالم كله أن يستخدم نفس المفاهيم بنفس الدلالات إذا أراد لنفسه التقدم و التحضر . ولا أعتقد أن هذا القول صحيح على إطلاقه ذلك لأن لنا مفاهيمنا الخاصة بنا و التي هي بدون شك أكثر تقدما و رقيا من مفاهيمهم من ذلك مثلا مفهوم الحرية الشخصية ، و مفهوم مسئولية الحاكم أمام الله و الشعب ، و مفهوم العدل الاجتماعي .. الخ .

و الذي يهمنا هنا أن نوضح أن مفاهيمنا التربوية التي نستخدمها في علومنا التربوية تحتاج إلى تمحيص و إعادة نظر في مجملها خاصة و أ ن معظمها قد أتت إلينا مع حركة الترجمة و حركة نقل العلوم التربوية الغربية إلينا . و بعض هذه المفاهيم قطعا قد تأثرت بثقافة الغرب و قيم الغرب مما يمثل خطورة على علومنا التربوية ، و على سلامة هذه العلوم و مدى فاعليتها . و على سبيل المثال فإن مفهوم العلم الغربي مختلف عن مفهوم العلم بالمعنى الإسلامي . مفهوم العلم

بالمعنى الغربي تقتصر على العلوم التي تستخدم الحواس و العقل مصدرا لها . و العلم بالمفهوم الإسلامي يتسع ليشمل إلى جوار ذلك الوحي كمصدر من مصادر المعرفة . و العلم الغربي هدفه عمارة الحياة الدنيا مهما كانت تلك العمارة على حساب الآخرين ، بل على حساب الأجيال القادمة ، و هدف العلم بالمفهوم الإسلامي يتسع ليشمل عمارة الدنيا و الآخرة معا ، و رعاية الأجيال الحاضرة و القادمة و تحقيق كمال العبودية و الاستخلاف في الأرض . و فارق كبير بين مفهوم العلم و أهدافه بالمعنى الغربي و العلم و أهدافه بالمعنى الإسلامي .

من كل ما سبق يبدو تهافت قول من يقول أن المفاهيم في مجال العلوم الاجتماعية مفاهيم محايدة أو مفاهيم واحدة . و لا ضرر و لا ضرار أن نستخدم المفاهيم التربوية الغربية . و أن تلك المفاهيم أولا و أخيرا أرقى من المفاهيم العربية و الإسلامية . و أن العرب و المسلمين حاليا بدون رصيد مفاهيمي و من ثم لا تثريب عليهم من استعارة المفاهيم التربوية الغربية بل لا خيار أمامهم سوى استعارة تلك المفاهيم . لقد توقفت الحضارة العربية و الإسلامية منذ قرون . و من ثم توقفت عن إنتاج المفاهيم الحضارية ، و عليه فنحن مضطرون إلى استعارة المفاهيم التربوية الغربية ، و مضطرون إلى استخدام تلك المفاهيم .

تحاول كل أمة نشر مفاهيمها الخاصة بها . لماذا ؟

و الواقع أن سلفنا الصالح قد انتبه إلى أهمية المفاهيم و المصطلحات و ترك لنا تراثا غزيرا في مجال المفاهيم و المصطلحات . إذ ذكروا أن للألفاظ دلالات حقيقية و أخرى مجازية ، و أن لها زوايا للنظر من جهة الوضع اللغوي ، و الدلالة الشرعية ، و الدلالة الاصطلاحية ، و الدلالة المعرفية . فاهتم علماء المسلمين بفرز مصطلحات الفنون كمصطلحات أصول الفقه ، و علم الحديث ، و علوم القرآن ، و النحو ، و المنطق ، و كتبوا كتبا مفردة في

المصطلحات و التعريفات منها : رسالة المصطلحات الفلسفية للكندي (ت ٢٥٢هـ) في حدود الأشياء و رسومها ، و جمع فيها ثمانية و تسعين مصطلحا فلسفيا ، و كتاب أبي عبد الله الخوارزمي (ت ٣٨٧ هـ) " مفاتيح العلوم " الذي جمع فيه مصطلحات العلوم في عصره ، مثل مصطلحات الشريعة ، و الفقه ، و علم الكلام ، و الفلسفة ، و الطب ، و علم النجوم و غيرها ، و كتاب الرازي (ت ٣٥٧ هـ) " حلية الفقهاء " ، و المطرزي " المغرب في لغة الفقهاء " ، و للآمدي (ت٦٣١ هـ) رسالة بعنوان " المبين عن معاني ألفاظ الحكماء و المتكلمين." ، و الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) " التعريفات " الذي ضم طائفة كبيرة من المصطلحات الفقهية ، و النحوية ، و الصرفية و غيرها . و أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤ هـ) " الكليات " ، و هو معجم في المصطلحات العلمية ، و الفروق اللغوية ، حيث جمع فيه مصطلحات علوم مختلفة ، كالفقه الحنفي ، و الفلك ، و الرياضيات ، و العمران ، و الفيزياء ، و كتب القاضي الأحمدي نكيري الهندي (ت١١٧٣ هـ) " دستور العلماء أو جامع العلوم " ، و كتب التهانوي (ت ١١٥٨ هـ) " كشاف اصطلاحات الفنون " ، و هو أوسع كتب المصطلحات ، و كتب العالم صديق خان : " أبجد العلوم " و غير ذلك كثير من المؤلفات في المصطلحات .

كما أن وضع علم النحو و الصرف ، و تقعيد القواعد ، إنما كان في الحقيقة سبيلا لحماية الألفاظ و الدلالات القرآنية ، و ضبطها بمعهود العرب في الخطاب ، حتى لا يكون إسلام أصحاب اللغات الأخرى سبيلا إلى التيه الدلالي و الاصطلاحي . أما في العصور الحاضرة فقد " اتضح أن دراسة المفاهيم و المصطلحية سواء كانت العلمية أو الاجتماعية يلقى اهتماما في الأكاديميات و الجامعات في البلدان الغربية الصناعية ، و لكنها لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه في الوطن العربي لحداثتها و قلة المختصين فيها . حيث كان الاهتمام مؤخرا من قبل الجامعات العربية بتعريب التعليم العالي ، الذي يتطلب وضع مصطلحات علمية تقنية موحدة على صعيد الوطن العربي لتكون لنا لغة علمية واحدة . فتجري المجامع اللغوية في القاهرة و بغداد و دمشق أبحاثا في أسس وضع المصطلحات العلمية و التقنية في اللغة العربية . و في عام ١٩٦٩ م أناطت جـــامعة الدول

العربية مهمة تنسيق المصطلحات في الوطن العربي بمكتب تنسيق التعريب بالرباط ، الذي شجع الأبحاث اللغوية و المعجمية و الدراسات المتعلقة بمشكلات المصطلحات العلمية ، و التقنية ، باللغة العربية . و نشر عددا كبير منها في مجلته الحولية (اللسان العربي) . كما نظم ندوات و مؤتمرات للتعريب حسب خطة هادفة لاستكمال المصطلحات العربية في العلوم و التكنولوجيا و توحيدها . كما عقد المكتب (ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العلمي) في الرباط ١٩٨٠ م " كما أن هناك جهودا لجامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، تظهر في جهود معهد الدراسات المصطلحية في فاس التي أثمرت الندوة الدولية للدراسة المصطلحية و العلوم الإنسانية في ١٩٩٣ م . أما بالنسبة للمصطلحات و المفاهيم الخاصة بالعلوم الاجتماعية فالاهتمام بها قليل و محدود جدا ، و اقتصر على اهتمامات المعهد العالمي للفكر الإسلامي حيث نشر سلسلة خاصة بالمفاهيم و المصطلحات .

كما أن هناك بعض الدراسات القليلة لبعض الباحثين في المغرب العربي اهتمت بالمفاهيم بصفة عامة . بالإضافة إلى جهود فردية لدى بعض الباحثين في الأردن ، و بعض الرسائل الجامعية التي تمت في المفاهيم العلمية و الدينية و السياسية على يد باحثين من المملكة العربية السعودية أو من الدول العربية الأخرى . هذا بالنسبة للمفاهيم بصفة عامة .

أما بالنسبة للمفاهيم التربوية ، فبالرغم من أهمية مجال التربية و مفاهيمه فلم يكن هناك سوى القليل من المقالات و الدراسات المحدودة الواردة في بعض الدوريات ، و المجلات ، و الكتب بالإضافة إلى مشروع في مجال المصطلحات التربوية ، قام به مجموعة من الدارسين في المدرسة العليا بتطوان في المغرب ، و هذا العمل لم يستكمل جميع جوانبه حتى الآن و لم يتم نشره بعد .

هكذا نجد أن هذه الجهود العلمية في مجال المفاهيم و خاصة في العلوم التربوية ما زالت قليلة ، و متفرقة ، و لكن نأمل أن يكون هناك وعي قريب بأهمية دراسة المفاهيم و تحديدها و تأصيلها و ذلك بتضافر جميع الجهود المتفرقة في العالم العربي و الإسلامي .

مامدى إهتمام العالم العربي قديما و حديثا بالمفاهيم عامة و التربوية خاصة ؟ و ما سبب هذا الاهتمام من وجهة نظرك ؟

مفهوم التربية

أولا : مفهوم التربية في المعاجم اللغوية :

التربية مشتقة من رب و هو الله عز وجل هو رب كل شئ أي مالكه و مستحقه ، وقيل : صاحبه . و يقال : فلان رب البيت ، و رب الدابة ، و هن ربات الحجال أي صاحباتها ، قال الله تعالي :

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

و كل من ملك شيئا فهو ربه . و في حديث أشراط الساعة : (.... و أن تلد الأمة ربها أو ربتها) . قال : الرب يطلق في اللغة على المالك ، و السيد ، و المدبر ، و المربي ، و القيم ، و المنعم ، و قال : و لا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل . العباد مربوبون لله عز وجل ، أي مملكون .

و ربيت القوم : سُستُهم أي كنت فوقهم . و قال أبو نصر : هو من الربوبية ، و العرب تقول : لأن يربني فلان أحب إلى من أن يربني فلان ، يعني أن يكون ربا فوقي ، و سيدا يملكني ، و في حديث ابن عباس مع ابن الزبير رضي الله عنه : لأن يَرُبَّنِي بنو عمي ، أحب إلي من أن يَرُبَّنِي غيرهم ، أي يكونوا على أمراء و سادة متقدمين .

و في حديث : (لك نعمة تَرُبُّها) . أي تحفظها و تراعيها و تربيها ، كما يربي الرجل ولده . و في حديث ابن ذي يزن : " ... أُسدٌ تُرَبِّبُ في الغيضات أشبالا " . أي تُرَبِّي . رباه تربية : أحسن القيام عليه ، ووليه حتى يفارق الطفولية ، كان ابنه أو لم يكن . و يقال لامرأة الرجل إذا كان له ولد من غيرها : ربيبة و ذلك معنى رابة و راب و هي : امرأة الأب . و قال أحمد بن يحي للقوم الذين استرضع فيهم النبي صلى الله عليه و سلم أرباءُ النبي صلى الله عليه و سلم ، كأنه جمع ربيب .

و السحاب يرب المطر . أي يجمعه و ينميه . و المطر يرب النبات و الثرى ينميه . و المرب : الأرض التي لا يزال بها ثرى . و قيل المرباب من الأرضين : التي كثر نبتها و نأمتها ، و كل ذلك من الجمع . و المرب : المحل ، و مكان الإقامة و الاجتماع . و مكان مرب : مجمع يجمع الناس ، و فلان مرب أي مجمع يرب الناس و يجمعهم و مرب الإبل : حيث لزمته .

و رب المعروف و الصنيعة و النعمة يربها ربا و ربابا و ربابة ، و ربيها : نماها ، و زادها ، و أتمها ، و أصلحها . و رببت قرابته : كذلك إذا ربى يتيما و رببت الأمر : أصلحته و متنته . و رببت الدهن : طيبته و أجدته . و يقال ربأ فلان ربئا : علا و ارتفع و ربأت الأرض زكت و ارتفعت . رب : جمع و زاد و لزم و أقام الأمر و أصلحه و رب الولد ربا : وليه و تعهده بما يغذيه و ينميه و يؤدبه حتى أدرك ، و ربيب و راب القوم : رأسهم و ساسهم .

وربا الشيء : زاد و نما و بابه عدا . و الرابية ما ارتفع من الأرض و كذا الربوة . و الربو : النفس العالي من باب عدا إذا أخذه الربو قال الفراء في قوله تعالي :

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)

أي زائدة كقولك أربيت إذا أخذت أكثر مما أعطيت . و رباه تربية ، و ترباه : أي غذاه و هذا لكل ما ينمي كالولد و الزرع و نحوه . و أخذ الشيء بربانه و ربانه أي بأوله و قيل : بجميعه و لم يترك منه شيئا و قال أبو عمر : الربي أول الشباب ، و منه الربي و الرباني : هو الحبر ، و رب العلم و قيل الرباني هو الذي يعبد الرب ، و هو المتأله العارف بالله و زيدت الألف و النون للمبالغة . و من ذلك نستخلص أن التربية بمعناها اللغوي تلخصت في عدة دلالات و هي :

- الزيادة و النماء ، و العلو ، و التطوير .
- الاعتناء ، و الرعاية ، و التغذية ، و الإصلاح ، و التحسين .
- السياسة ، و السيادة ، و التدبير و الملك .
- الاجتماع ، و التنمية .

و قد لخص أحمد بن فارس هذه المعاني في ثلاثة فصول : الإصلاح ، لزوم الشيء ، و ضم الشيء إلى الشيء (الجمع) . و لو نظرنا إلى المعاني اللغوية لمفهوم التربية مجتمعة ، لوجدنا أن كل معنى يكمل الآخر فيمثل في مجموعه المعنى المتكامل و الشامل للتربية . فلفظ التربية لفظ أصيل في اللغة العربية له أصوله ، و اشتقاقه ، و له دلالاته اللغوية التي ينبغي استدعاء معانيها عند الحديث عن التربية .

ما أهم دلالات مفهوم التربية لغويا ؟ و ما أهمية تلك الدلالات تربويا ؟

ثانيا : مفهوم التربية في القرآن الكريم و السنة :

ورد مفهوم التربية في القرآن الكريم و الحديث الشريف بدلالات متعددة و واسعة ، و كلها من مستلزمات التربية بالمعنى الإسلامي ، فمن لوازم التربية : الرعاية و العناية ، و الإيواء ، و الولاية للطفل و كفالته صغيرا حتى يكبر ، أما مشتقات الفعل ربي التي جاءت جميعها بمعنى الزيادة و النمو و الارتفاع ، فقد خص بها النبات ، و الأرض الخصبة ، و المال ، و الأمم في القرآن . أما (رب) بمعنى المالك المتصرف ، الذي يربي عباده بنعمه ، فقد اختص بها الرب في القرآن .

إن كل مفهوم من المفاهيم السابقة : التربية ، الكفالة ، الرعاية ، الولاية ، الإيواء ، الدراسة ، التزكية ، التنشئة ، لابد لها من التعليم لتحقق وجودها ، و فعاليتها . و أن كل من هذه المفاهيم تتعلق بمفهوم التربية تعلقا واضحا ، بحيث لا تفهم التربية بالمعنى الإسلامي إلا باستدعاء تلك المفاهيم و استحضارها في الذهن .

أن مفهوم التعليم من أكثر المفاهيم تكرارا و شمولا في القرآن . و ذلك لأنه شمل العديد من أنواع التعليم و لم يقتصر على القراءة و الكتابة ، بل شمل الجوانب المهنية ، و التدريبية ، و تعلم المهارات . حيث بدأت بتعليم الله لأنبيائه و رسله و من اصطفى من مخلوقاته ، ثم أن الرسل تقوم بتعليم الأمم التي أرسلت إليها ، ثم من بعد الرسل يأتي صحابتهم ، و من صلح من الخلق ليحملوا رسالة التعليم و التربية ، وفقا لشرائع الله و آدابه التي وضعها لعباده . و عليه فعند التحدث عن التعليم بالمعنى الإسلامي ، لا نقتصر على الجانب المعرفي في التعليم ، بل نتعداه إلى سائر الجوانب . و يضاف إلى ذلك أن التعليم هو عطاء الله لعباده ، و أمرهم أن يأخذوا بأسبابه ، و أن يشكروا نعمة الله على ما آتاهم من علم و معرفة . فربط العلم و التعليم بالله معلم بارز من معالم التربية الإسلامية ، لأن المعلم و المربي هو الله ، و العالم بكل العلم هو الله ، و تلك دلالات لها انعكاساتها على معنى التربية في الإسلام نظرا و تطبيقا ، كما هو واضح من تاريخ التربية و التعليم في عصور الإسلام الأولى ، عندما كانت كلمة التربية ، و التعليم تستدعي للعقل المسلم كل تلك المعاني و الدلالات بإيحاءاتها المختلفة . حتى إذا خبت بعض تلك الدلالات ، و حل محلها معاني أخرى محدودة للتربية و التعليم ، كما حدث في العصور التالية كان من الضروري أن تصاب التربية و التعليم في العالم الإسلامي بنوع من الوهن من حيث المحتوى و الأهداف . مما يعطي أهمية كبرى لمحاولة إعادة التأصيل لجميع مفاهيمنا التربوية حتى تعود التربية لهويتها و أصالتها الحضارية .

ما أهم دلالات مفهوم التربية في القرآن الكريم و السنة ؟ و ما أهمية تلك الدلالات تربويا ؟

ثالثا : مفهوم التربية في العصور الحديثة :

شهدت أوربا في عصور النهضة ثم العصور الحديثة تحولات سياسية و اقتصادية و ثقافية فرضت نفسها على مفهوم التربية و مدلولها في العصر الحديث . فمن الناحية الاقتصادية اختفى الإقطاع و لم يعد الإنتاج الزراعي هو

محور الاقتصاد بل ظهرت مجالات جديدة للنشاط الاقتصادي من أهمها التجارة و الصناعة و الخدمات العامة . و قد أدى الاشتغال بهذه الميادين الجديدة إلى أهمية رأس المال في العصر الحديث باعتباره محور النشاط الاقتصادي ، و نتج عن ذلك النظام الاقتصادي المعروف بالنظام الرأسمالي الذي يقوم على ترك الحرية لرأس المال في الاستثمار و فيما يؤدي إليه من عائد و أرباح . كذلك ظهر النظام الاشتراكي كنظام لسيطرة المجتمع على رأس المال كأداة من أدوات الإنتاج . و أدى النظام الرأسمالي إلى ظهور طبقات جديدة من أهمها : الطبقة الرأسمالية من كبار رجال الأعمال في التجارة و من أصحاب المصانع . كذلك ظهرت طبقة العمال الصناعيين و طبقة الموظفين (الطبقة الوسطى) . و أدى ظهور النظام الشيوعي أو الاشتراكي إلى سيطرة الطبقة العاملة و ضرورة إعدادها و تربيتها للمجتمع الاشتراكي الجديد . و قد أدى هذا التطور الاقتصادي إلى أن تهتم التربية في الدول الرأسمالية و الاشتراكية معا بتوفير القوى البشرية القادرة على العمل و الإنتاج في مختلف جوانب النشاط الاقتصادي ، أي أن النشاط الاقتصادي أصبح من مضمون التربية بعد أن كان الاشتغال بالإنتاج و مهاراته خارجا تماما عن نطاق المؤسسات التربوية و التعليمية سواء في العصور الوسطى أو العصور القديمة .

و من ناحية السياسة شهدت أوربا ظهور الدولة القومية ، و بعد أن كان الولاء قاصرا في العصور الوسطى على الولاء الديني للكنيسة الكاثوليكية أو الولاء الزمني للامبراطور أو الولاء المحلي للأمير الإقطاعي ، ظهرت تجمعات جديدة تقوم على مفهوم السيادة القومية على نطاق من الأرض تحدده اعتبارات الثقافة القومية . ففرنسا و إنجلترا و إسبانيا و روسيا على سبيل المثال أصبحت دولا قومية ، لكل دولة لغتها و أحيانا كنيستها القومية ، و يوحد بين أفراد الدولة الواحدة أصول تاريخية مشتركة ، و لغة قومية مشتركة ، و عادات و تقاليد مشتركة و مصالح اقتصادية مشتركة ، و حياة دستورية أو سياسية مشتركة ، و أصبحت من الأمور الهامة للتربية أن تحافظ على هذا التراث الثقافي القومي و أن تربي الأفراد على الولاء له .

كذلك شهدت أوربا تحولا أساسيا من الناحية الفكرية تمثل في الانتقال من المعرفة التي تقوم على أساس المنطق الشكلي الذي يستمد قضاياه من مصادر السلطة الدينية أو الزمنية عن طريق القياس إلى نوع جديد من المعرفة و الفكر هو الذي عرف " بالمنهج التجريبي " الذي نقله الغرب عن المسلمين . و قد كان روجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٢) أول حامل للدعوة إليه في أوربا ثم قدر لهذا المنهج أن ينتصر بجهود فرنسيس بيكون بعد ثلاثمائة عام (١٥٦١-١٦٢٦) و بهذا المنهج دخلت أوربا عصر النهضة . و يعتمد هذا المنهج على دراسة الواقع ، و على المعرفة الحسية و على التجريب مما أدى إلى قيام تفسيرات جديدة للحياة و مظاهرها المادية و الاجتماعية و مما أدى إلى ظهور تطبيقات لهذه القوانين العلمية التي عرفت بالاختراعات و التطبيقات التكنولوجية في جميع مجالات الزراعة و الصناعة و ميادين السلم و الحرب . و أدى ذلك إلى اهتمام المسؤولين بالبحث العلمي و ازدياد عدد العلماء و الباحثين حتى أن أكثر من تسعين في المائة من العلماء المخترعين الذي ظهروا في تاريخ البشرية كلها يعيشون في عصرنا الحديث . كذلك ظهرت كثير من أنواع التخصص ، و أنواع مختلفة من التعليم : الزراعي ، و الصناعي ، و التجاري ، و النسوي . و كلما تعقدت ثقافة العصر كلما اشتدت الحاجة إلى مفهوم أكثر اتساعا للتربية بحيث تشمل التربية الاجتماعية و التربية العلمية و التربية التقنية و التربية اليدوية و التربية السياسية و التربية الدولية إلى غير ذلك من الغايات التي يتحدث عنها رجال التربية في عصرنا الحديث . و بجوار المؤسسات التعليمية التقليدية ظهرت مؤسسات جديدة لتشاركها دورها مثل : مؤسسات تعليم الكبار ، و مؤسسات التدريب المهني ، و المؤسسات السياسية ، و دور الإعلام .. و الخ .

و يتوسع علماء التربية المعاصرون في مفهوم التربية بحيث لم يعد المقصود بها عمل المؤسسات التعليمية المنظمة فقط بل أصبح المجتمع كله مؤسسة تربوية و أصبحت التربية عملية مستمرة مدى الحياة . ذلك أن إنسان العصر الحديث لابد أن يحيا تطورات العصر ، يشارك فيها و يسعى لتثقيف ذاته اجتماعيا و علميا و تقنيا و سياسيا و دوليا . و يشهد عالمنا المعاصر ثورة حقيقية في تكنولوجيا التربية باستخدام وسائل الإعلام الجماهيري من إذاعة و تلفزيون

و نشرات و محاضرات و التعليم بمساعدة الحاسب الإلكتروني (التعليم المبرمج) إلى غير ذلك من وسائل الضبط الآلي : السبرنطيقا و استخدام العقول الآلية و باستخدام تلك الوسائل الحديثة في التربية ، ستصبح التربية عملية أكثر استمرارا و أقل تكلفة و أكثر متعة .

ما أسباب تغير مفهوم التربية في العصر الحديث ؟ ولماذا اتسع هذا المفهوم ؟

و رغم الدور الكبير الذي تلعبه تلك المؤسسات النظامية في عصرنا الحديث فإن بعض علماء التربية المعاصرين يرون أنها بوضعها الحالي لم تعد قادرة على تحقيق تربية الإنسان المعاصر و تنمية ملكته بطريقة شاملة و مستمرة . ذلك أن تلك المؤسسات بطبيعتها الحالية مؤسسات تصفوية اصطفائية ، تدرج طلابها و تختارهم وفق معايير تحصيلية معينة ، كما أنها في الغالب مؤسسات محافظة لا تواكب التغييرات الاجتماعية و الاقتصادية المتلاحقة ، و بدلا من أن تقود التحديث و التجديد نراها في الغالب تعكس البنى الاجتماعية و الاقتصادية و تعمقها و تحافظ عليها . كذلك فهي مؤسسات لها قيودها الزمانية و المكانية التي تحد من قدرتها على ملاحقة العصر ، و تمكين الإنسان من تطوير إمكاناته متى يحب و أين يحب . و من أشهر نقاد " مؤسسات التعليم " النظامي المدرسي ايليش الذي يميز تمييزا دقيقا بين تطور الإمكانيات التربوية في العصر الحديث – و هو أمر يؤيده – و بين أن تتحول التربية إلى مؤسسات رسمية نظامية مقيدة بالزمان و المكان – و هذا أمر يعارضه و يناهضه . و يقول ايليش في هذا الصدد بأنه لا يعارض فكرة إنشاء المؤسسة التربوية النظامية لكي تلبي احتياجات البشر ، إلا أن المشكلة الرئيسية في نظره هي التالية : هل نحن نتجه إلى نشر التعليم و تطبيق البرامج اعتمادا على ملكات الفرد إلى أقصى حد ممكن على أساس أن تنمية تلك الملكات تؤدي إلى تغيير البيئة و تطويرها أم نسير سيرا آخر

في اتجاه تأسيس المدارس التعليمية بالمعنى الأصلي للكلمة ذات البرنامج الجامد و قيود القيد و النجاح و المصروفات ؟ .

و مهما شعر رجال التربية المحدثون بالإحباط الذي أصاب المجتمع من جراء مؤسسات التعليم النظامي ، و عدم كفاءة تلك المؤسسات في تقديم التربية المناسبة لإنسان العصر الذي يمتاز بالتجديد و التحديث المستمر ، إلا أن الحاجة إلى مثل تلك المؤسسات ستظل قوية في المستقبل ، و لا نعتقد أنه سيمكن الاستغناء عنها في المستقبل المنظور ، بل سيتجه الجهد إلى تطوير وظيفتها باستمرار لتواكب مستحدثات " عصر ما بعد الصناعة " و هذا ما أشار إليه توفلر عالم الاجتماع الأمريكي عندما تحدث عن معالم هذا العصر في كتابيه صدمة المستقبل ١٩٧٠ ، و الموجة الثالثة ١٩٨٠ ، و هو عصر الكومبيوتر و ثورة المعلومات ، عصر الإلكترونيات و الليزر و البصريات و الاتصالات و الهندسة الوراثية و الطاقة البديلة و علوم المحيطات و صناعة الفضاء و هندسة البيئة و زراعات النظم الاقتصادية .. الخ . مما يفرض على رجال التربية أن يعيدوا تشكيل النظم التربوية في ظل هذه الاحتياجات المستقبلية المتوقعة .

ما النقد الموجه للتعليم النظامي في العصر الحديث ؟ (ايليش) وما رأيك في هذا النقد ؟

فالهدف الأول من التربية يتطلب تعليم للصفوة ينتج قاعدة علمية و تكنولوجية تقوم بإدارة المعرفة من أجل تحقيق مهام عاجلة من أجل الاختراق و ليس التكيف و البقاء ، و الهدف الثاني يتطلب تعليم الجميع تعليما عاليا يحقق اقتلاع مشاكل الفقر و الجهل و المرض من جهة و يحقق مطالب التنمية المستدامة و ليس لبعض الوقت .

و في هذا الصدد نحاول أن نرى كيف يفكر الأمريكيون في أمر التعليم باعتبارهم أكبر فيلق يقوم بالهيمنة على العالم ، فنجد بيل كلينتون و آل جور في مؤلف لهما مقدم للناخب الأمريكي عنوانه : (رؤية لتغيير أمريكا الاهتمام بالناس أولا) يقول ما نصه " إن إعطاء الأولوية للناس يتطلب القيام بثورة في التعليم على امتداد العمر ، لأن التعليم في الوقت الحاضر أصبح أكثر من وسيلة لتسلق سلم الفرصة الاقتصادية ، و ذلك مطلب ملح لأمتنا ، و ستعمل استراتيجيتنا على الاستثمار في الناس في كل مراحل حياتهم . إن الحكومة تفشل عندما تفشل مدارسنا ... لم نشهد عملا حكوميا كبيرا لاستثمار المواهب الجماعية لشعبنا .. " .

و لإنقاذ هذا نجد النصوص التالية : " ينبغي أن يدخل كل طفل المدرسة و هو مستعد بدنيا و عقليا ، لتقليل الفجوة بين الطلبة الأغنياء و الفقراء عن طريق زيادة تمويل الباب الأول المتعلق بالطلبة ذوي الدخل المنخفض ، جمع قادة دوائر الأعمال و العمال و التعليم ، و ذلك لوضع برنامج قومي للتلمذة المهنية يقدم للطلبة الذين لا يتجهون للتعليم العالي تدريبا قيما على المهارات مع الوعد بشغل وظائف جيدة عند التخرج " . و يقرر أن : " التمويل الكامل للبرامج التي تسبق دخول المدرسة توفر لنا عدة دولارات عن كل دولار ننفقه ، إعطاء الحق لكل أمريكي للاقتراض من أجل الدراسة ... " .

هكذا نجد أن الحديث عن التعليم في الدولة التي تقود العالم اليوم يتم على اعتبار أن التعليم هو الوسيلة الأساسية للتفوق الاقتصادي و هذا يتم من خلال ما يعرف نظريا بالطريق الثالث الذي يتعامل مع اقتصاد السوق و آليات العرض و الطلب ، و لكن في نفس الوقت تضطلع الدولة بتقديم الخدمات التعليمية و الصحية للجميع حتى لا يتم استبعاد فرد بوصفه فاعلا اجتماعيا من حلبة المنافسة في اقتصاد السوق .

و يتعرض بول كنيدي في مرجعه الأصيل تحت عنوان " الاستعداد للقرن الحادي و العشرين " لهذه القضية بقوله : " إن التاريخ يأتي من جديد ليقدم قوائمه بالفائزين و الخاسرين ، و ذلك لأن التغيرات الاقتصادية و التطورات

التكنولوجية ، شأنها شأن الحروب و الدورات الرياضية ، لا تنطوي في العادة على منفعة لجميع الأطراف في نفس الوقت ، إن من انتفع من التقدم الذي هللت لمجيئه الأصوات المتفائلة ابتداء من حركة التنوير حتى عصرنا الحالي هي الجماعات و الأمم التي غدت قادرة على تسخير العلوم و الوسائل الحديثة لمصلحتها ، فيما لحق الضرر بالأمم الأخرى الأقل استعدادا للاستجابة للمتغيرات التكنولوجية و الثقافية و السياسية " . و التاريخ بطبيعته لا يرحم الأمم الضعيفة أو التي استبعدت مشاركتها الفعالة في البناء و الإنجاز ، و الدخول بذلك إلى حلبة المنافسة بكفاءة و مؤهلات معرفية و علمية كافية . و يرجع السبب الرئيسي أو من بين الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه الأمم إلى التردي إهمالها المدان لنظمها التربوية .

و مع الثورة التي تشهدها هذه الثورة العلمية و التكنولوجية و التدفق المعلوماتي المستمر الذي يشبه السيل العرم يصبح من غير الممكن بطبيعة الحال تحنيط أفراد المجتمع للمعلومات التي اكتسبوها و المهارات التي جلبوها من خلال فترة الدراسة التقليدية (هذا مع التفاؤل بأنهم بالفعل قد اكتسبوا معارف و مهارات حقيقية أثناء الدراسة) . و هذا ما يؤكد على جبرية تعليم الجميع مدى الحياة .

و الذي نريد أن نؤكده هنا أن مفهوم التربية مهما ازداد اتساعه في هذا العصر ليشمل تربية الصغار و الكبار و المسنين و تربية الذكور و الإناث بل و التعليم بعد المدرسة و بعد الجامعة و أنواع من التدريب المهني و الحرفي و الصناعي و التجاري و محو الأمية ، و ألوانا من التربية السياسية و الجمالية و البيئية .. الخ . إلا أن مفهوم التربية بالمحتوى الإسلامي قد ضم ذلك كله بالإضافة إلى أمرين :

الأمر الأول : أن التربية عند المسلمين لم تكن من أجل عمارة الدنيا فقط بل عمارة الدنيا و الآخرة معا . و بذلك أنتجوا العلم الإسلامي الملتزم أخلاقيا ، العلم الذي يبني و لا يدمر ، العلم الذي ينشر الخير و العدل و لا يكون أداة للظلم و العدوان و تدمير الإنسان و البيئة .

الأمر الثاني : أن التربية عند المسلمين كانت تربية لكل الراغبين في التعليم مهما كانت ظروفهم الاجتماعية و الاقتصادية . كان هناك الوقف الإسلامي الذي يمد الجميع بكل مستلزمات طلب العلم ، من غذاء و كساء و سكن و أدوات تعليمية .. الخ بحيث أتيح العلم للجميع الفقراء و الأغنياء الذكور و الإناث أهل القرية و أهل المدينة . كذلك تعددت مؤسسات التربية و التعليم فكان المسجد و الكتاتيب و المدرسة و بيوت العلماء و المكتبات و حوانيت الوراقين .. الخ مما جعل التعليم متاحا للجميع في الوقت الذي يريدون ، و في المكان الذي يختارون .

إن مفهوم التربية بالمعنى الإسلامي الواسع هو الذي يستطيع أن يحل الكثير من مشاكل المجتمع ، لأنه يفرض هذه التربية على كل مسلم و مسلمة ، الغني و الفقير ، الذكور و الإناث ، القرى و المدن ، الصغار و الكبار ، و يجعل العلم فريضة من المهد إلى اللحد و ليس مجرد مرحلة تعليمية تنتهي بعد سنوات محددة . كذلك تجعل العلم مشاعا يلتزم الجاهل بأن يتعلم و إلا أثم و قصر في حق نفسه و مجتمعه ، و يلزم المجتمع أن يوفر المؤسسات اللازمة و المتعددة لتعليم أفراده ، بحيث يصبح المجتمع كله عالما أو متعلما ، ويكون كذلك في تعليم و تعلم منذ النشأة و حتى لقاء الله ، و يكون أول ما يسأل عنه المسلم عند لقاء ربه : " و علمه ماذا عمل فيه " هل ازداد علما ؟ و هل نشر هذا العلم ؟ و هل طبق هذا العلم ؟ ووظفه في خدمة نفسه و مجتمعه ؟ و بهذا المفهوم الإسلامي للتربية كانت الحضارة الإسلامية ، و تكون المجتمع الإسلامي العالم المتعلم من المهد إلى اللحد .

ما الفرق بين مفهوم التربية بالمعنى الشامل في العصور الإسلامية الزاهرة وعصرنا الحديث ؟

رابعا : ازدياد أهمية التربية في مجتمعنا المعاصر :

أولا : التربية كأداة للتحرر القومي :

ظهرت حركة الاستعمار الأوربي مرتبطة بقوة بعض الدول الأوربية في ميدان التجارة و الصناعة و رغبة الطبقات البرجوازية في زيادة أرباحها و استثماراتها مما أدى إلى البحث عن بلاد جديدة هي المستعمرات سواء لتصريف المنتجات أو للحصول على المواد الخام . و عندما سقطت كثير من دول آسيا و أفريقيا و أمريكا اللاتينية في يد الاستعمار الأوربي ، استخدم هذا الاستعمار التربية من أجل فرض لغته و ثقافته و الولاء له . و لذلك عندما عمت تلك الأقطار حركات تدعوا إلى التحرر من الاستعمار و تحاول الوصول إلى كيان سياسي مستقل ، أدركت تلك الحركات التحررية أهمية التربية في خلق أجيال جديدة يكون ولاؤها للوطن و لغته و ثقافته . و لقد اشتدت حركة التحرر القومي منذ أوائل القرن العشرين ووصلت إلى ذروة مكافحتها للتيار الاستعماري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية و أدت إلى تحرر كثير من دول آسيا و أفريقيا و أمريكا اللاتينية من الاستعمار العسكري و الاقتصادي للدول المستعمرة كإنجلترا و إيطاليا و فرنسا و هولندا و بلجيكا و أسبانيا و البرتغال ، و ما تزال هذه الحركة مستمرة لدى بعض الشعوب التي ما تزال مستعمرة . و كانت محصلة ذلك أن ازدادت أهمية التربية كأداة للتحرر السياسي و الاقتصادي و الثقافي ، و بث الولاء للوطن و ثقافته على مستوى العالم كله .

ثانيا : التطور الاقتصادي في عصرنا الحديث :

رغم أن انتعاش التعليم و ازدهاره قد ارتبط على مر العصور بالازدهار الاقتصادي ، كذلك كان تدهور الاقتصاد يؤثر على الحالة التعليمية تأثيرا سلبيا ، يمكن أن نلاحظ ذلك مثلا في بلاد الإغريق عندما نشطت اقتصاديا عن طريق التجارة ، قابل هذا الانتعاش عصر ذهبي في التربية و التعليم و في الفكر

الإغريقي نفسه ، و عندما تدهورت الدولة الرومانية و سقطت في القرن الخامس قبل الميلاد اقترن هذا السقوط بسوء الأحوال الاقتصادية و كاد مشعل التعليم أن ينطفئ في القرون الخامس و السادس و حتى الثامن الميلادية . و كذلك فإن التعليم الإسلامي يتأثر من حيث نموه و حجمه و طبيعته بالازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به الخلافة الإسلامية طوال عصور الازدهار ، و حتى إذا تمزقت دولة الخلافة إلى مجموعة من الدويلات ، و انشغلت تلك الدويلات بالحروب الداخلية و الخارجية مما استنزف اقتصادها و جدنا أن حركة التعليم تنحسر و تنضب موارد الأوقاف ، و تزوي الكثير من مؤسسات التعليم الإسلامي ، و يسود الاستبداد السياسي و الجهل الديني و التأخر الحضاري .

إن الاقتصاد ظل يؤثر في التعليم من حيث نموه و طبيعته و حجمه ، إلا أن تطورا آخر قد حدث في علاقة الاقتصاد بالتعليم في عصرنا الحديث . هذا التطور هو أن الاقتصاد نفسه لم يعد اقتصادا بسيطا يمكن أن يتم بدون تعليم كما كان الأمر طوال العصور القديمة و الوسطى ، فالزراعة و الرعي و الصناعة في تلك العصور كانت سهلة و كان يمكن تعلمها خارج المؤسسات التعليمية . و لعل هذا هو السبب في أن الاقتصاد ظل آلاف السنين على ما هو عليه دون قفزات ثورية . أما في عصرنا الحديث فقد حدثت ثورة اقتصادية كبرى عندما أصبح الاقتصاد قائما على العلم . و لقد أحدثت تطبيقات العمل و التكنولوجيا تطورات هائلة في مجالات الزراعة و الصناعة و التجارة . و فرض هذا التطور ضرورة إعداده السابق . و يشيع اليوم اعتقاد سائد بين رجال التربية و رجال الاقتصاد في جميع أنحاء العالم أن النمو الاقتصادي المعاصر سواء في " المجتمع الصناعي " أو " المجتمع ما بعد الصناعة " يتطلب أنواعا و مقادير من الموارد البشرية ، و هذه الأنواع و المقادير لابد من إعدادها و تربيتها . و حيث أن النمو الاقتصادي هو مطمح كل الشعوب و الدول في عصرنا الحديث فقد ازدادت أهمية التربية كأداة لتحقيق هذا النمو .

ثالثا : شيوع روح العدل الاجتماعي و المساواة في الفرص التعليمية :

لقد ظهرت الأفكار التي تنادي بالعدالة الاجتماعية نتيجة لما أحدثته المظالم التي عانت منها الطبقات المحرومة داخل أوطانها ، و ارتبطت هذه الفكرة في العالم الغربي بالنظريات الاشتراكية بمختلف صورها . سواء أكانت اشتراكية متدرجة مثل الاشتراكية الفابية أو نقابية كاشتراكية حزب العمال البريطاني أو متطرفة كاشتراكية الأحزاب الشيوعية في روسيا أو الصين . بينما ارتبطت هذه الفكرة في " العقل الإسلامي " بمبادئ التعاون و الإخاء الإسلامي من خلال كتابات جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و حسن البنا ، و غيرهم كثيرون في شتى أنحاء العالم الإسلامي . و الذي يهمنا هو انعكاس هذه الأفكار على كل ما ننادي به من فكر تربوي حديث يقوم على اعتبار التعليم حقا من حقوق جميع الأفراد بصرف النظر عن الطبقة التي ينتمون إليها . و من هنا جاءت قضية التعليم الإجباري و إطالة مدته كلما سمحت الظروف ، و جاءت قضية تكافؤ الفرص التعليمية التي تكون فيها استعدادات التلاميذ و اهتماماتهم هي المحددة لنوع التعليم و درجة مواصلتهم له بعد أن كان الأمر فيما مضى حكرا على طبقة معينة أو فئة معينة من ذوي اليسر الاقتصادي . و بشيوع تلك الروح فتحت مؤسسات التعليم أبوابها لأبناء الشعب على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية على أساس المساواة في الفرص . و بعد أن كانت الغالبية العظمى من أفراد الشعب – إن ذهبوا إلى المدرسة أصلا – يذهبون في الغالب لمدارس ابتدائية مغلقة لا تؤدي بهم إلى المدارس الثانوية و العالية ، إذا بهم جميعا يدخلون " مدرسة مفتوحة " تؤدي بهم إلى جميع أنواع التعليم . و بذلك فإن انتشار مبادئ العدل الاجتماعي كانت من أهم أسباب ازدياد أهمية التربية في عصرنا الحديث ، سواء من حيث ازدياد الطلب على التربية ، أو ظهور مؤسسات مختلفة جديدة أو نظم تربوية متعددة لتلبية الحاجات التربوية المختلفة لتلك الملايين المتزايدة عاما بعد عام .

رابعا : الإيمان المتزايد بضرورة التخطيط الاجتماعي و الاقتصادي :

يشهد عالمنا المعاصر تفاوتا اقتصاديا و سياسيا و اجتماعيا شديدا بين دوله المختلفة ، و خصوصا دول العالم المتقدم و هي تلك الدول التي حققت تقدما هائلا في مجالات الاقتصاد و السياسة و الاجتماع كدول أوروبا و أمريكا اللاتينية ، ولقد شاع منذ الستينات مصطلح " الدول النامية " للتعبير عن تلك الدول ذات المستوى الأدنى من النمو الاقتصادي و الاجتماعي و التي لم تعد بعد من الدول المتخلفة و إن كانت لم تصل بعد أيضا إلى مستوى الدول المتقدمة ، و كما أن دول العالم المتقدم تؤمن بأهمية التخطيط الاجتماعي و الاقتصادي – بدرجات متفاوتة – لإحداث المزيد من التقدم و النمو فإن الدول المتخلفة و النامية تأخذ بمفهوم " التنمية " بوصفه أداة أو وسيلة يمكنها من خلاله أن تواجه عوامل التخلف . و التنمية كما عرفها السكرتير العام للأمم المتحدة في تقاريره " تشمل النمو و التغيير و تشمل النواحي الاقتصادية و الاجتماعية كما أنها ذات أبعاد كمية و كيفية " . و تلجأ الدول النامية إلى التخطيط بشتى تقسيماته كمنهج و أسلوب لتحقيق أهداف التنمية ، إذ أن التخطيط بمفهومه العام هو رسم و تحديد المفردات التي ينبغي اتباعها في توجيه النشاط البشري اجتماعيا و اقتصاديا لتحقيق نتائج معينة في فترة زمنية محددة . و كلما ازداد إيمان الدول بالتخطيط الاجتماعي و الاقتصادي كلما ازدادت أهمية التربية كأداة لتربية أجيال جديدة قادرة على تحقيق أهداف التربية الشاملة لبلادها . و لعل من أهم خصائص تلك الأجيال القادرة على النهوض بأوطانها الاستعداد للخبرات الجديدة ، و تقبل التجديدات و التغير ، و العقل المفتوح و التوجه الديمقراطي و المحافظة على الوقت و المواعيد و التوجه نحو التخطيط و الالتزام ، و الاعتقاد في التقدم و الإيمان بالعلم و التكنولوجيا .. الخ ، و هذه كلها سمات شخصية تعتبر من صميم عمل المؤسسات التربوية .

خامسا : التربية و السلام العالمي :

شاهد إنسان هذا القرن العشرين الحربين العالميتين الأولى و الثانية و اللتين كانتا نتيجة تنافس الدول الكبرى للحصول على مستعمرات و ما قام بينها من صراع في سبيل مزيد من المجال الحيوي سواء في أوروبا نفسها أم في مستعمرات آسيا و إفريقيا و ظاهرة الحرب العالمية لم تكن معروفة في التاريخ القديم أو الوسيط بمعنى أن يتأثر العالم كله بحرب معينة ، إنما كانت الحروب فيما مضى تؤثر غالبا في الأطراف المتحاربة ، ولكن نتيجة لقيام التجارة العالمية و إنتشار الصناعة على نطاق واسع و ظهور المخترعات الحربية الحديثة من طائرات و صواريخ و أجهزة رادار و قنابل .. الخ أصبحت ظاهرة الحرب ظاهرة عالمية . و بعكس الحروب السابقة لم يقتصر الدمار في الحرب العالمية الأولى و الثانية على القوات المشاركة في المعارك بل تعداه إلى القرى و المدن وهياكل الإنتاج المختلفة ، و استخدمت في ذلك أفتك أنواع الأسلحة . و منذ نهاية الحرب العالمية الثانية و حتى اليوم نجد تطورا هائلا في وسائل الدمار حتى تكاد تلك الوسائل أن تقضي على الجنس البشري و حضارته في حالة نشوب حرب عالمية ثالثة . و لقد ولد هذا " الرعب النووي " شعورا قويا لدى الكثير من رجال التربية بضرورة استخدام التربية كأداة عالمية لتنمية روح الإخاء و التفاهم بين الشعوب على أساس الحرية و التعاون و المساواة و على أساس روح الإنشاء و البناء لا الهدم و التدمير . و من هنا كانت منظمة اليونسكو العالمية للتربية و الثقافة و العلوم ، و كانت جهودها العديدة في هذا المجال ، مما أعطى للتربية أهمية خاصة في عصرنا الحديث كأداة من أدوات التواصل و السلام العالمي .

و لعل من أبرز دلائل الاهتمام بالتربية في عصرنا الحديث تلك الزيادة الهائلة في الطلب الاجتماعي للتربية على نطاق العالم كله ، و ازدياد عدد التلاميذ و الطلاب المقيدين بالمدارس و المعاهد و الكليات . و قد بلغت هذه الزيادة أكثر من ٥٠% في عدد التلاميذ المقيدين بالتعليم الابتدائي في جميع أنحاء

العالم ، و أكثر من ١٠٠% في عدد الطلاب بالتعليمين الثانوي و العالي و ذلك في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ فقط . و لما كانت الدول النامية قد بدأت نموها التعليمي من قاعدة أصغر نسبيا ، فإن النسب المئوية للزيادة فيها و على الأخص في مرحلة التعليم الإبتدائي تزيد كثيرا عن النسب المقابلة لها في الدول المتقدمة . و مع ذلك فإن هذه الدول المتقدمة قد حققت زيادة أكبر نسبيا في التعليمين الثانوي و العالي . و لما كان الطلب الشعبي يزداد بإستمرار على التعليم ، و كان عدد السكان في العالم يتزايد ، و الأعداد الكبيرة من التلاميذ التي بدأت تحصل فجأة على فرص التعليم تستمر في طلب المزيد منه حتى تصل إلى أعلى درجات السلم التعليمي ، فإن الزيادة في معدلات القبول و القيد في المدارس و المعاهد و الكليات على مستوى العالم يعتبر أمرا متوقعا في المستقبل . و قد ترتب على ذلك أيضا أن تضاعفت النفقات على التربية و التعليم في أنحاء العالم . و على سبيل المثال فقد بلغت النفقات العمومية المخصصة للتعليم على مستوى العالم عام ١٩٦٨ حوالي ١٣٢ مليارا من الدولارات مقابل ٥٤,٤ مليارا في عامي ١٩٦٠-١٩٦١ . و معنى ذلك أن نسبة الزيادة بلغت ما يقرب من ١٥٠% في ثماني سنوات فقط . و بالتأكيد فإن تلك النفقات سوف ترتفع أكثر فأكثر لشدة الطلب على التعليم على نحو ما ذكرنا سابقا من ناحية ، و لازدياد تكلفة التعليم بسبب ارتفاع الأسعار من ناحية و ما يتطلبه التعليم الحديث من تكلفة أكبر من حيث المباني و الأجهزة و إعداد المعلم الجيد و المناهج المتطورة و تكنولوجيا التعليم الحديث . و الواقع أن نفقات التعليم في العالم كله تتجاوز بكثير النفقات العسكرية . و لقد بلغت النفقات العسكرية على الصعيد العالمي ١٨٢ مليار من الدولارات عام ١٩٦٨ بينما بلغت المصروفات على التعليم النظامي ١٣٢ مليار من الدولارات . غير أنه ينبغي أن يضاف إليه كذلك نفقات ما تصرفه الدول في قطاعات أخرى في حقل التربية و التعليم ، و أن يضاف إليه كذلك نفقات البرامج التربوية المذاعة بواسطة الإعلام الجماهيري و النفقات التربوية الخصوصية .. الخ . و من كل ما سبق يتضح لنا كيف زادت أهمية التربية في عصرنا الحديث ، و الأسباب التي ساعدت على ذلك ، مع الإشـــــارة إلى أبرز

مؤشرات تلك الأهمية متمثلة في الزيادة الهائلة في معدلات القبول و القيد في المدارس و الجامعات و المعاهد ، و الزيادة المتضاعفة في النفقات على التربية و التعليم على مستوى العالم كله و بنسب متفاوتة من دولة إلى أخرى حسب ظروفها السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية الخاصة بها .

ما أسباب ازدياد أهمية التربية في عصرنا الحديث ؟

وما أهم مؤشرات ازدياد تلك الأهمية ؟

مفهوم مشكلات المجتمع

المشكلة هي حالة من عدم الرضا بالنسبة للفرد أو الجماعة عن شئ محدد ، و الشعور أن هناك بدائل أفضل من تلك الحالة التي نحن عليها . و بذلك فإن المشكلة لا تكون مشكلة إلا إذا كان هناك شعور قوي بتلك المشكلة ، هذا الشعور القوي الذي يحرك الفرد أو الجماعة للبحث عن حلول لتلك المشكلة و إيجاد حالة أفضل مما يعانيه الفرد أو المجتمع من مواقف صعبة أو غير لائقة . و بالتالي فإن المشكلة لا تصبح مشكلة حقيقية إلا إذا كان هناك وعي بتلك المشكلة و كانت هناك رغبة صادقة في أيجاد بدائل لتلك الحالة غير المرضية . أما إذا وجدت المشكلة و لم يشعر الناس بها ، و لم يكن لهم وعي بمقدار ما هم عليه من سوء ، أو كان لهم وعي بالمشكلة و لكنهم لا يملكون الإرادة و الإصرار و العزم على مواجهة تلك الحالة من عدم الرضا ، و الإصرار على استبدالها بحالة أكثر صلاحية للفرد و المجتمع ، فإن المشكلة لا تصبح مشكلة حقيقية .

و هناك أفراد و مجتمعات يعيشون مشاكل حقيقية : الفقر ، الجهل ، المرض ، التخلف العلمي و التكنولوجي ، الانحلال الأخلاقي .. الخ و لكنهم للأسف لا يعون تلك المشكلات و عيا كاملا ، بل يكون وعيهم بها وعيا ناقصا . و من ثم لا تتحرك إرادتهم لمواجهة تلك المشكلات ، و إذا تحركت فإنهم لا يتحركون الحركة الدائمة و الكافية لحل تلك المشكلات حلا علميا نهائيا . و من ذلك مثلا أن تضيع أرض قوم بالاحتلال و بدلا من أن يدركوا أبعاد تلك المأساة ، و أسبابها ، و ظواهرها ، و كيف يمكن القضاء عليها ، قد يخدعون أنفسهم بالتعايش مع العدو ، و التفريط في الأرض ، طالما أن المستعمر أكثر قوة و أكثر بطشا دون وضع الخطط العلمية لتغيير هذا الحالة ، حال الضعف و الاحتلال إلى حال القوة و التحرير .

و أيضا فقد يشعر الفرد و الجماعة بالمشكلة و لكنه بدلا من أن يجد الحلول العلمية و المناسبة لها قد يلجأ إلى أساليب الخرافة و الشعوذة لحل تلك المشكلات ، أو إلى الأساليب غير الواقعية و غير المنطقية ، أو أساليب المحاولة و الخطأ ، أو أساليب ترك المشكلة حتى تحل نفسها بنفسها ، أو أساليب تقليد الآخرين دون إدراك الفوارق بين الأفراد و المجتمعات و من ثم قدرتهم على مواجهة التحديات . و لعل أسوء أساليب مواجهة المشكلات هو أسلوب الهروب منها ، أو القول أنها أمر طبيعي لا يمكن الهروب منه أو قدر لا يمكن تغييره .

و على العكس من ذلك يكون الأسلوب العلمي الرشيد لحل المشكلات التي يواجهها المجتمع و التي تتمثل في :

-١- التعريف بالمشكلة و تحديد جميع أبعادها .
-٢- جمع المعلومات المتعلقة بالمشكلة .
-٣- تحديد البدائل التي تؤدي إلى حل المشكلة و اختيار البديل الأحسن .
-٤- تطبيق البديل المختار .
-٥- المتابعة و التقييم .

و يلزم الخطوات التالية أن نسأل أنفسنا عدة أسئلة حول طبيعة هذه المشكلة و ظواهرها و أبعادها الزمنية و المكانية و الكمية و النوعية كما هو موضح أدناه :

ما دلالة مفهوم المشكلة ؟ و متى تصبح مشكلة حقيقية ؟

أولا : في مجال نوعية المشكلة أو طبيعتها :

= هل هي مشكلة على المستوى السياسي (سياسية) ؟
= هل هي مشكلة على المستوى التنظيمي (تنظيمية) ؟
= هل هي مشكلة على المستوى الشخصي (فردية) ؟
= هل هي مشكلة قنوات توزيع (توزيع) ؟
= هل هي مشكلة قنوات اتصال (اتصال) ؟

ثانيا : في مجال ظواهر المشكلة :

(أ) : الأبعاد المكانية :

= هل تقع المشكلة في مكان جغرافي معين ؟
= هل تقع في مكان أو طبقة اجتماعية معينة ؟
= هل تقع في مستوى معين من التنظيم الاجتماعي أو الإداري ؟

(ب) الأبعاد الزمانية :

= هل هي مشكلة معاصرة ؟
= هل هي مشكلة مستقبلية ؟
= هل هي مشكلة ماضية (تاريخية) ؟
= ما الجهود السابقة التي بذلت لحلها ؟
= من الذين قاموا بها و ما هي الطرق التي اتبعوها ؟
= ما النتائج التي توصلوا إليها ؟
= ما أسباب الفشل إن كان هناك فشل و ما هي أسباب النجاح إن كان هناك نجاح ؟

ما الخطوات اللازمة لفهم المشكلة ؟ و حلها ؟

(ج) الأبعاد الكمية :

= ما مدى انتشار المشكلة ؟
= ما العوامل التي تؤثر في حجم المشكلة ؟
= ما عدد الأفراد أو المجموعات التي تأثرت بالمشكلة ؟
= ما أنواع الأفراد أو المجموعات التي تأثرت بالمشكلة ؟
= ما درجة خطورة المشكلة ؟

و قطعا فإن الإجابة على تلك الأسئلة سوف تزيدنا إدراكا لها ، و قدرة على إيجاد الحلول السليمة لها .

و لعلنا نستدعي هنا عدة مواقف من مواقف التربية في مواجهة مشكلات المجتمع . و ذلك عندما واجه المجتمع الغربي في بداية القرن التاسع عشر و العشرين قوة " الخلافة الإسلامية " و سيطرتها على الكثير من الأقطار الإسلامية مما كان يمثل تهديدا للأمن الأوربي . و في الحال إستطاعت " الطبقة المتعلمة " أن تقدم للساسة الأوربيين أكثر من مائة مشروع " لإسقاط ا لدولة العثمانية " عن طريق تمزيق أوصالها بدءا من الأطراف وصولا إلى القلب العربي و الدولة العثمانية ذاتها حتى تم لهم في النهاية ما أرادوا . و كذلك فإن حكام إسرائيل قد استخدموا التربية بنجاح لإيجاد أجيال من الصهاينة تستعمر الأرض ، و تطرد الشعب الأصيل ، و تقيم دولة مسلحة إلى أبعد حدود التسليح ، قادرة على شل الإرادة العربية و فرض وجهة نظرها الإستعمارية على الجميع . و هذه هي أمريكا عندما واجهت أزمة البترول أثناء حرب أكتوبر / رمضان المجيدة ١٩٧٣ م و استخدم البترول العربي لأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي حيث أرتفع سعره مضاعفا نحو خمسة عشر ضعفا بحيث وصل سعر البرميل منه حوالي ٤٥ دولارا .

ضرب ذلك المجتمعات الغربية بشدة ، خاصة و قد كان أصحابها على أبواب الشتاء القاسي عندهم ، و خاصة أن البترول أساسي في حياتهم ، في الصناعة و الزراعة و التجارة ، في الحياة المدنية و العسكرية على السواء ، ولم يكن في استطاعتهم أن يفعلوا أي شئ .. في البداية ، و من هنا لجئوا .. و فورا إلى التربية ، تلك التي يلجئون إليها دوما لمواجهة مشكلاتهم ، و كانت بداية الحلول هناك في أعلى القمة ، قمة الهرم السياسي ، في البيت الأبيض ، في يد الرئيس الأمريكي كارتر ، و الذي اتخذ قراره فورا بأن أزمة الطاقة التي ضربت المجتمع الأمريكي في الصميم و هي من أخطر ما واجه المجتمع الأمريكي في تاريخه ، و أنها لا تقل عن أخطر ما واجه ذلك المجتمع " إنها المكافئ المعنوي للحرب ، و بعبارته : THE MORAL EQUIVALENT OF WAR ،

و أمريكا سوف تحارب بأسلحتها المناسبة ، و من بين هذه الأسلحة " ترشيد الاستهلاك " ، و البحث عن بدائل أخرى للبترول مثل الطاقة الشمسية و قد رصدت الإمكانيات و التمويل في الجامعات و مراكز البحوث لمواصلة البحث عن حقول للبترول في أمريكا حتى لا يكونوا تحت رحمة الغير .

أما السلاح الأول ، سلاح الترشيد ، فقد أعلن " كارتر " للأمة الأمريكية أنه سيبدأ بنفسه وبالعاملين معه في البيت الأبيض ، حيث ستنخفض درجة الحرارة فيه إلى ٦٣ درجة ف و لن تزيد عن ذلك حتى تنتهي الأزمة ، و لقد ضرب الرئيس الأمريكي بذلك المثل للمجتمع الأمريكي ، و هذا أسلوب تربوي عظيم ، حيث الناس يتأثرون " بالقدوة " أكثر من تأثرهم بأي شئ آخر ، و لقد لمس " كارتر" وترا حساسا عند أفراد المجتمع الأمريكي ، حيث أعلن بأن ذلك الحد من الاستهلاك في الطاقة هو " حد تطوعي " لا قسر فيه و لا إرغام ، فاندفع الملايين من أبنائه – أبناء الشعب الأمريكي – يقلدون رئيسهم الذي لمسوا إخلاصه و حسن تفكيره .

و كان هناك من العلماء النابهين من تنبهوا لمشكلات مجتمعهم ، فكثفوا جهودهم و بحوثهم حتى خرجوا بحلول علمية لها ، و كان من بينهم – و هذا يهمنا جدا – عالم من علماء التربية هو بروفيسور " رودني ف . ألن " الذي وصل إلى ٧٥ برنامجا عمليا لتدريب تلاميذ المدارس و طلابها عليها بحيث تخفض استهلاك الطاقة بشكل ملحوظ و كبير ، و قد جمعوا له ١٠٠٠٠ معلم في صيف ١٩٧٤ م (لعلنا نلاحظ السرعة في اتخاذ القرار و في التنفيذ) دربهم على برامجه العملية ، و هؤلاء دربوا طلابهم عليها ، و الأخيرين نقلوا ما دربوا عليه إلى ذويهم في المنازل ، و نزلت أسعار البترول إلى ما نعرف اليوم .

و من أقصى الغرب ، من الولايات المتحدة الأمريكية إلى أقصى الشرق ، إلى اليابان الأمة الناهضة التي أصرت على كسر طوق التخلف ، بل و أصرت على اللحاق بالمتقدمين ، و التي لحقتهم بالفعل .. و بل و دخلت معهم

في سباق عنيف و محمود انتصرت فيه بشكل حاسم ، و صارت في مقدمة السباق ، و أحيانا بفارق كبير ، و خاصة في مجال التكنولوجيا .

هذه الدولة العملاقة تفوقت بهذا الشكل الساحق في جميع الميادين حينما اتخذت قيادته السياسية الحكيمة – في عهد الإمبراطور " ميجي " في بداية الستينات من القرن التاسع عشر قرارا باللجوء إلى التربية ، و إلى طلب العلم من جميع مظانه على وجه الأرض حيث يوجد في الغرب ، و خاصة في ألمانيا و فرنسا و إنجلترا ، بل إنها أرسلت بعثة من أبنائها إلى مصر تستقصي أسباب تقدم المصريين أبان حكم " إسماعيل باشا " و كانت جهود " محمد علي باشا " و هي جهود سياسية حكيمة أخرى قد آتت ثمارها في مصر ، بعد أن كان قد سبق اليابان بإرسال بعثات من أبناء مصر إلى الغرب ، و بالذات إلى فرنسا ، لطلب العلم و تحصيله ، و عادت تلك البعثات لتطبق ما تعلمته ، و ظهرت آثاره المباشرة على أرض مصر على شكل مدارس و كليات عليا في شتى فروع المعرفة ، و على شكل مصانع للملابس و للسلاح ، بل و على شكل ترسانات بحرية جديدة على المنطقة كان من الممكن أن تضع مصر في مصاف الدول المتقدمة ، مثلها مثل اليابان ، لولا الهجمة الاستعمارية عليها ، و التي أوقفت تقدم مصر و المصريين مبكرا .

و ينسب بروفيسور " آراي أيكو " الأستاذ بجامعة جويتسو للتعليم باليابان أن التنمية الاقتصادية تحققت عندهم بفعل تنمية التعليم في المدارس ، كما أن التنمية التعليمية قبل الحرب وضعت أسسا قوية مكنت من تحقيق التنمية الاجتماعية بعدها التعليم للجميع .

اذكر عدة مشاكل عالمية معاصرة استخدمت التربية في حلها ؟

مفهوم المجتمع :

هذا عن مفهوم المشكلة أما مفهوم " ***المجتمع*** " بمعناه العام فهو يطلق على مجموعة من الأفراد يعيشون في بقعة جغرافية محددة و يعملون و ينشطون في المجالات المختلفة من أجل تحقيق أهداف و مصالح مشتركة . و لعل الأسرة بمعناها الضيق التي تشمل الأب و الأم و الأولاد . و الأسرة بمعناها الممتد حين تشمل مجموعة الأقارب و النسباء تمثل أول أنواع " المجتمع " و أقدمها من ناحية التطور البشري عبر التاريخ ، تم يأتي تجمع القبيلة و هو يقوم أساسا على القرابة و صلات الدم ، و العمل من أجل مصالح تلك القبيلة و الحفاظ على بنائها و استمرارها و بقاء عادتها و النظم التي تحكم حياتها . ثم تنتقل البشرية إلى نوع آخر من " التجمع " و هو مجتمع " الدولة " الذي يرتضي فيه الأفراد أن يعيشوا معا ، و يعملوا معا من خلال نظام من الالتزامات و الحقوق ، من أجل تحقيق أهداف و مصالح مشتركة ، و يعيش عالمنا المعاصر على شكل "دول" قومية ، و إن كانت هناك دعوات إلى إقامة أنواع من التجمع على أساس " الايديولوجية " أو " الدين " أو " العالمية " و المجتمع القومي المعاصر يتكون من عدة مستويات كالأسرة و الحي و القرية و المدينة و الدولة ، و لكل مستوى وظائفه و مسؤولياته وواجباته . كذلك يمارس المجتمع القومي حياته من خلال أنساق فرعية تعرف " بالتنظيمات الاجتماعية " كالأسرة و المصنع و المدرسة و المسجد و الحزب السياسي .. الخ ، و لكل نسق أو تنظيم اجتماعي وظيفة معينة يقوم بها من خلال مركز الأفراد الذي يشملهم هذا النسق ، و هو ما يعرف بإسم " الدور الإجتماعي " . و الدور الاجتماعي عبارة عن مجموعة المناشط المتوقعة من شخص ما ، عندما يحتل مركزا إجتماعيا معينا داخل هذه التنظيمات ، فالمدرسة كتنظيم اجتماعي تتكون من عدة مراكز : التلميذ ، المدرس ، الناظر ، الموظفون ، العمال ، و كل مركز له دوره الاجتماعي المتوقع منه . و الأسرة كتنظيم اجتماعي تتكون من عدة مراكز : مركز الأب و مركز الأم و مركز الابن الأكبر و مركز الطفل الأصغر و مركز الخادم إن وجد .. و هكذا .

و طبيعي أنه كلما شارك كل أفراد المجتمع في هذه الأنساق الفرعية ، و لم ينسحب أو ينعزل الأفراد عن الاشتراك بفاعلية و كفاءة في تلك التنظيمات ، كلما ازدادت قدرة المجتمع عن تحقيق المزيد من النمو و تحقيق الذات . كذلك كلما اتضحت متطلبات " الأدوار الاجتماعية " المختلفة و أعد الأفراد إعداد جيدا لممارستها ، كلما أديت هذه الأدوار بكفاءة . و هنا تلعب التربية دورا هاما في إعداد الأفراد لممارسة مهام أدوارهم الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الثقافية و الدينية بأعلى كفاءة ممكنة .

و نحن عندما نستخدم المجتمع هنا ، فنحن نستدعي إلى الذهن " المجتمع المصري " الذي نعيش فيه ، و هو جزء لا يتجزأ من المجتمع العربي الذي ننتمي إليه ، و من المجتمع الإسلامي الذي ننتمي إليه ، و من المجتمع الإنساني و العالمي الذي نتأثر به و نرجو أن نؤثر فيه . و طبيعي أن تقتصر دراستنا هنا على المجتمع المصري ، لأنه محور إهتمامنا ، و لأنه جزء لا يتجزأ من المجتمع العربي الذي ننشده و المجتمع الإسلامي الذي نأمله و المجتمع الإنساني و العالمي الذي نرجوه .

ما مفهومك للمجتمع ؟ وكيف تعمل أنساقه الفرعية ؟

التربية و الاهتمام بمشكلات المجتمع :

ربط التربية بمشكلات المجتمع يمثل اتجاها حديثا من الممكن أن نرجعه إلى القرنين ١٧ ، ١٨ . فحوالي منتصف القرن ١٧ ظهر جون لوك ١٦٣٢ – ١٧٠٤ و كان جون لوك أول من تنبه إلى ضرورة تمشي التربية مع الظروف الاجتماعية و مع أسس الحياة الاجتماعية كما كان أول من نقد مناهج التعليم في عصره بمعيار وظيفتها الاجتماعية . و قد كان المنهج في الوقت الذي كتب فيه جون لوك منهجا كلاسيكيا يقوم على اللغة اللاتينية و اللغة الإغريقية و المنطق و الخطابة . و تأمل

جون لوك في هذا المنهج وساءل نفسه هل هذه هي الدراسة التي تمكن الشاب من أن يواجه ظروف حياته ؟ و عندما تصدى للإجابة على هذا السؤال وجد أن المنهج في أيامه لم يكن له أي وظيفة اجتماعية و لم يكن مرتبطا بحاضر الجماعة و أنه إذا صلح لشئ فإنه يصلح لإنتاج فرد متخلف يصلح لأن يعيش مدة قرنين قبل التاريخ و ذلك لأن العصر الذي عاش فيه جون لوك تميز ببعض الخصائص التي كان وضوحها سببا في التفات جون لوك إلى هذا الاتجاه التربوي الهام .

كان عصر جون لوك يتميز بتقدم العلوم الطبيعية و الصناعية و كانت الحياة الاجتماعية تقوم إلى حد كبير على الصناعات التي قامت نتيجة تقدم العلم في عصره . و كذلك في هذا القرن ، كانت حركة الكشوف الجغرافية و حركة الاستعمار المعاصرة لها قد أحدثت أثرها في المجتمع الأوربي و نشطت التجارة بين الشرق و الغرب و ظهرت المدن التجارية و ظهرت طبقة من الناس يجمعون ثروات طائلة عن طريق التجارة . ثم في عهده كان تركيب المجتمع قد تغير فقد كان المجتمع في العصر السابق له يتكون من كبار ملاك الأراضي . الطبقة صاحبة الإمتيازات و الفلاحين و صغار الصناع طبقة مهضومة الحقوق . أما في عهده فإن الطبقة المتوسطة بدأت تظهر و كون صناع المدن و تجارها هذه الطبقة المتوسطة التي بدأت تنازع ملاك الأراضي السلطة و النفوذ لأنها نزعت للثراء . و بذلك أصبح الامتياز الاجتماعي ليس وقفا على ملكية الأرض و إنما أصبح متصلا بجهد الفرد و قدراته التي تمكنه من شق طريق الثراء و الامتياز الاجتماعي عن طريق الصناعة و التجارة .

و نظر جون لوك في مناهج وقته فإذا بها خالية من العلوم الطبيعية و الصناعية و الأصول التجارية مقصورة على اللغة و المنطق و كلها لا تفيد في معركة الحياة الحديثة القائمة على الصناعة و التجارة . و الواقع أن هذا المنهج الكلاسيكي و إن كان له وظيفة اجتماعية وقت أن تكون و تبلور فإنه قد فقد هذه الوظيفة في عهد جون لوك . فاللغة اللاتينية و اليونانية كانتا لغة العلم و الثقافة و التأليف وقت أن تبلور هذا المنهج ثم بعد ذلك ظهرت اللغات الحديثة و أصبحت اللغة اللاتينية لغة التأليف عند القلة من العلماء و الكتاب و الأدباء . و تحولت

نظرية المنهج في أيامه من نظرة المنفعة الاجتماعية إلى نظرية المحافظة على التراث المقدس و الإبقاء عليها كمقدسات قديمة .

و في ضوء كل هذه الحقائق التي ألتفت إليها جون لوك ندد بالمنهج في أيامه و هاجم اللغة اليونانية و اللاتينية كمادة محتكرة للمادة الدراسية . و ربما كان هذا البحث هو الذي دفعه إلى أن يتساءل . هل إذا علمنا الصبي كل ما هو ممكن من اللغة اليونانية و اللاتينية و تصريف الأفعال و المنطق جعلنا من الصبي مواطنا أقدر على مواجهة معترك الحياة . و طبعا كان جوابه بالسلب و لذلك نادى بأن يكون منهج المدارس متكونا من العلوم و المهارات الصناعية و الحقائق التجارية و كل ما يصلح لأن يمكن المواطن من أن يعيش في مجتمع رأي بداية العلوم الطبيعية و امتلأ بطبقة ضخمة من التجاريين و الصناعيين الذين نازعوا كبار الملاك القدامى الثراء و الامتياز .

كان جون لوك أول من خطى بالتربية من متابعة المجتمع متابعة عشوائية اضطرارية إلى مرحلة متابعة المجتمع متابعة فكرية قائمة على ا لتخطيط و التوجيه الاجتماعي المقصود للعملية التربوية . وز تستطيع أن نسلك جان جاك روسو في هذا المقام بالذات . فجان جاك روسو عاش في القرن ١٨ من أوله إلى آخره تقريبا ١٧١٢ – ١٧٧٨ و ذهب روسو نفس مذهب جون لوك على الأقل في بداية تفكيره فقد نظر إلى المدرسة و ما تعلمه للتلاميذ و إلى المجتمع و ما يؤثر به على التلاميذ و الأطفال و كان سئ الظن بالمدرسة و المجتمع و يرى أن الرذيلة قد تجمعت في كل منهما و أن المدرسة و المجتمع قد صارا من وسائل إفساد الطبيعة البشرية الخيرة بطبيعتها . أسهم في هذا ما يسود المجتمع من جشع و إنتهازية و تسلط و استبداد و رذيلة خلقية . كما أسهم فيه أيضا منهج المدرسة البعيد غاية البعد عن ضرورات الحياة و مناشطها . و لذلك هاجم المدرسة كمنظمة و هاجم التعليم كنشاط تعليمي و هاجم عملية التربية كنشاط إنساني و ذهب إلى أن الكبار لن يؤثروا في الصغار إلا تبعا للإنطباعات السيئة التي هم قادرون عليها بحكم ما استمدوه من مجتمعهم من الرذائل و على ذلك نادى بالتربية الطبيعية على أساس أن الطفل خير بطبيعته لأنه خال من الرذيلة و ليس فيه إلا مكان الفضيلة و الخير

لأن الخالق الذي خلقه إنما طبعه على غرار منهما . و الخير و الشر و الرذيلة تأتي إلى الفرد عن طريق تشربها من الجماعة و أنكر أن المجتمع يستطيع أن يحدث تغييرات خيرة في الطبيعة الإنسانية و لذلك كان الاحتكاك بالطبيعة أكثر فائدة من الاحتكاك بالناس . و لذلك وجب أن تكون التربية في الطبيعة و ليس في الفصل و بفضل قوي الطبيعة و مؤثراتها و ظاهراتها ، و ضغط هذا كله على خيال الطفل و ملاحظاته و ذكائه و تفكيره ، على حين أن هذه النتيجة لا يمكن أن تحدث من ضغط المواد الدراسية في المدرسة على عقل الطفل أو ضغط طباع الناس على أخلاقه .

يعتبر لوك و روسو من أوائل من ربط التربية بالمجتمع . ناقش .

و مع ذلك لم يكن جان روسو إيجابيا كما كان لوك و إنما اكتفى بالجانب السلبي . اكتفى بالهجوم على المناهج المدرسية و لكنه بدلا من أن ينبه إلى وجوب اشتقاقها من المجتمع و مناشطه ثار على المجتمع أيضا و حاول أن يشتقها من الطبيعة و على ذلك انتهت بدايته الحسنة بإلغاء العملية التربوية إطلاقا و هي من غير شك نتيجة مؤسفة . و استمرت التربية على هذا النحو بل إن هذا الاتجاه الاجتماعي البارز عند هذين الفيلسوفين قد توقف على يد فلاسفة التربية الذين أتوا بعدهم . فقد أتى من المربين من لم ينظروا في مادة التعليم و في مدى صلاحيتها للمعيشة في المجتمع و إنما بدأوا ينظرون إلى الطفل من حيث هو كائن إنساني عاجز عن مواجهة المادة التربوية الصعبة التي يصادفها في المدرسة و بدلا من أن ينقدوا المادة الدراسية بدأوا يفكرون في كيف يغافلون الطفل و يوصلونها إلى عقله بحيل أطلقوا عليها طريقة التدريس . و أسست هذه المدرسة من المفكرين التربويين المذهب النفسي في التربية أمثال فروبل و هربارت و بستالوتزي كل هؤلاء ساروا على هذا النمط النفسي . و نقلوا الاهتمام من المنهج و علاقته بالمجتمع إلى المنهج

و علاقته بنفسية الطفل على أن يستوعبه . و وصلت التربية إلى القرن العشرين و هي في أيدي المدرسة النفسية و هم ناس في أحسن صورهم لم يزيدوا عن أن يعتمدوا مادة المنهج التقليدي أو أي مادة تدخل في المنهج و يفرغون جهدهم في ابتكار الأساليب و الحيل التي تمكنهم من تفهيمهم هذه المادة للتلميذ و دفعهم هذا إلى مباحث سيكلوجية مفيدة مثل : طبيعة العقل و الادراك . و علاقة العقل بالبيئة و مركز الطفل و حاجاته و ميوله نحو هذه المادة و كيف يعمل العقل و بذلك بعدوا عن المجتمع و حاجاته بعدا كبيرا لأنهم ذهبوا إلى أن العقل يستطيع أن يستوعب كل شئ إذا أحسن عرضه .

و تصل التربية إلى القرن العشرين على هذا النحو . و في العقد ٢٠ يبدأ الاتجاه الاجتماعي البارز في توجيه التربية . و قد كان هناك عدة عوامل أدت إلى هذا التحول في النظر التربوي و ربما كان أهم هذه العوامل هو الاتجاه الديمقراطي الذي قوي في القرن ٢٠ و نحن نعرف أن الديمقراطية تقوم على أساس احترام النفس و الانسان و النظر إليه كوحدة اجتماعية عليه قدر من المسئوليات يجب أن يقوم بها . و لم تكن مسئولية القرن ٢٠ على الفرد من نوع مسئوليات عصر جون لوك أي أنها مسئوليات اقتصادية بل كانت سياسية أيضا . فالفرد لا يكسب قوت يومه بالعمل في الصناعة و التجارة و إنما أيضا يشارك في الحكومة و توجيه الحياة القومية و له حقوق سياسية محددة . و لذلك كان لابد أن يتعلم هذا الفرد مادة تعليمية تنفعه في مواجهة هذه المسئوليات المتشعبة المتزايدة . و من هنا لا بد أن يقاس كل شئ يدخل ضمن ميدان التربية و التعليم بمقياس النفع أي بمقياس أثره في تمكين الفرد من أن يكون مواطنا أصلح تبعا للمعايير الديمقراطية . أي أن يقوم بعملية الانتخاب عن بصر و ذكاء و يقوم بالعمليات الاقتصادية التي يتطلبها السوق . و على ذلك بدأت التربية في القرن ٢٠ تتجه نحو مراعاة العلاقة بين الفرد و المجتمع و بدأت تستهدف زيادة القدرة على تمكين هذا الفرد من أن يمارس حقوقه و يقوم بواجباته في مجتمع ديمقراطي يلقي المسئولية كل المسئولية على أفراده .

و لم يكن مصادفة تقرير إلزامية التعليم الابتدائي و مجانية التعليم في القرن ٢٠ أو قبيله بقليل و إنما كان بوحي من هذا التوجيه الاجتماعي للتربية ، و لم يكن مصادفة دخول المواد الاجتماعية و المواد المهارية كالأشغال اليدوية و الصناعات و التدبير المنزلي في المدرسة في نفس الوقت . و لم يكن مصادفة تشعب التعليم إلى تعليم عام صناعي و مهني فكل هذه الاتجاهات و تعليم البنات . كل هذا أتى نتيجة المقابلة بين ما يعلم في المدرسة و بين حاجة الفرد للسيطرة على البيئة بمعيار من زيادة القدرة على تمكين الفرد من القيام بهذه المسئوليات التي ألقتها الديمقراطية على كاهله .

و هناك عوامل أخرى ساعدت على تدعيم هذا الاتجاه الاجتماعي غير عامل الديمقراطية . الانقلاب الصناعي مثلا بما أحدثه من تغيرات في بنية المجتمع قد ساعد على تدعيم هذا الاتجاه الاجتماعي ذلك أنه قد توالت الاختراعات في ميدان العلم و الصناعة في القرن ١٩ ثم اتسعت خطوات التقدم العلمي في القرن ٢٠ و قد ترتب على الانقلاب الصناعي نتائج كثيرة . فتوزيع السكان مثلا قد تغير لأن أعداد كبيرة من الناس تركزت في المناطق الصناعية و ترتب على هذا التركيز و على اجتماع الآلاف من الناس في المدن مشكلات كثيرة تتعلق بالعلاقات الإنسانية التي تسود بين هؤلاء الناس و بالمشكلات الاجتماعية و الخلقية و غيرها . ***و قد أثر هذا على التربية من ناحيتين :***

الناحية الأولى : هي أن الفرد في هذا العصر الصناعي قد أصبح من الضروري أن يعد إعدادا يختلف إلى حد كبير عن إعداده السابق . فلا بد من أن يعلم هذا الفرد فنيات الصناعة و أصولها و ما يتطلبه من مهارات .

و من ناحية أخرى : أصبح من الضروري أن تقوم التربية بدور إيجابي في تقديم خدمات للمجتمع الصناعي كما أصبح على التربية أن تعمل على غرس بعض القيم و على تنمية أخلاقيات معينة تختلف عن القيم و عن الأخلاق التي كانت تسود المجتمع

الزراعي القديم أو المجتمع التجاري . و معنى ذلك أن التقدم في ميدان الصناعية قد أثر على التربية بأن ساعد على تحويلها من الاهتمام بالتراث الثقافي و الاختصار عليه كمادة للتربية إلى الاهتمام بالفرد بإعداد هذا الفرد حتى يتكيف مع المجتمع و بتقديم خدمات تربوية للمجتمع .

و من العوامل التي ساعدت على تدعيم هذا الاتجاه الاجتماعي في التربية عامل آخر لا يقل في الأهمية عن العاملين السابقين وهو :

ظهور الروح القومية و نشأة الدولة القومية في أوربا أولا بصفة خاصة ثم في بقية أنحاء العالم . فقد كان العالم حتى بداية العصور الحديثة يعيش فيما يعرف بعصر الإمبراطوريات . قامت إمبراطوريات كثيرة في العالم القديم و استمرت طوال العصور الوسطى حتى مطلع العصور الحديثة . كانت التربية في ظل هذه الإمبراطوريات تقوم بإعداد الفرد بطريقة معينة حتى يستطيع أن يعيش في أي جزء من أجزائها . فعالم العصور الوسطى على سبيل المثال كان ينقسم إلى قسمين كبيرين : أوربا المسيحية و الشرق الإسلامي ، و لم يكن الفرد في أي جزء من هذه الأجزاء في أوروبا أو في الشرق الإسلامي يختلف في بلد أو إقليم عنه في البلد الآخر أو الإقليم الآخر . بل أن الظاهرة المميزة للتربية في العصور الوسطى الإسلامية و المسيحية على السواء هي ظاهرة وحدة الثقافة .

كان التلميذ في الشرق الإسلامي يتنقل بين بلاد العالم الإسلامي طلبا للعلم و كان الأستاذ يدرس في أي بلد من بلاد العالم الإسلامي و في أي معهد من معاهده . و كانت الرحلة في طلب العلم من الطرق المقررة التي يتبعها الطلاب . حدث هذا في الشرق الإسلامي و حدث مثله في أوروبا المسيحية فكان الطلاب المتجولون يتنقلون بين البلاد الأوروبية يدرسون فيها الثقافة اللاتينية . و لم تكن هناك حاجة لأن يتخصص الطالب الذي ينتمي إلى بلد ما في دراسة ثقافة هذا البلد لأنها كانت تماثل ثقافة بقية البلاد . هذا الوضع تغير نتيجة ظهور القوميات

و نتيجة للصراع الدولي الذي ترتب على قيام الدول الحديثة فقد أخذ كل بلد يستقل بثقافته و يعمل على غرسها في نفوس أبنائه و يعمل على تأكيد استقلاله عن غيره من البلاد بل و أخذت هذه الدول تشتبك في صراع حربي و كان لابد من أن يحدث هذا كله آثار في التربية . فإتخذت الدول القومية من التربية سلاحا تؤكد به نفسها و تعزز من كيانها ثم اتخذت من التربية وسيلة للإنتصار على غيرها من الشعوب .

و ثمة عامل رابع كان له أثره في تأكيد النزعة الاجتماعية للتربية و هو ***ظهور علم الاجتماع*** . فطبيعة المجتمع و العلاقات القائمة بين الأطراف شيئا لم يهتم به الفلاسفة أو لا يركزون إهتمامهم عليه . ففلاسفة العصور الوسطى مثلا كان أكثر اهتمامهم موجها إلى مسائل اللاهوت و إلى العلاقة بين الإنسان و ربه و إذا كان ابن خلدون قد ظهر في العصور الوسطى و بداية العصور الحديثة فإن جهوده في علم الاجتماع قد مرت دون أن يتنبه المعاصرون إليها و ظلت آراءه و نظرياته مجهولة مطموسة حتى أعدنا اكتشافها في الأيام الأخيرة . فعلم الاجتماع إذن علم حديث و قد ظهرت ضرورته و أهميته نتيجة للتغيرات التي ظهرت في كثير من المجتمعات إذ بدأ الناس يهتمون بالعلاقات بينهم وبين الآخرين و بدأ بعض العلماء يكرسون جهودهم لدراسة أحوال الجماعة و محاولة اكتشاف القوانين التي تحكم تطور الجماعة و التي تؤثر على العلاقات بين أفرادها .

ثم ظهر علم النفس الذي ألقى هو الآخر أضواء على الإنسان و نتيجة لظهور علم النفس بدأ علماء التربية يهتمون بالفرد و نموه و حاجاته و يتنبهون إلى أن التربية لابد و أ ن تضع حاجات الفرد و ميوله و قدراته موضع الاعتبار و هي مسألة لم يكن فلاسفة التربية يعطونها الأهمية بوجه من الوجوه . و من فروع علم النفس كان لعلم النفس الاجتماعي أهميته لأنه ركز اهتمامه على محاولة إكشاف أسرار العلاقات الإنسانية و القواعد و القوانين التي تؤثر في سلوك الفرد و تجعله يتصرف تصرفا معينا إذا وجد في جماعة و العلاقات التي تسود بين الجماعات بعضها ببعض ثم ترتيب الجماعات الصغيرة أو الثانوية التي ينقسم إليها المجتمع الإنساني . هذه العوامل التي ذكرناها و التي قلنا أنها قد أثرت في تدعيم الاتجاه

الاجتماعي للتربية لم تحدث بنفس التوالي أو الترتيب الذي ذكرناها به و لم يكن لتقديم أي عامل منها على الآخر ما يدل على سبق فضله و عظم أهميته و إنما هي قد تفاعلت جميعا و أحدث كل منها آثاره بحيث تحول الاهتمام في التربية من جانب التراث الثقافي إلى جانب الفرد و الجماعة أو إلى الاتجاه الاجتماعي و التوجه الاجتماعي للتربية .

و قد أحدث هذا التحول من الاهتمام بتراث الجماعة و ثقافتها و تقديس هذا التراث و العمل على نقله إلى الأبناء إلى الإهتمام بالنواحي الاجتماعية . أحدث هذا التحول آثاره على التربية و على الهيئة أو السلطة التي تهيمن عليها و توجهها و التي تتحمل مسئوليتها . فالتربية في أول الأمر كانت عملا تتولاه الأسرة و لا يهتم به غيرها . كانت كل أسرة تعمل بنفسها على تعليم أبنائها و على إعدادهم لحياتهم المستقبلة . فالأب إذا كان يعمل في المزرعة أو الصناعة أو غيرها يحرص على أن يلقن ابنه أو أبنائه أسرار صنعته و يعتبر أن تربية ابنه هي مسئوليته هو وحده و كذلك الأم كانت تعمل من جانبها على تربية بناتها و تعلمهن ما ينبغي أن يعرفنه من شئون الحياة . و لكن عندما تتعقد و يزداد التراث الثقافي حجما و يصبح من العسير على الأسرة أن تتولى تعليم أبنائها كما أنه قد ظهر في التراث الثقافي عناصر احتكرتها جماعة من الناس و عملوا على أن يركزوا في أيديهم تعليمها للناشئة فظهرت مثلا جماعات الكهنة في العالم القديم التي احتكرت تعليم الكتابة و التي احتكرت أيضا تعليم الطقوس الدينية و التي ضمت إلى هذا كله عددا من العلوم و أنواعا من المعارف . و استمر هذا الأمر وقتا طويلا نستطيع أن نلمح امتداده في أديرة الرهبان في العصور الوسطى و في الزوايا و الخوانق و الربط التي كانت موجودة في العالم الإسلامي .

و هكذا انتقلت مسئولية التربية من الأسرة إلى هذه الجماعة من الناس . ثم ظهرت المجتمعات بمعناها الحديث و ظهرت الأمم و القوميات و ظهرت الاتجاهات القومية في التربية و أصبح تماسك الجماعة هدفا حيويا بالنسبة لكل منها و ترتب على شعبية التعليم و على ظهور أهمية الجماعة ككل متماسك أن انتقلت مسئولة التربية من هيئات الكهنة و القساوسة و الفقهاء إلى مسئولية الدولة

بمفهومها الحديث فأصبحت الدولة هي التي تأخذ على عاتقها عبئ التعليم و هي التي تعمل على توجيهه بحيث يخدم أغراضها .

هذا العرض الذي يوضح العلاقة بين مسئولية التربية و تطور الفكر التربوي يوضح أيضا مركز الثقل في الجانب المهم من التربية . فعندما كان مركز الثقل في الثقافة و التراث الاجتماعي و الجانب الديني منه بصفة خاصة كانت مسئولية التربية تقع على عاتق رجال الدين و عندما كانت التربية مجرد وسيلة لكسب العيش كانت الأسرة هي التي تقوم به . ثم انتقل مركز الثقل إلى التنشئة الاجتماعية القومية فأخذت الدولة على عاتقها مسئولية التربية .

و إكمالا لهذه الصورة نستطيع أن نرصد اتجاها ثقافيا جديدا يقابله تحول في مسئولية التربية و التعليم ذلك أن الصراع و الحروب التي كانت تنشأ في العالم القديم بصفة عامة – إلا ما ندر – كانت حروبا فردية بين دولة من الدول و أخرى و استمر الحال على ذلك حتى أصبحت الدول أكثر اتصالا ببعضها و حتى تشابكت مصالحها و حتى ظهرت النزعات الاستعمارية بصورة قوية فتحولت الحروب و تحول الصراع الدولي من الصورة الفردية إلى صورة جماعية . فكانت الحرب العالمية الأولى التي استمرت وقتا طويلا و التي شملت أكثر من دولة ثم كانت الحرب العالمية الثانية و أخذ الناس يبحثون عن الوسيلة التي تجنبهم هذه الحروب و أخذوا يتطلعون إلى سلام دولي و حكومة عالمية . و أظهر هذا الاتجاه أيضا آثاره في التربية و التعليم بعد أن ظهرت هيئات و مؤسسات تعمل على تحقيق هذا الاتجاه . فظهرت عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى و هيئة الأمم المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية . و كنتيجة لهذا الاتجاه قامت مؤسسات أخذت على عاتقها عبء إقرار السلام الدولي عن طريق التربية و التعليم لأن الناشئة إذا وجهت تربيتهم بحيث تضع غايتها القضاء على الحرب و إقرار السلام بين الشعوب و تأكيد التفاهم الدولي . و إذا نجحت في هذا السبيل فإن هذه هي الوسيلة المهمة التي يستطيع العالم عن طريقها أن يتجنب ويلات الحروب . فمنظمة اليونسكو تحاول جاهدة أن تحقق فكرة السلام و الاتجاه العالمي عن طريق التربية والتعليم .

و إذا كنا قد كررنا أن التوجيه الاجتماعي للتربية قد أصبح اتجاها واضحا معترفا به في ميدان التربية و التعليم فقد وجب أن نعرف الوظيفة الاجتماعية للتربية . و نستطيع أن نقرر هذه الوظيفة ببساطة و إيجاز في أن وظيفة التربية هي تحقيق أهداف الجماعة . فالتربية لا تعدو أن تكون وسيلة الجماعة في تحقيق أغراضها . و إذن فإن الوظيفة الاجتماعية للتربية تنحصر في تحقيق أهداف الجماعة . و علينا إذا أردنا أن نعرف وظيفة التربية أن نعرف وظيفة الجماعة و أهدافها . و لكل جماعة بشرية أيا كانت أهداف محدودة تشترك فيها كل الجماعات . و معنى ذلك أن كل جماعة تحاول أن تحقق هذه الأهداف و ليس أمامها إلا التربية . صحيح أن الجماعات تختلف و أن هناك فروقا فردية كثيرة بين ثقافة الجماعة وثقافة جماعة أخرى . و لكن الوظيفة أو الوظائف العامة الأساسية للجماعة لا تختلف في جماعة عنها في جماعة أخرى و الذي يعنينا هنا هو الوظائف العامة للجماعات البشرية . و الوظائف العامة للتربية .

إن أول وظيفة للجماعة هي المحافظة على النفس . فكل جماعة تعمل على المحافظة على نفسها و ضمان بقائها و وجودها أما الوظيفة الثانية فهي تحقيق إستمرار وجود الجماعة . و الوظيفة الثالثة هي محاولة تحقيق التقدم و التطور للجماعة . كل جماعة إنسانية تهدف إلى تحقيق هذه الغايات الأساسية . و التربية بدورها لابد و أن تضع جهدها كله في تحقيق هذه الغايات . و إذن فإن الوظيفة الاجتماعية للتربية تنحصر في العمل على المحافظة على كيان الجماعة و محاولة ضمان استقرارها و بقائها ثم العمل على تطوير هذه الجماعة أو تطوير ثقافة الجماعة .

ما أبعاد الوظيفة الاجتماعية للتربية ؟

قراءات إضافية :

(١) : إبراهيم البيومي غانم و آخرون : ***بناء المفاهيم دراسة معرفية و نماذج تطبيقية*** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

(٢) : عبد الوهاب المسيري " تحرير " : ***إشكالية التحيز*** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

(٣) : سيد إبراهيم الجيار : ***التربية و مشكلات المجتمع*** ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

(٤) : شبل بدران : ***التربية و المجتمع رؤية نقدية*** ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ .

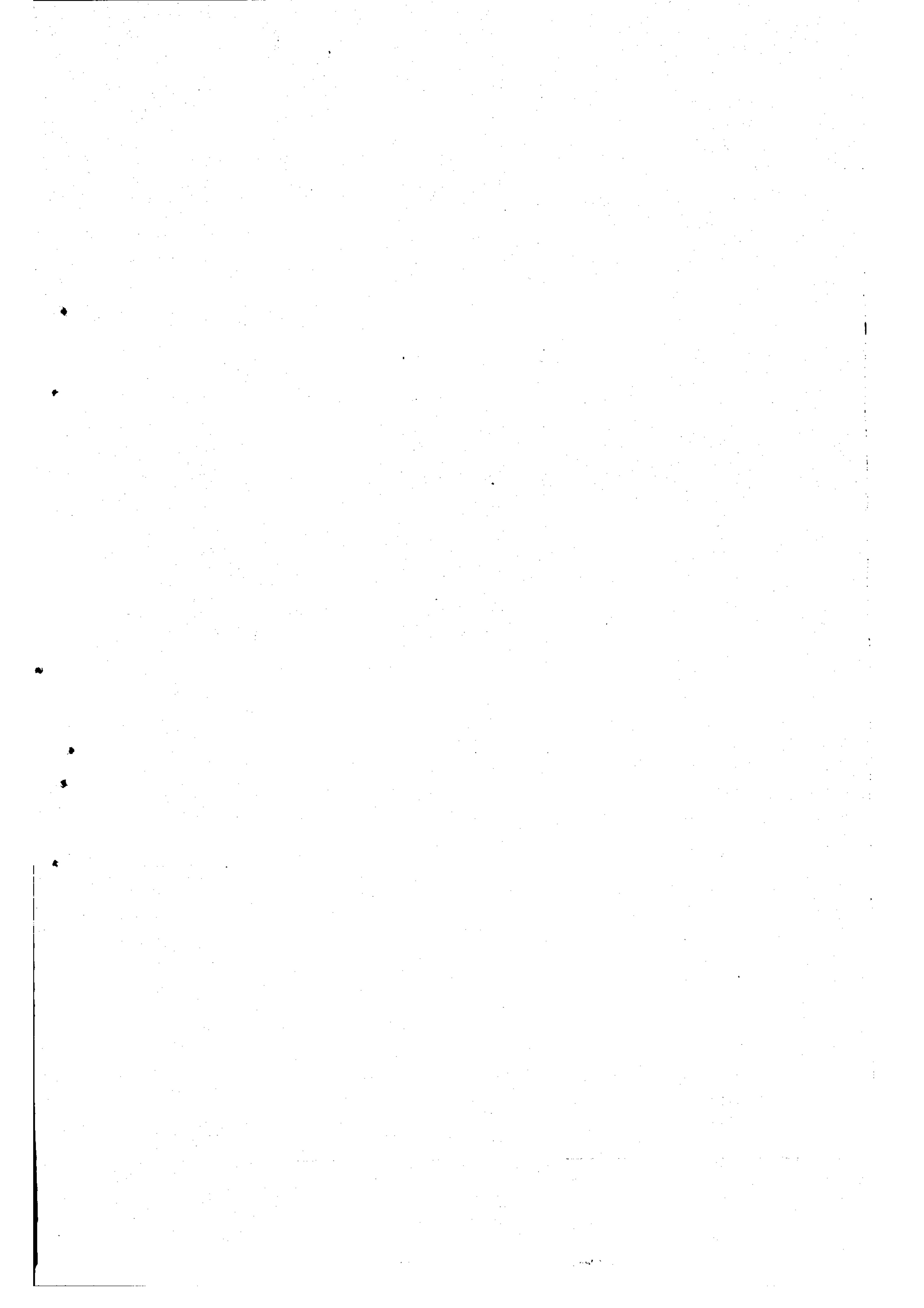
(٥) : عبد الرحمن النقيب ، بدرية صالح الميمان : ***تأصيل المفاهيم التربوية ضرورة أولية للإصلاح التربوي*** ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .

(٦) : عبد الرحمن النقيب ، صلاح مراد : ***مقدمة في التربية و علم النفس*** ، ***المنظمة الإسلامية للتربية و الثقافة و العلوم*** ، الرباط ، ١٩٨٧ .

(٧) : عبد الغني عبود : ***التربية و مشكلات المجتمع*** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

(٨) : محمد الهادي عفيفي ، عبد الفتاح جلال ، سعيد إسماعيل علي : ***التربية و مشكلات المجتمع*** ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٩) : محمود السيد سلطان : ***دراسات في التربية و المجتمع*** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .





الوحدة الثانية

التربية والتغير الثقافي

تمهيد :

عزيزي القارئ – الدارس .. مرحبا بك إلى هذه الوحدة . لقد تناولت هذه الوحدة ما هي الثقافة ؟ و ما أهم التحليلات للثقافة ؟ و دور التربية في التقدم و التخلف الثقافي ، و أهم نظريات التغير الثقافي ، و كيف تعمل التربية على السيادة الثقافية بحيث تتضح العلاقة الوثقى بين التربية و الثقافة . و ترد في ثنايا هذه الوحدة تدريبات و أنشطة و أسئلة تقويم ذاتي تهدف إلى التأكد من فهم الوحدة أولا بأول أثناء قراءتها . و نرجو أن يستمتع القارئ – الدارس بدراستها و أن يفيد منها و أن يشاركنا في نقدها و تقييمها .

لعل أهم مشكلة تواجه التربية هي مشكلة التغير الثقافي داخل المجتمع أو الجماعة و لكن ما هي الجماعة ؟ إن المجتمع ليس مجموعة من الأفراد مقيمين في مكان معين و إنما المجتمع و الجماعة هي ما يربط بين هؤلاء الأفراد من علاقات و ما ينشأ نتيجة لإجتماعهم و نتيجة لصراعهم مع بيئتهم و محاولتهم التغلب عليها و تذليلها ما ينشأ لهذا كله من ثقافة . و هذه الثقافة هي التي تبقى و هي التي تستمر أما الأفراد أفراد الجماعة فإنهم يموتون و تأتي أجيال أخرى بعدهم . و إذن فأفراد الجماعة لا يعيشون أبدا و إنما الذي يكتب له البقاء هو ثقافة الجماعة و هو طريقة حياتها . و العادات و التقاليد التي توجد في هذا الجماعة . و القوانين و العرف و القيم و الآداب و المهارات و أنوع السلوك التي توجد في هذه الجماعة . و من مجموع هذه الأشياء تتكون ثقافة الجماعة ، هذه الثقافة التي تحقق التماسك الاجتماعي لأفراد الجماعة و التي تبقي بعض أن يزول جيل من الأجيال و التي يحرص كل جيل على نقلها إلى الأجيال التالية . و بعبارة أخرى إن عمل الجماعة على المحافظة على نفسها و على بقائها هو أولا و أخيرا عمل الجماعة على المحافظة على ثقافتها و على طريقة الحياة فيها . كل جماعة تعمل على تحقيق هذه الغاية و إن اختلفت الأساليب و الطرق و الوسائل التي تلجأ إليها الجماعات لتحقيق هذه الغاية .

فالجماعات البدائية مثلا كانت تلجأ إلى حفلات التعميد أو التدشين التي يلقن فيها المراهقون الذين قاربوا من سن البلوغ بعض أسرار ثقافة الجماعة و يتعلمون في هذه الحفلات بما اشتملت عليه عادات و تقاليد تعتبر من مقومات الحياة في الجماعة . و في العصور الوسطى كانت الأديرة في العالم المسيحي و كانت الطرق الصوفية و غيرها من المؤسسات التي شابهت الأديرة و سائل لنقل تراث الجماعة الثقافي و المحافظة عليه . و في العصوز الحديثة اخترع الناس وسائل أخرى كالمؤتمرات و أجهزة الإعلام المختلفة و غيرها من الوسائل ، كل هذه طرق تلجأ إليها الجماعة للمحافظة على نفسها و على و جودها أو للمحافظة على ثقافتها . و بالمحافظة على هذه الثقافة تضمن الجماعة تماسك كيانها الاجتماعي و تضمن تأكيد ذاتها في صراعها ضد غيرها من الجماعات و غيرها من الثقافات .

و الجماعة في محافظتها على نفسها مثلها في ذلك مثل الفرد فكل فرد يعمل جاهدا على المحافظة على نفسه كما يعمل على تحقيق سلامة وجوده أمام ما قد يتعرض له من الأخطار . و المدرسة لم تنشأ إلا لتحقيق هذه الغاية و هي المحافظة على كيان الجماعة و استمرار ثقافتها إذ أن المدارس لم تنشأ إلا بعد أن تكونت ثقافات الجماعات البشرية و بعد أن تعقد تركيب هذه الثقافات و بعد أن تبين أن الأسرة لا تستطيع وحدها أن تقوم بمهمة المحافظة على الثقافة بل و بعد أن تبين أيضا أن هناك أجزاء من هذه الثقافة لا تستطيع بإمكانياتها الضعيفة أن تقوم بتلقينها للناشئة . و لهذا كله نشأت المدرسة لكي تحقق للجماعة هدفها و لكي تستطيع أن تواجه ما حدث من تعقد الحياة و تعقد الجماعة . فالمدرسة إذن وسيلة من الوسائل التي تتخذها الجماعة في سبيل محافظتها على ثقافتها أو بمعنى آخر في سبيل محافظتها على نفسها .

٢- الوظيفة الثانية للجماعة و للتربية هي العمل على تحقيق استمرار وجود الثقافة إذ أنه لا يكفي أن تعمل الجماعة على المحافظة على بقائها و وجودها فقط و المحافظة على ثقافتها بل لا بد أن تعمل الجماعة على نقل هذه الثقافة إلى الأجيال التالية و لا تستطيع أي جماعة أن تحافظ على وجودها دون أن توجه اهتماما إلى نقل ثقافتها إلى بنيها و إلى الأجيال التالية منها . و عملية نقل التراث الثقافي هذه هي الوسيلة التي تتخذها الجماعة لضمان استمرار وجودها و هو استمرار يتم عرضا و يتم طولا . فالجماعة تعمل على استمرار وجودها بطريق طولي بأن تنقل ثقافتها إلى الأجيال الصاعدة من أفراد الجماعة و تعمل على نقل ثقافتها بطريق عرضي بأن تنشر هذه الثقافة في غيرها من الجماعات و بأن تعمل على تغليبها على الثقافات الأخرى و من هنا ينشأ الصراع بين الثقافات إذ أن الجماعات المختلفة تحاول جاهدة أن تنشر ثقافتها و هو أمر من شأنه أن يحدث ألوانا من الصراع الدولي . و إذا كان يحدث عادة أن تلجأ دولة من الدول أو أمة من الأمم إلى نشر ثقافتها بالقوة كما حدث أيام الإسكندر المقدوني و كما حدث في عصور تالية فإنه يحدث أحيانا مرة أخرى أن يتمكن المغلوب من أن يؤثر ثقافيا و حضاريا في الشعوب أو الأمم التي استطاعت أن تتغلب عليه بقوة السلاح . و الحرب الباردة الموجودة اليوم بين المعسكرين الشرقي و الغربي هي في حقيقة أمرها صراع بين

ثقافتين تختلف كل عن الأخرى في أساسياتها و هذا ما يزيد الصراع شدة و احتداما .

و فكرة المحافظة على النفس و نشر الثقافة و نقلها ترتبط ارتباطا وثيقا بنشأة الدول القومية و بوجودها ، فالثقافات في العصور الوسطى كانت ثقافات عالمية ولم يكن العالم القديم بأجزائه التي كانت معروفة طوال العصور الوسطى لم يكن ينقسم إلا إلى ثقافتين : الثقافة الأوربية المسيحية و الثقافة العربية الإسلامية و في العصور الحديثة نجد أن أوربا المسيحية التي كان يسودها الثقافة اللاتينية أصبح يسودها أكثر من ثقافة ومع ظهور الفواصل بينها و ظهور كثير من اللغات و اللهجات القومية . انقسمت هذه الثقافة الواحدة إلى عدد من الثقافات أخذت كل واحدة منها تؤكد استقلالها بنفسها و تعمل على الانفصال عن غيرها فظهرت حركات قومية ترتب عليها نشأة كثير من الدول القومية .

-٣- أما الوظيفة الثالثة أو الهدف الثالث للتربية فهو تحقيق التطور و التقدم ذلك أنه من خصائص الجماعة الإنسانية أن الجماعة لا تبقى و لا تستمر بحالة واحدة و إنما هي دائما عرضة للتغير و التحول من حالة إلى حال . قد تتقدم إلى الأمام و قد تتدهور و ترجع إلى الوراء . و على الجماعة أن تعمل على أن تحقق استمرار تقدمها و على أن تتجنب ما يمكن أن يسبب الإنهيار في ثقافتها . و كل جماعة تختار و تعمل على تطوير ثقافتها و على تحقيق التقدم في عناصر هذه الثقافة المختلفة لابد ***أن تحقق هذا التقدم في مجالين :***

(أ) ***المجال المادي :*** الذي يتعلق بالإبقاء على الثقافة و نشرها و استمرار وجودها .

(ب) ***و مجال معنوي :*** يتعلق بكيف هذه الثقافة و نوعها أي في الاتجاه الذي يعمل على تحسين هذه الثقافة و الارتفاع بمستواها . ***و هذا التقدم يتحقق بأمرين :***

الأول : تخليص الثقافة مما بها من مشكلات و إصلاح ما بها من عيوب .

الثاني : تحسنها على وجه العموم و الارتفاع بكافة عناصرها الصالحة التي أثبتت فائدتها وجدواها بالنسبة للجماعة .

و هذا الهدف الثالث الذي تعمل الجماعة باستمرار على تحقيقه إن أردات أن يكتب لها و لثقافتها البقاء يستمد أهميته من عنصر الحركة و التغير الذي يطرأ باستمرار على المجتمع و الذي يغير أحواله . فالجماعة لا تستطيع أن تبقي راكدة ساكنة بينما تعمل الجماعات المختلفة على تطوير أمورها و إصلاح أحوالها . و من ثم فإن الجماعة لا تستطيع أن تقنع بمجرد المحافظة على ثقافتها و لا تستطيع أن تكتفي بالعمل على نقل هذه الثقافة إلى الأجيال التالية و إنما عليها أن تعمل أيضا لكي تحقق بقائها و تضمنه أن تعمل على تطوير ثقافتها و تحسينها .

هذه الوظائف الثلاث التي تعمل كل جماعة على تحقيقها ليست مستقلة عن بعضها و إنما هي تقسيم لوظيفة واحدة متكاملة . و إنما نقسمها لتيسير فهم العملية الاجتماعية . فالوظيفة الاجتماعية للجماعة وظيفة متكاملة و قد يتجه النشاط الواحد إلى تحقيق هدف أو أكثر من هدف . و نتيجة لمحاولة كل جماعة أن تحافظ على نفسها حدث ما ألمحنا له من صراع بين الثقافات و من هنا نشأت وظيفة رابعة للجماعة و هي تحقيق الإنتصار في مجال الصراع الثقافي بين الجماعات المختلفة. فكل جماعة أصبحت تعمل و ترى أن من أهم وظائفها أن تغلب ثقافتها على ثقافات غيرها من الجماعات . ***و بذلك يمكن أن نبين من نشاط الجماعة وظيفتين رئيسيتين :***

الوظيفة الأولى : متعلقة بنفسها و ثقافتها و هي العمل على المحافظة على هذه الثقافة و ضمان استمرارها . ***و الوظيفة الثانية :*** أن تعمل الجماعة على أن تنتصر في معركة الصراع بين ثقافتها و بين غيرها من الثقافات و أن تعمل على أن يكون لثقافتها كيانها المستقل و تبعد العناصر الدخيلة من الثقافات الأخرى حتى لا تتسلل لثقافتها و تختلط بها .

ما أهم أبعاد الوظيفة الثقافية للتربية ؟

و عندما يصل الأمر إلى المحافظة على الثقافة و نقلها و النهوض بها و تطويرها فإن العلاقة بين كل هذه الوظائف و بين التربية تصبح واضحة جلية لأن التربية هي الوسيلة التي تستعين بها الجماعات المختلفة لتحقيق المحافظة على ثقافتها و استمرارها و تطويرها أيضا . و العلاقة بين التربية و بين الهدفين الأولين للجماعة قد تكون أكثر وضوحا من علاقة التربية بالوظيفة الثالثة أو الهدف الثالث و هو العمل على تطوير الثقافة . فالتربية تتخذ مادتها كلها من ثقافة الجماعة و المدرسة على سبيل المثال لا تعلم شيئا أو هي تقصر جهدها و توجه إهتمامها إلى هذين الهدفين بأن تعمل على استمرار ثقافة الجماعة و مهمتها الأساسية هي نقل هذا التراث الثقافي الذي أقره المجتمع و رضى عنه إلى الأجيال التالية . و هي تقسم هذا التراث الثقافي إلى المواد المختلفة التي تقوم بتعليمها للتلاميذ أما علاقة المدرسة بالوظيفة الثالثة فقد تكون أكثر غموضا و أكثر تعقيدا . فما هو موقف المدرسة من التراث الثقافي ؟ و ما هو المدى الذي تستطيع المدرسة أن تعمل فيه على تغيير التراث الثقافي ؟ و إلى أي حد تستطيع المدرسة أن تقوم بدور قيادي في إحداث تغيير في تراث الجماعة الثقافي ؟

إن وظيفة المدرسة الأولى التي قام المجتمع بإنشائها من أجلها هي نقل التراث الثقافي . أما عملية التطوير و التغيير و الخلق و الابتكار فليست في أيدي المدرسة . فالمدرسة هنا تتبع المجتمع و تسير وراء تراثه الثقافي دون أن تستطيع أن تقوم بإحداث تغيير جوهري في ثقافته لأن المجتمع لا يرضى عن إحداث هذا التغيير و لا يقبل أن يقوم هذا الجهاز الذي قام بإنشائه و الذي يتول الصرف عليه . لا يرضى أن تقوم المدرسة بإحداث تغيير أساسي في ثقافته أو أي تصدع في هذه الثقافة .

قلنا أن هناك معركة ثقافية بين الجماعة و بين نفسها في سبيل الحفاظ على ثقافتها على اعتبار أن كيانها مرتبط باستمرار هذه الثقافة و أن تطورها و نموها

مرتبط أيضا بنمو هذه الثقافة . و معركة بينها و بين غيرها ترمي إلى تغليب نفسها على غيرها عن طريق تغليب ثقافتها على ثقافات الجماعات الأخرى . و هذا الأمر له مغزيان : الأول إجتماعي و الثاني تربوي . فمن حيث المغزى الاجتماعي يمكننا أن نبين أن الجماعة في الواقع هي ثقافتها و كل ما يمكن أن توصف به جماعة من الجماعات من تخلف أو تقدم أو بقاء أو إنهيار أو تماسك و تفكك إنما هو في الواقع وصف منصب على ثقافة الجماعة لأن الذي يتقدم و يتخلف و يتماسك و ينهار هو الثقافة . فالجماعة هي ثقافتها على هذا الاعتبار . و بالمثل إذا قلنا أن جماعة تتفوق على جماعة أخرى أو تنهزم أمامها فإن القضية متعلقة بثقافات هذه الأمم أو الجماعات على إعتبار أن الجماعة التي تنتصر هي الجماعة ذات الثقافة الأقوى و أن الجماعة التي تنهزم هي الجماعة ذات الثقافة الأضعف و من هذا يتبين الرابطة القوية بين الجماعة و بين الثقافة . و أن الثقافة هي وسيلة الجماعة في تحقيق أهدافها فالجماعة التي تريد أن تتماسك عليها أن تحقق لنفسها ثقافة متماسكة قوية متقدمة . و الجماعة الرجعية المتخلفة هي الجماعة التي تسود ثقافتها قيم رجعية و قيم متخلفة .

أما المغزى التربوي لهذا فهو أن التربية هي وسيلة المجتمع في تحقيق غايتها عن طريق ثقافتها . فالثقافة أو الجماعة تستخدم التربية كأداة لتحقيق الهدفين معا : الإنتصار في المعركة الداخلية بينها وبين نفسها أي معركة المحافظة علي الثقافة و تطويرها و تحقيق تقدمها . و هي تستخدم التربية أيضا لتحقق النصر في المعركة بينها و بين غيرها من الجماعات عن طريق تغليب ثقافتها على الثقافات الأخرى . و في كلتا الحالتين تتخذ الجماعة من التربية وسيلة لإحداث ما تريده من النتائج في ثقافتها فالتربية من جهة هي وسيلة المحافظة على الثقافة . فكل جماعة تعمل على أن تحافظ على بقاء ثقافتها عن طريق تزويد الأجيال المتعاقبة منها بأكبر حظ ممكن من ثقافتها و تبقي الثقافة ما بقيت في الأجيال المتعاقبة و طالما نجحت الجماعة في نقلها إلى الأجيال المتعاقبة . و ليست التربية إلا تزويد النشئ بثقافة الجماعة و إذا كانت التربية هي عملية إكساب الفرد الصفة الاجتماعية فإن عملية الصفة الاجتماعية ليست إلا عملية نقل الثقافة من الكبار إلى الصغار . و الجماعة

تبقي لا لأن أفرادها يستمرون إستمرار بيولوجيا و لكن لأن أفرادها يستمرون إستمرارا ثقافيا

و تستخدم الجماعة التربية وسيلة لتحقيق الانتصار في معركة الانتصار على غيرها من الجماعات . و إنما تنتصر الجماعة على غيرها عن طريق الأفراد الأقوياء ثقافيا أي فكريا و علميا و خلقيا عن طريق التربية طبعا بشكل يجعلهم ينتصرون على غيرهم من المجتمعات إذا تلاقوا في معركة سواء أكانوا في معارك السلم أم معارك الحرب و لاشك أن الإنتصارات السلمية لأي جماعة في ميدان الفكر و الفن و العلم و الأدب هي أروع أنواع الإنتصارات و لاشك كذلك أن الأفراد الذين يستطيعون أن يضمنوا للجماعة التفوق في هذه الميادين هم من نتاج العملية التربوية و لاشك أن جماعة من الجماعات لا تملك وسيلة أخرى غير التربية لتحقيق هذه الأهداف و الوصول إلى هذه الغايات .

هذه العلاقة بين التربية و الثقافة و هذا الاعتماد من جانب الجماعات على التربية هي ظاهرة تاريخية فكلما قويت الجماعات و زاد التنافس بينها و أصبحت وجها لوجه أمام بعضها زادت العناية بالتربية ووجهت إلى الارتفاع بمحتوى الثقافة لكي تكون أداة في هذه المعركة . فإذا نظرنا إلى الإنسان في العصور القديمة عندما كانت الجماعات البشرية تعيش في معزل بعضها عن بعض كان أمر التربية قاصر على الغايات المحلية التي تقف عند حد تمكين الفرد من أن يسد حاجاته اليومية من مأكل و ملبس و مسكن . لم تكن فكرة التربية كعملية تطوير ثقافي قد ظهرت بعد إنما كانت المعركة بين الإنسان و الطبيعة و كانت تحاول تزويد الفرد بوسائل الحصول على حاجاته من الطبيعة .

فإذا انتقلنا إلى الحضارات القديمة وجدنا أيضا هذه العزلة و لكن على مستوى أكبر فكل شعب من الشعوب القديمة كان يحاول أن يعيش بمعزل عن الشعوب الأخرى لأن كل جهده كان منصرفا إلى الانتصار على الطبيعة و هي معركة لم تنته منها الشعوب القديمة في طول العصر القديم . فالمصريون و البابليون و الأشوريون و الفينقيون و الهنود و الفرس و اليونان و كل هذه الأمم

القديمة لم تفرغ في طول تاريخها من المعركة مع الطبيعة و لذلك إنصرفت التربية إلى الزراعة و ا لصناعة و مبادئ العلوم و المعارف مع تحويل هذا كله وجهة عملية لا يقصد بها إلا الانتصار على الطبيعة . فالعلوم مثلا عند قدماء المصريين لم تكن إلا وسيلة للتغلب على النيل و ضبطه . و الأرض و استنباتها و كذلك كان الأمر عند بقية الشعوب القديمة . حتى العقائد الدينية لم تكن عند هذه الشعوب إلا وسائل للتغلب على الطبيعة و قواها التي تقهر الإنسان دائما بسبب قلة محصوله من العلم و المعرفة . فإذا إنتقلنا إلى العصور الوسطى و ما ساد فيها من نظم إقطاعية أوقفت الأمراء وجها لوجه أمام بعضهم البعض وجدنا تنافسا ثقافيا كبيرا كوسيلة لضمان الغلبة على الآخرين . ففي أوروبا نجد التنافس في وسائل الحرب و القتال و بناء القلاع و في الشرق نجد التنافس في بناء المساجد و في الصناعات و في الفنون و الأدب و اتخذ هذا كله شكل تشجيع للشعراء و العلماء و الأدباء و لم يكن الازدهار الثقافي بجميع مظاهره في العصور الوسطى إلا مظهرا لمظاهر التنافس بين الأمراء .

فإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة التي ارتبطت بقيام الدول المستقلة ذات الكيان الواحد و ما نشأ بين هذه الدول من صراع و من تنافس وجدنا أن أمر التربية و التعليم يصبح ذا أهمية كبيرة للدولة و نجد أن مسئولية النهوض بالثقافة تنتقل إلى الدولة بانتقال السلطة إليها و بذلك أخذت الدولة ترى نفسها مسئولة عن مسائل التربية و التعليم و لذلك نلاحظ أن التربية و التعليم كانا في العصور الوسطى متروكين للمجهودات الفردية و كان التعليم ضربا من فعل الخير و من الصدقة على حين أننا نجدها في العصور الحديثة من أهم مسئوليات الدولة لا تتركها للصدف و لا للمجهودات الخاصة و إنما تضطلع به هي و تخصص له جزءا كبيرا من الأموال العامة . ووصل الأمر في التنافس الثقافي إلى ما نراه الآن مما يسمى بالحرب الباردة . و هي صراع بين الثقافات و المدنيات كل جماعة تريد أن تقرر نفسها و تثبت تفوقها عن طريق الثقافة و تفوقها ثقافيا على غيرها . فجزء كبير من جهود أمريكا منصرف إلى محاولة إثبات تفوق النظام الرأسمالي عن طريق محاولة إظهار الثقافة الأمريكية بمظهر التفوق و في نفس الوقت يحاول

[illegible] عن طريق محاولة إثبات تفوق ثقافته و حضارته التي ازدهرت في ظل هذا النظام .

و كلما زاد الصراع بين الدول زاد الصراع الثقافي و زاد الاهتمام بالتربية و التعليم كوسيلة لوضع هذا الاهتمام الثقافي موضع التحقيق . و يقابل هذا في نفس الوقت انتقال السلطة في التعليم من الأسرة في العصور القديمة إلى الكنيسة في أوربا و المساجد و المنظمات الدينية في الشرق في العصور الوسطى إلى الدولة في العصور الحديثة . و لم يخل الأمر من صراع بين الدولة و الهيئات الدينية و تلمح هذا الصراع في التنافس الشديد بين الأزهر و نظام التعليم الحديث عندما بدأ في الربع الأول من القرن التاسع عشر . و يكفي أن نعرف أن أول درس في التشريح سنة ١٨٢٧ في القصر العيني ألقى و الجيش يحاصر المدرسة حماية لها من هجوم رجال الأزهر . و ما زال هذا الصراع على التربية و التعليم موجودا بين الدولة و غيرها من المؤسسات في أرقى الدول . الحكومة الفيدرالية و الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة . و الحكومة الفيدرالية لا تستطيع أن تمد الولايات المختلفة بمعونات تنفق على التعليم لأن الكنيسة الكاثولوكية تعارض في هذا و ترى أنها أحق بالمعونة لترفع مستوى مدارسها التي مازالت تديرها مستقلة عن الدولة .

و هكذا نرى أن السيطرة على التعليم تنتقل مع السلطة الإدارية أي بانتقال السلطة المسئولة عن مصائر الجماعة فحيث كانت المؤسسات الدينية هي المسئولة عن مصائر الجماعة كانت تتحمل مسئولية التربية و التعليم و حيث أصبحت الدولة هي المسئولة سيطرت بالتالي على التربية و التعليم و حيث وجدت الحكومات الارستقراطية المستبدة سيطرت العناصر المستغلة على التعليم ووجهته لمصالحها . و حيث انتصر الشعب و تمكن من أن يحكم نفسه بنفسه في صورة ديمقراطية أصبح للرأي العام الشعبي سلطة كبيرة في مسائل التعليم .

عن طريق التربية تعمل الجماعة على استمرار هذه الثقافة بنقلها إلى الأجيال التالية ثم عن طريق التربية في حدود ضيقة تعمل على تحسين

أحوالها . و مجال التربية فيما يتعلق بهذه الوظيفة الأخيرة مجال ضيق لأن التربية أداة في يد الجماعة و لأن التربية تخضع للضغوط المختلفة التي تؤثر الجماعة عليها بها و لأن التربية لا تستطيع أن تثور على القيم التي ارتضتها الجماعة لنفسها . و من هذا كله يتضح أهمية التربية و خطورة الدور الذي تلعبه في حياة الجماعة الأمر الذي جعل هيئات مختلفة تعمل أو تريد أن تسيطر على التربية و تخضعها لنفوذها كي تستطيع عن طريق التربية أن تحقق أهدافها و أغراضها . و الأمثلة على ذلك كثيرة فالهيئات التبشيرية في مصر على سبيل المثال و في غيرها من دول العالم تتخذ التربية وسيلة و ستارا تحقق به أهدافها . و الهيئات الدينية المختلفة لجأت إلى نفس الوسيلة و أرادت أن تحقق أغراضها بالسيطرة على التربية و التعليم و بإنشاء المدارس و كانت التربية محل نزاع مستمر و صراع طويل بين هذه الهيئات المختلفة حتى تنبهت الدول إلى أهمية التربية و إلى خطورتها و إلى أن ترك التربية في أيدي هذه الهيئات المختلفة الأهداف أمر من شأنه أن يضعف تماسكها و أن يهدد وجودها . و من ثم فقد عملت الدولة على فرض سيطرتها على التربية . و ارتبط تحقيق هذا الأمر بنشأة الدول القومية و تأخرت في مصر إلى مطلع القرن ١٩ إذ كانت التربية حتى هذه الفترة ليست خاضعة لإشراف دقيق من الدولة يتولاها الأزهر في مراحلها العليا . و الأزهر كان رغم الهبات الكثيرة و رغم الأوقاف التي كانت محبوسة عليه كان يعتبر هيئة مستقلة لا تخضع للسلطة الحاكمة بل يقف منها في كثير من الأحيان موقف العداء . حتى إذا جاء محمد على أدرك هذه الحقيقة و عمل على إنشاء جهاز تعليمي الهدف الأساسي من وجوده أن يحقق مصالح الدولة كما عمل في الوقت نفسه على إضعاف الأزهر بأن استولى على الأوقاف التي كان يصرف منها على التعليم فيه و جعل رواتب العلماء تأخذ من الدولة مباشرة و بذلك أصبح نظام التعليم في مصر يخضع لإشراف دقيق من الدولة و يعمل على تحقيق أهدافها .

و في غير مصر حدث نفس الشيء إذ كانت التربية تتولاها هيئات خيرية أو دينية حتى تم سيطرة الدول القومية في القرن ١٩ على أمور التربية و التعليم و الذي ساعد على تحقيق هذه الغاية أولياء الأمور أنفسهم إذ أدركوا أن مصلحة أبنائهم يمكن تحقيقها إذا التحقوا بالتعليم الذي تشرف عليه الدولة و الذي يؤهل

خريجيه للالتحاق بوظائفها فتغير موقفهم من التعليم و تغير موقفهم من المدارس الحكومية بصفة خاصة و حدث هذا في القرن ١٩ إذ كان الأهالي يكنون موقف العداء للتعليم الحديث الأمر الذي اضطر محمد على إلى أن يأخذ تلاميذ المدارس من آبائهم قهرا . و استمر هذا الوضع طوال عصر محمد على و فترة أخرى من بعده ثم تغير موقف المصريين من التعليم لأنهم تبينوا أن الالتحاق بالمدارس الحكومية يعطي أبناءهم فرصة الالتحاق بالوظائف الحكومية . و زاد هذا الأمر تأكيدا أن الوظائف الحكومية كادت أن تقتصر على خريجي هذه المدارس .

و من هذا كله نرى أن الصراع في التربية و إخضاع التعليم لسلطة الدولة قد تحقق في النهاية و أن الذي قد ساعد على تحقيقه أولياء الأمور . هذه الأمثلة التي توضح إلى أي حد تعمل الجماعات على أن تسيطر الهيئات الحاكمة فيه على التربية و التعليم و التي تؤكد من ناحية أخرى الوظيفة الاجتماعية للتربية . ***نخرج منها ببعض الحقائق منها :***

أن التربية عملية توجيه و أنها تحدث آثارا في نفوس التلاميذ و لذلك فقد وضعت الدولة الحديثة نظم التعليم و مناهجه تحت إشرافها و عملت على إحكام سيطرتها عليه . و التربية عملية توجيه بمعنى أن كل تغيير يتم في التربية يحدث آثارا و يحدث نتائجه في المجتمع ممثلا في ثقافته و أفراده . و كما أن التغيير الذي يحدث في التربية يعكس آثاره على ثقافة المجتمع فإن التربية بدورها تتأثر بكل ما يحدث في مجتمعها . و نستطيع أن نرى ذلك واضحا في عصور التاريخ المختلفة . فنحن إذا نظرنا إلى التربية في مصر في القرن ١٨ نرى أنها قد عكست صورة صادقة للمجتمع المصري في هذه الفترة بكل حسناته و سيئاته بما فيه من طبقية و فقر و استبداد و نفوذ و مقاومة للتغير حتى إذا تغير المجتمع أو تغيرت ثقافته في أواخر القرن ١٨ و مطلع القرن ١٩ بقدوم الحملة الفرنسية و الاحتكاك بالثقافة الغربية انعكس هذا كله على التربية بحيث أصبحت التربية وسيلة لتغير الاجتماعي بعد أن كانت عملا يساعد على استمرار حالة الركود التي كان المجتمع يعيش فيه .

و التربية موجهة بمعنى أنه يقصد بها دائما إحداث تغييرات في اتجاه معين معلوم . و من تاريخ التعليم في مصر نستطيع أن ندلل على هذه الحقيقة . فما حدث بعد سيطرة الدول الأوربية على مصر من خضوع نظم التعليم و إدارته لإنجلترا بصفة خاصة الأمر الذي تأكد بعد الاحتلال البريطاني ثم ما تبع هذا من أحداث تغييرات في نظم التعليم من تضييق فرصه و إغلاق مدارسه و حرمان الكثير من أفراد الشعب منه ثم من العمل على أن يكون عدد التلاميذ قليلا بأكثر من وسيلة و نوع التعليم الذي كانت تتلقاه هذه القلة تعليم وضع لتحقيق أهداف الاحتلال ووضعت مواده و مناهجه و كتبه المدرسية و أنظمته الإدارية بحيث تعمل كلها على إحداث هذا التغيير المطلوب . هذا التعليم الذي كان موجها لخدمة أغراض سلطات الاحتلال أحدث آثارا عميقة في الثقافة المصرية .

التربية إذن عملية توجيه و لكن توجد فروق كبيرة بين التوجيه و بين الفرض و التلقين و نحن إذا كنا لا نقر التلقين و الفرض في التربية فإننا من ناحية أخرى لا نقر الحرية المطلقة فحرية التربية محدودة بإطار الجماعة و الثقافة التي تربي فيها هذه التربية و لا يستطيع المدرس أن ينفرد بتوجيه الجماعة أو أن يلقن تلاميذه مبادئ و معتقدات تخالف الإطار الثقافي الذي يعيش فيه و الذي يربي له . فالتربية لابد و أن تتخذ موقفا وسطا بين الحرية المطلقة و بين الفرض و الإملاء .

نقطة يمكن أن نخرج بها من دراستنا للوظيفة الاجتماعية للتربية و هي أن أغراض التربية مشتقة من أغراض الجماعة و أنه ليس للتربية في حد ذاتها أي أهداف مستقلة فإذا أردنا أن نحدد للتربية أهدافها فلا بد أن نستمدها من ثقافة المجتمع فإذا خرجت التربية عن ثقافة الجماعة و إذا كان للتربية أهداف تتعارض مع أهداف المجتمع فإن المجتمع يلجأ إلى إخضاع هذه المؤثرات التربوية لسيطرته ووضعها في مكانها من ثقافته .

و الخلاصة أن مهمة التربية هي المحافظة على التراث الثقافي للجماعة . و هي أيضا تعمل على تطويره و تعديله و تحسينه . و المدرسة هي التي تقوم بهذه

الوظائف إلى حد كبير . أي أن مهمة التربية مهمة رجعية تقدمية في الوقت نفسه فهي تعمل على الإبقاء على عناصر ثقافة المجتمع الأساسية كما هي في الوقت الذي تعمل فيه على تطوير أجزاء من هذه الثقافة هي الأجزاء أو العناصر التي يسمح المجتمع أن يحدث فيها التطوير و التحسين . و معيار جودة التربية هو أن تحافظ على الفوارق بين المحافظة و التطوير فالتربية إن بالغت في المحافظة كانت عائقا يقف في سبيل تطوير الجماعة . و التربية إن أسرفت في التطوير زعزعت استقرار الجماعة و عملت على إضعاف تماسكها و كيانها و من هنا تتضح خطورة الدور الذي تقوم به التربية و تتضح شدة اتصالها و أهميتها بالنسبة لثقافة المجتمع أو الجماعة .

-١- التربية تقوم بوظيفة في كل مجتمع من المجتمعات .
-٢- التربية ليست غاية في ذاتها و لكنها وسيلة لتحقيق أهداف الجماعة .

فلا قيمة للتربية خارج أهداف الجماعة . و التربية تختلف من جماعة إلى جماعة . و لكن هناك أهداف تتفق الجماعات عليها . فهناك أهداف عامة للتربية تتفق عليها كل الجماعات البشرية . كما يكون لها غايات اجتماعية خاصة بكل جماعة . و إذا كان لكل جماعة غاياتها الواقعية المباشرة و غاياتها البعيدة الضاربة في المستقبل و إذا كان لابد للجماعة من توجيه حياتها نحو هذه الغايات المستقبلة كان لابد لهذه التربية نوعان من الوظيفة : (١) وظيفة تقريرية أي أنها تقرر الغايات المباشرة للجماعة و تحققها كما أن لها أيضا (٢) وظيفتها التوجيهية و هي التي تحمل الجماعة إلى المستقبل المنشود . كما أن للجماعة أيدلوجية و صورة مثالية أو يوتوبيا فكذلك للتربية وظيفة حاضرة تساند بها الصورة الحالية للجماعة و لها أيضا وظيفة مثالية تدفع الجماعة بها نحو غايتها التي ترغب في تحقيقها مع الزمن . و من ثم فالتوجيه جزء من التربية و وظيفة أساسية لها . و اليوم الذي تفقد فيه التربية وظيفتها التوجيهية تفقد أهميتها كأداة من أدوات الجماعة و لا يشذ عن هذه القاعدة إلا مجتمع ثابت لا يريد أن يتغير ليس له آمال في المستقبل قانع بما هو فيه و حينئذ لا تكون للتربية إلا صورة من هذا المجتمع الجامد برجعيته و ضعفه .

و في هذا الضوء نفرق بين التوجيه الاجتماعي للتربية و بين غيره . فالتوجيه الاجتماعي أن تأخذ التربية أسسها من أهداف الجماعة و آمالها و أن تتحد مع الجماعة في الغاية و الهدف و أن تكون أداة في يد الجماعة في التغلب على مشاكلها . أما التوجيه غير الاجتماعي و من أهم صوره التوجيه الفلسفي فيتميز في كثير من الحالات بالانفصال بين التربية و الواقع و المجتمع لأن التربية تأخذ موجهاتها من فلسفة قد لا توافق عليها الجماعة و إن وافق عليها فيلسوف التربية أو تكون غريبة عن الجماعة أو على أحسن الفروض تكون بحيث يصعب على الجماعة أن تغير حياتها بحيث تطابق هذه الفلسفة المعينة .

فالتربية الطبيعية مثلا على وجاهتها من الناحية الفكرية تتضمن صعوبات في محاولة اتخاذها أساسا للإجراءات التربوية في مجتمع ما و ذلك لأنه لا يوجد مجتمع تخضع حياته للفلسفة الطبيعية خضوعا تاما و لا يوجد مجتمع في عصرنا الحديث من مصلحته أن يتبع هذه الفلسفة . و من ذلك فالتربية الطبيعية إذا حاولتها جماعة ما فإنها تكون قد أخطأت في توجيه عملية التربية .

التربية و الثقافة

قلنا أن التربية لها طرفان : الفرد و المجتمع فهي تنصب مقدما على الفرد بتكوين شخصيته في اتجاهات معينة حتى يقابل الجماعة بحاجاته و مطالبها منه ، و قلنا أن هذين الطرفين لا ثالث لهما لأن التربية وسيلة لتحقيق التربية الاجتماعية عن طريق إقدام الفرد على الاضطلاع بنصيبه من المسئولية . و في هذا الضوء يبطل ما سبق أن ساد في الفكر التربوي من حيث أن التربية لها طرفان : التلميذ و المعلم . لأن طرفي التربية ليس التلميذ و المعلم و إنما التلميذ و المجتمع . و المعلم بكل معلوماته و حقائقه وأدواته من المنهج و الكتاب و الصنعة ليس إلا وسيلة خارجة عن طرفي التربية . و مع تسليمنا بأن للتربية طرفين الفرد و المجتمع فإننا نسلم أن هناك حلقة مفقودة بين الطرفين . فكيف ينتسب الفرد للمجتمع ؟ و كيف تحدد القدرات و الخصائص التي يجب أن يمتلكها الفرد ليكون فردا في الجماعة ؟ لا بد إذن من وجود شئ يربط الفرد إلى المجتمع و يحدد هذه التبعية و يحدد الخصائص التي يجب أن تتوفر في شخصية الفرد ليكون فردا في هذه الجماعة . حقيقة هذه الحلقة المفقودة بين الفرد و المجتمع هي الثقافة . فالذي يجعل الفرد عضوا في جماعة دون غيرها هو نوع ثقافة المجتمع الذي ينشأ عليها الفرد حتى يتقن طرقها و يحسن الحياة تبعا لها . و الثقافة هي التي يمكن للمجتمع من أن يميز بين أفرادها و بين غيرهم ممن ينتمون إلى غيرها من الجماعات . و يصبح مقدار عضوية الفرد في الجماعة هو مقدار تملكه لثقافة المجتمع و مقدار اقتناعه بثقافته و قدرته على الحياة وفقا لمثل هذه الثقافة . و بعبارة أخرى أن أداة الفرد في عضوية الجماعة هي الثقافة السائدة في هذه الجماعة . و لذلك فإن كل ما قلناه عن التربية و المجتمع إذا صح كقانون عام فإنه لا ينفع في الربط بين تربية و بين جماعة ما و إنما يجب أن تنصب العلاقة بين التربية و المجتمع على شئ آخر فتتخذ صورة العلاقة بين التربية و بين ثقافة المجتمع . و لا يمكن تخصيص تربية معينة لجماعة معينة إلا على أساس تفصيل التربية على ثقافة هذه الجماعة .

فإذا قلنا أن التربية من وظيفتها أن تحافظ على واقع الحياة في الجماعة فمعنى ذلك أن تحافظ على المقومات الثقافية السائدة في هذه الجماعة . و إذا قلنا أن من وظيفة التربية أن تنهض بالجماعة و ترقى أحوالها فإن معنى ذلك أن تحاول التربية رفع المستوى الثقافي للجماعة . و حل التربية لمشكلات الجماعة إنما هو حل لمشكلاتها الثقافية . و إذا قلنا أن التربية عليها واجب توجيه الجماعة فلن يكون ذلك إلا عن طريق تغيير الاتجاهات الثقافية أو تعديلها على الأقل . بعبارة أخرى إن موضوع التربية هو الثقافة فكل وظائفها لا بد أن تنصب على الثقافة . على هذا الأساس نستطيع أن نرى بعدا ثالثا للتربية و هو ذلك البعد الذي يربط بين بعديها الأصيلين : الفرد و المجتمع على أساس من الرابطة الثقافية بينهما . فإذا قلنا أن موجهات التربية لابد أن تأخذ من الجماعة فإن المعنى الأخير لهذا القول أن موجهات التربية لابد أن تأخذ من ثقافة المجتمع .

و لكن ما هي الثقافة ؟ نقصد كل مقومات طريقة الحياة التي تحياها هذه الجماعة و كل أدواتها في هذه الحياة . و كل ما يدخل في هذه الحياة من عناصر الحاضر أو آمال المستقبل . إذا ترجمنا هذا إلى مقومات مادية و معنوية فإننا نجد أن الثقافة تتكون من العادات و التقاليد و القوانين و المعارف و القيم و المثل العليا و الأفكار و العقائد و المهارات و الإنتاج الفكري و الفني و بعبارة أخرى كل ما يميز الحياة في هذه الجماعة أو يكون وسيلة من وسائلها . و لذلك فالثقافة أحيانا تسمى أسماء متعددة كالتراث الاجتماعي و الحضارة و المدنية إلى غير هذه المصطلحات التي تعبر عن طريقة الحياة السائدة في الجماعة . و مع تسليمنا بأن هناك بعض الفروق بين هذه المصطلحات فإنها فروق في الدرجة لا في النوع و لذلك فهناك خلافات كثيرة بين العلماء في تحديد معاني هذه المصطلحات فمثلا ذهبوا في بيان الفرق بين الثقافة و الحضارة . إن الثقافة تشمل كل محتويات طريقة الحياة في الجماعة على أن الحضارة أو المدينة تشمل فقط الجانب المهذب الراقي من هذه الحضارة كالعلوم و الآداب و الفنون و الاختراعات ... الخ . فإذا كان من أسس الحياة في جماعة ما الكذب أو الغدر أو تجاهل الوقت كان ذلك جزءا من ثقافتها و لم يكن جزءا من حضارتها . و مع ذلك فإن كلمة ثقافة في حد ذاتها تمثل أكثر من معنى لا يمكن أن يتجاهلها الباحث .

فهي قد تفهم على أنها عناصر الحياة في الجماعة ، و هي تطلق أحيانا على الجانب الفكري من حياة الجماعة دون الجانب المادي ، و إذا نظرنا إلى الحضارة على أنها الجانب المهذب الراقي من طريقة الحياة في الجماعة فإن كثيرا من معارف الجماعة إذا قيست بالمقاييس الدقيقة لا تثبت صحتها و على هذا فكثير من النظريات العلمية التي كان مسلما بها في القرن الماضي أصبحت خاطئة الآن في ضوء البحوث الحديثة و معنى هذا أن الحضارة بهذا المفهوم قد يصعب تحديد معالمها طالما أن الحقيقة متغيرة بتقدم طرق البحث . و مع ذلك ينبغي ألا يحيرنا هذا التناقض فهو من خصائص كثير من المصطلحات العلمية و إنما يمكن بكثير من الاطمئنان أن نفهم الثقافة على أنها مركب عناصر و مقومات طريقة الحياة في الجماعة سواء أكانت مادية أو معنوية راقية أو غير راقية صحيحة أو خاطئة مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها و أن الحضارة تمثل الجانب الصحيح الراقي من هذه الثقافة .

ما الفرق بين مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية ؟

إن المجتمع ليس إلا ثقافته و كل ما يوصف به المجتمع من تخلف أو تقدم و رجعية أو تقدمية تطور أو محافظة فإن هذه الصفة منصبة على ثقافة المجتمع . و لذلك فالمفهوم الاجتماعي للتربية هو منصب أولا و أخرا على الثقافة . فكل مادة من معلومات و حقائق و عادات و مهارات و قيم و مثل عليا و غير ذلك كل هذه المادة إنما هي مستمدة من ثقافة المجتمع و مستودعها هو الثقافة و ليست مستوردة من أي فرد أو أفراد أو حتى المعلمين و كل ما نطالب المدرسة به من تزويد هذه الثقافة إنما على المعلمين أن يستمدوه من دراستهم المستوعبة للثقافة . من هنا يتضح مفهوم الثقافة على اعتبار أن الثقافة من مكونات التربية . و بذلك تصبح الثقافة مصدرا من مصادر فلسفة التربية و إجراءاتها لأن الثقافة صفة لازمة للجماعة .

و الفرد في حياته و الجماعة في حياتها تابع كما هي تابعة للثقافة . كما أن الصفات التي تعلق بالفرد سواء أكانت صفات عقلية أم خلقية إنما هي مستمدة من

الثقافة . فالثقافة الزراعية تنتج نوعا معينا من الأفراد و الأخلاق و لو أن مجتمعا تحول من الزراعة للصناعة ما استقامت حياته الجديدة إلا إذا نجح في تحويل أفراده من حيث الثقافة و الخلق و التعليم إلى شخصية صناعية . و معنى هذا أن التربية إذا عنيت بحاجات الفرد و الجماعة فإن هذه الحاجات لا تعرف و لا تحدد إلا بدراسة الثقافة لأنها مجال نشاط الفرد و نشاط الجماعة الذي تتفتح في ضوئه حاجات كل من الفرد و المجتمع . و عليه يمكن القول أن كل تطور اجتماعي هو تطور ثقافي أي تطور في طريقة حياة الناس في إطار هذا المجتمع . أما طريقة توصل الإنسان إلى الثقافة أو إلى طريقة الحياة التي يعيش بمقتضاها فهو تركيز ذكاء الإنسان على مشكلاته في البيئة ا لطبيعية و الاجتماعية . فالثقافة هو مجموعة الحلول التي تضعها جماعة ما لمشكلاتها الطبيعية و الاجتماعية . و بعبارة أخرى فإن التطور الثقافي هو نتيجة طبيعية للاجتماع . فالبيئة الطبيعية تواجه الإنسان بمشكلات مادية متعلقة بحاجاتهم من هذه البيئة و كذلك فإن العلاقات الاجتماعية تواجه الناس بمشكلات أيضا . و المشكلة هي دافع كاف لأن يعمل الإنسان ليتخلص منها و وسيلته في ذلك إعمال الفكر و تركيز الذكاء على المشكلة . و هو في سياق محاولته لحل مشكلته يتوصل إلى المعلومات و الحقائق و يتعلم المهارات و يبنى عادات و يتوصل إلى قيم و مثل عليا و يسن القوانين و يضع آدابا للسلوك و من مجموع هذا كله تتكون الثقافة . و متى تكونت الثقافة استخدمها الإنسان سواء أكان فردا أو جماعة كأدوات لمواجهة المشكلات المستقبلية و كوسائل للمعيشة على البيئة الطبيعية و في البيئة الاجتماعية .

فالإنسان إذا توصل إلى قطعة من الحقيقة أو المعرفة أو قانون علمي احتفظ بها و استخدمها في المواقف المستقبلة ليفسر بها هذه المواقف و ليخرج منها بأكبر قدر ممكن من الفائدة و كذلك إذا كون مهارة من المهارات كانت هذه المهارة من أدواته في معالجة موقف مماثل له . و إذا توصل إلى قانون خلقي عام حاول دائما أن يستخدمه في مواجهة مشكلاته القادمة . هذه الطريقة طريقة تحدي المشكلات ثم مواجهة الإنسان لهذا التحدي بتركيز الذكاء و إعمال الفكر هي الطريقة ا لتي كشف بها الإنسان منذ أقدم العصور العلوم والمعارف و القوانين و المبادئ الخلقية و القيم

و المثل العليا . فالطريقة هي إعمال الفكر ، و الآلة هي الذكاء ، و النتيجة هي الثقافة أو جزء منها .

فقدماء المصريين مثلا عندما واجهوا طبيعة مصر المتوحشة منذ آلاف السنين لم يكن لديهم حقائق علمية و لا معارف و لا قوانين من تلك التي عرفوها فيما بعد . فهم لم يواجهوا هذه المشكلات بثقافة معهم و إنما هم واجهوها بذكائهم فقط بعملية تفكير . و بالصدام بين طريقة التفكير و المشكلة تولدت المعلومات و الحقائق و القوانين و هكذا توصلوا إلى حقائق الطبيعة و الزراعة و الكيمياء و مياه النيل و ضبطها و الحقائق الحسابية المتعلقة بحساب الأرض و توزيعها . فكل هذه المعارف التي تظهر في آثارهم و كتاباتهم إنما عرفوها من مواجهة المشكلات بذكاء . و هي ثقافتهم . و هكذا تولدت عندهم ثقافة من صنعهم . حتى الذين توصلوا إليه بهذه الطريقة و بهذه الآلة عندما واجهتهم مشكلات الكون . بدءوا يفكرون فيما وراء الطبيعة و في تفسير هذه القوى و توصلوا بذلك إلى فكرة الله و علاقة الله بالإنسان و الحساب و العقاب .. الخ . و على أساس هذه العقائد الدينية التي توصلوا إليها واجهوا مشكلات الجسم بعد الموت و كيف تستطيع الروح أن تتعرف على جسمها و ركزوا ذكائهم على هذه المشكلة فوصلوا إلى الحقائق التي تصل بهم إلى التحنيط و إلى كثير من القيم الفنية و المهارات الصناعية التي تتجسم في الأهرام و التماثيل و غير ذلك .

و هكذا بدراسة أمه واحدة كالأمة المصرية القديمة نستطيع أن نتبين كيف تتكون الثقافة نتيجة لعملية اجتماعية أي لعملية احتكاك و تفاعل بين الناس و الطبيعة من جهة و بين الناس و بعضهم من جهة أخرى . و الوسيلة كما قلت هي التفكير و تركيز العقل على المشكلات و هدفها أولا قبل كل شئ هو الحصول على وسيلة للتغلب على البيئة و المعيشة معها و مع الناس . و تتطور الثقافة بتطور العملية الاجتماعية ، و ليست الوحدات الثقافية الراقية التي يمتلكها الجنس الحاضر إلا متطورة من وسائل بدائية اهتدى إليها الإنسان في عصور قديمة و هي في فنها و على رقيها عرضة لمزيد من التطور و التقدم بمزيد من المشكلات المتعددة التي سيواجهها الإنسان و يزيد من أعمال الفكر و تركيز الذكاء .

فالصناعة الحديثة على تقدمها ليست إلا وليدة عمليات تطور بطئ للمهارات و الأدوات البدائية التي توصل إليها الإنسان الأول . و لعلنا نستطيع أن نلمس هذه الحقيقة إذا عرفنا أن القاطرة البخارية يستحيل عليها أن تتحرك و كان يستحيل أن توجد بدون اختراع العجلة التي صنعها الإنسان البدائي في مصر أو بابل منذ آلاف السنين . و إذا نظرنا إلى صناعة معقدة أخرى كصناعة حفظ المأكولات لوجدنا أنها تطور طبيعي من عملية استئناس الحيوان و اكتشاف النار و تجريب أكل اللحوم و الخضرة مطهوة و من هذا كله و بعملية تطور بسيط تحولت هذه الوحدات الثقافية البدائية أو التي ننظر إليها الآن على أنها بدائية إلى هذه الصناعة الموجودة الآن .

و فكرة الحكومة الحديثة بكل تعقيداتها ليست إلا تطورا طبيعيا بدائيا لوحدة ثقافة أولى هي الأسرة و للنظم البدائية التي سادت الأسرة في العصور القديمة و مدارسنا و جامعاتنا الحديثة على تعقدها و ضخامة المادة التعليمية الموجودة فيها ليس إلا تطورا طبيعيا بطيئا لنظام التعليم داخل الأسرة و المؤسسات البدائية كالكتاب . و هكذا تنشئ الثقافة و تتطور نتيجة لعملية طبيعية ذات صفة اجتماعية تتم تحت ضغط الظروف و مطالب المعيشة و البيئة الطبيعية و اجتماع الناس على أعصاب الإنسان و كلما تعقدت المشكلة و كلما اشتدت حاجة الإنسان و كلما شعر الإنسان بنقصه و ضعفه و تهديد حياته ابتكر من الوحدات الثقافية أصعبها و أعقدها و أكثرها فائدة كأدوات لا يستغني عنها في عملية المعيشة .

كيف كون الإنسان ثقافته ؟ مع التمثيل بكل من الثقافة الفرعونية والحديثة ؟

أما العملية الثقافية أي العملية التي توجد الثقافة نتيجة لها فإنها تسير وفقا للقوانين السيكولوجية التي نعرفها و خلاصتها أن كل استجابة مفيدة و ناجحة إذا قيست بمعيار المنفعة أي بمعيار فاعليتها في تخليص الإنسان من مشكلة أو تمكينه

من مواجهة موقف يعتبرها الإنسان أداة ناجحة و يحتفظ بها ، و كل استجابة ضارة أو غير مفيدة بمعيار المنفعة بالتغلب على البيئة و مشكلاتها تعتبر استجابة غير مفيدة و يسقطها الإنسان من أطراف نفسه . و هكذا في كل وحدة ثقافية سواء أكانت مادية كاختراع من الاختراعات أم أداة من الأدوات أو كانت روحية كقيمة خلقية أو كانت فكرية كحقيقة أو قانون علمي . فإن معيار الوحدات الثقافية هو المنفعة . فالوحدة الثقافية التي تريح الإنسان من التوتر الذي يشعر به إزاء مشكلة تضم إلى المركب الثقافي و تميز الجماعة التي اكتشفتها و اخترعتها . و في ضوء ما تقدم نستطيع أن نتبين أن كل حضارة مهما كانت راقية و عظيمة فإنها كائن حي نمى من أصول بسيطة و خضع لإجراءات سلوكية معينة تناولته بالاحتفاظ و التعديل و الإسقاط إلى أن نصل إلى الثقافة الحالية لأي مجتمع من المجتمعات أو لجماعة البشر كلها .

فكل حقيقة أو قانون أو مهارة أو قيمة أو قاعدة ثبتت فائدته تعتمده الجماعة و تضمه إلى مركبها الثقافي و حيث لا يمكنها أن تحل مشكلة أو موقفا معنيا و يتناولها الإنسان بالتعديل و التبديل و التكييف إلى أن تنجح في حل الموقف الجديد و يضاف إلى مركب الثقافة ، و كل وحدة ثقافية يبطل عملها و تصبح قليلة الجدوى في مواجهة مواقف الحياة تبعد عن المركب الثقافي و تسقط منه نهائيا . و معنى ذلك أن الثقافة من صنع الإنسان يصنعها في سياق الحياة و طريقتها هي النمو و التجمع و وسيلتها هي الانتقال الطولي بين الأجيال و الانتقال العرضي عبر المكان من جماعة معاصرة إلى جماعة معاصرة أخرى و طريقتها هي التقليد و التعلم و مادتها أنماط السلوك و نتيجتها هو ما نراه من أنواع الشخصيات الآدمية و المجتمعات البشرية و المعارف و المعتقدات .

و كل ما تقدم هو تعريف الثقافة بالأسلوب الإجرائي . و مفهومها على أساس هذا التعريف هو أنها أداة جماعة ما في معيشتها على البسيطة و بينها و بين نفسها . أما تعريفها الشكلي الأرسطاطاليسي فهو أنها كل ما اخترعه الإنسان من الوسائل في سياق معيشته على هذه الأرض و عن طريق تفاعله معها و يدخل في ذلك التقاليد و العادات و المهن و العقائد و المعايير و أنماط السلوك .. الخ . فكل

ما اخترعته الجماعة أو اكتسبته بطريقة ما هو ما يعبر عنه بثقافة هذه الجماعة . و كل هذه الأشياء هو ما يسمى الثقافة و الجانب الراقي اللامع منها هو الحضارة أو المدينة . فالثقافة أعم و الحضارة أخص . فالحضارة جزء من الثقافة و كل جماعة بشرية لها ثقافة و لكن كثيرا من الجماعات البشرية لم تستطيع أن تهذب بعض ثقافتها لترتفع بها إلى مصاف المدنية .

تبينا فيما سبق الطبيعة الاجتماعية للثقافة فهي ليست آتية إلى الإنسان و لا إلى الجماعات من عالم ما وراء الطبيعة و تنتهي إلى عالم الطبيعة و إنما هي واقع لحياة اجتماعية تمت في هذه الحياة من صنع الإنسان و من ابتكاره . فثقافة جماعة ليست وراثية أي ليست جزءا من دمه و لكنها مكتسبة بطرق شتى و متنقلة عبر الأجيال كل جيل يرثها ميراثا اجتماعيا من الجيل السابق له . فوسيلتها هي التعلم و المحاكاة و التقليد و النقل إلى آخر وسائل الوراثة الاجتماعية و لكن طريقتها ليست حاملات الوراثة و غيرها من عوامل الوراثة المعروفة . و الثقافة ليست من صنع جيل معين من أجيال الجماعة و إنما هي من صنع أجيال متعاقبة متسلسلة في عملية تاريخية طويلة تمتد بامتداد حياة هذه الجماعة على البيئة الطبيعية التي ينتمون إليها . و ليس قولنا أنها ليست وراثية أنها ضعيفة بل هي متأصلة في نفوس أصحابها لا يملك الفرد إلا أن يكيف نفسه لجوها و أن يقبلها و مهما حاول أهل جيل من الأجيال أن يغيروا ثقافتهم أو يطوروها فإن غاية ما يمكنهم أن يعملوه هو تكييف بعض جوانبها لظروف حياتهم المتطورة و لكن ثقافتهم تبقى في جوهرها و في خصائصها الأساسية ما هي عليه دائما .

و على ذلك يمكن أن نتبين في عملية الوراثة الثقافية ثلاثة جوانب : عملية الوراثة و هي مجهود من جانب الجيل الجديد ليتعلم ثقافة الأجيال السابقة له . ثم جانب التكيف و التكييف و هو محاولة أهل الجيل أن يطوعوا الثقافة لظروفهم الجديدة بإدخال بعض التعديلات عليها أو تحسينها أو حل مشكلاتها . ثم الجانب التوريثي و العامل الإيجابي فيه هو الجيل السابق فهو يبذل جهدا مقصودا في سبيل تلقين ثقافته و توريثها للجيل الناشئ و من ثم يتضح أن عملية استمرار الثقافة هي عملية ديناميكية من أكثر من مصدر . ديناميكية من ناحية الجيل الناشئ

لأن من مصلحته أن يمتص هذه الثقافة طالما هي أداته في المعيشة على البيئة و هي ديناميكية من جانب هذا الجيل الناشئ على معنى آخر فهو في الوقت الذي يحاول أن يكيف نفسه لثقافة الجيل السابق فإنه يحاول إيجابيا أن يكيف الثقافة لظروفه المتجددة المتطورة و أن يأتي تكيفه للثقافة بالقدر الذي يساوي فرق ما بين ظروف حياته و ظروف حياة الجيل السابق له . و هي ديناميكية من جانب الجيل السابق فهو أولا لعطفه على الجيل الناشئ . و ثانيا تحت تأثير دافع المحافظة على النفس يبذل جهدا إيجابيا نحو تلقين ثقافته للجيل الناشئ . و قد يضحي في ذلك تضحيات كبيرة و قد يشقى شقاءا كبيرا تماما بدرجة معاناة و شقاء الجيل الناشئ في تعلم الثقافة المعقدة و لكن أهمية الثقافة يبرر في نظر الجيلين هذا العنت و الشقاء و التضحيات .

و إذا كانت الثقافة جزء من تاريخ الجماعة و جزء من الميراث الاجتماعي الذي يتم بين الأجيال المتعاقبة من الجماعة فإن النتيجة الطبيعية لهذا هو أن الثقافة لا توجد خارج الأفراد الآدميين الذي تتكون منهم جماعة ما . فالثقافة موجودة في داخل كل فرد و ليس لها وجود خارج الأفراد . في عقولهم و في عواطفهم و في طريقة تفكيرهم و في عاداتهم و على أطراف أصابعهم و في عقائدهم .. الخ و لكنها لا توجد أبدا في خارج هذا الإطار الآدمي و كل ظاهرة ثقافية توجد خارج الأفراد فإنها من صنعهم و تطبيق لما ورثوه من جوانب ثقافة جماعتهم . و معنى هذا أن الجانب المادي في الثقافة ما هو إلا صور لحقائق ثقافية موجودة داخل الأفراد . فكل عنصر ثقافي مادي إنما هو تجسيد لفكرة و إنتاج لمهارة و محصل لدافع و كلها لا وجود لها إلا في إنسان ينتمي إلى جماعة ما .

و من هذا نستطيع أن نفهم طبيعة العناصر الطبيعية التي نجدها في التماثيل و النصوص و الفنون و كتب العقائد فكلها صور لمعان و أفكار موجودة في الناس . يستطيع كل إنسان أن يقرأها و أن يتذوقها و أن يفهمها و لكنه لا يستطيع أن يسلك بمقتضاها أو يعتقد تبعا لأفكارها أو يتصرف تبعا لها و إنما يأتي التقيد بالصورة المادية من جانب الذين يمتلكون الأفكار و العواطف التي أتت هذه الجوانب المادية تعبر عنها . فالثقافة كأدوات معيشة هي ملك لأصحابها و لا توجد

في خارجهم و من هنا نعرف من زاوية أخرى المفهوم الاجتماعي للثقافة و الطبيعة الاجتماعية لها . و إذا كانت الثقافة ظاهرة من ظواهر تاريخ أي جماعة فإن بعض عناصرها قد يكون آتيا من هذا التاريخ فاللغة مثلا عنصر من عناصر الثقافة و هي عنصر أساسي و مع ذلك فإن اللغة كمهارة و كرموز قد تكون مستقلة عن تاريخ أي جماعة بذاتها . و هذا هو نتيجة طبيعية لنظرية وحدة اللغة . فكل اللغات من أصل واحد لأن اللغة ظاهرة إنسانية عامة و كذلك الدين هو أقدم من أي جماعة بذاتها و لذلك اعتبر آتيا من وراء الطبيعة . و مع ذلك فمن المؤكد أن أصول هذه العناصر الثقافية إنسانية توصل إليها الجنس البشري في مراحل مختلفة من تاريخها و توارثته المجتمعات فاللغة و العقائد الدينية من صنعه أيضا فقد فكر الإنسان في الدين قبل ظهور الأديان و من هنا تأتي وحدة الإنسانية و يأتي اشتباك الأصول الثقافية و هو تأكيد من زاوية أخرى لإنسانية الثقافة و لأنها نتيجة عملية تاريخية و مجهود بشري و أنها أولا و أخرا وراثة اجتماعية . و النتيجة لكل هذا هو ما نشاهده من تنوع الثقافات فهناك ثقافات بعدد ما هناك من جماعات .

فما دامت الثقافة تتكون لاستجابات إنسانية لمواقف البيئة و ظروف المعيشة فإن الثقافة يجب أن تتنوع بتنوع البيئات و الجماعات فلكل جماعة بيئتها و مواقف معيشتها و من ثم فلها ثقافتها أيضا . و من زاوية أخرى يمكن أن نعبر عن هذا المعنى بقولنا أن اختلاف الثقافات الأساسي ليس اختلاف الناس فالناس ليسوا مختلفين بيولوجيا و لكنه اختلاف الظروف الطبيعية و الاجتماعية . و من هنا تبطل نظرية انحصار العبقرية في جنس معين أو أن الذكاء و القدرة و ملكة الابتكار تختلف باختلاف الأجناس أو أن لها أسباب ترجع إلى الدم الذي يجري في عروق الجماعات . فالواقع أن الظروف التي تخضع لها الجماعة هي التي توحي لها بالحلول الثقافية أي هي التي تفرض عليها الخمول أو العبقرية .

ثقافة أي جماعة لا تختلف عن ثقافة أي جماعة أخرى إلا لأن ظروفها البيئية و الاجتماعية مختلفان و حيث تتشابه الظروف الاجتماعية و تتفق المشكلات المادية تتفق تبعا لذلك الردود السلوكية و تتفق المعلومات و المفاهيم و العقائد و المهارات أي تتشابه الثقافة . و لهذا فإننا نجد أن العنصر الثقافي الواحد قد

اخترع في جماعات مختلفة في أوقات متعاقبة أو مختلفة أيضا دون أن يكون هناك أي علاقة بين الجماعتين و التعليل بسيط هو أن تشابه المشكلات و المواقف أدى إلى نفس الاختراع الثقافي .

على أساس ما تقدم أي على أساس الطبيعة الاجتماعية الإنسانية الآلية للثقافة يمكن أن نتبين أن الثقافة من العوامل المجمعة بين جماعة من الناس كما أنها من العوامل المفرقة . فالثقافة توحد بين أفراد الجماعة التي تشترك في ثقافة واحدة فالذي يربط بينهم و يحقق تفاهمهم و تماسكهم في ثقافة واحدة هي الروابط الثقافية التي تربط بينهم و الذي يفرق بين جماعات مختلفة هو تعدد الثقافات و صعوبة التفاهم و الانسجام . و من أمثلة ذلك مثلا ما تقوله من أن أسس القومية العربية و جود ثقافة عربية واحدة تتفق فيها كل الشعوب العربية فوحدة الثقافة هنا تجمع الأمة العربية على مسافة ٦٠٠ كيلو متر و على مساحة تبلغ ١١ مليون كيلو متر مربع هذا التجميع الذي هو واقع بين الشعوب العربية المتعددة سببه هو العامل الثقافي أي وحدة الثقافة و يمكن أن نقيس على هذا التقارب بين الشعب الإنجليزي و الولايات المتحدة . و التقارب بين شعوب العالم الشرقي فكلها ضروب من التقارب قائمة على عوامل ثقافية مشتركة . و الذي يفرق بين العرب و بين الشعوب الغربية هو اختلاف الثقافة بكل ما تشتمل عليه الثقافة من عقائد و مفاهيم و قيم و مثل عليا .. الخ .

فالعرب لا يستطيعون أن يجاروا أهل الغرب في كثير من طرق حياتهم التي تفرضها عليهم ثقافتهم و ليس ما نسميه بالقومية أو الاستعمار أو الرأسمالية أو الشيوعية .. الخ إلا عناصر ثقافية بين جماعات من البشر نتيجة لاختلاف بينهم و توحد بين جماعات أخرى من البشر تتفق فيما بينها . فاللغة الواحدة . و الدين الواحد . و آداب السلوك الواحدة كلها مما يقرب بين الجماعات و كلها من عوامل وحدة الأمة و تماسك الشعب و في داخل جماعة معينة يكون تشابه العوامل الثقافية من عوامل تماسكها كالدين و اللغة . و على هذا الأساس جعل التعليم عاما و مجانيا حتى لا تختلف الثقافة في داخل الجماعة فتضعف و تتفتت .

إن الثقافة ظاهرة اجتماعية تتكون نتيجة اجتماع الناس في بيئة معينة و مقابلتهم لتحديات الطبيعة و الاجتماع . فكيف تصل جماعة من الجماعات إلى ثقافتها ؟ هناك طريقان (أ) طريق الاختراع (ب) طريقة الاقتباس أو الاستعارة . و ما تخترعه الجماعة في سياق معيشتها ينسب إلى الاختراع و يشير إلى طبيعة الثقافة الاجتماعية المتغيرة من مجتمع إلى مجتمع . كما أشرنا إلى أن الجماعة قد تتخذ وحدات ثقافية مما سبق لجماعات أخرى أن اتخذته و هذا يشير إلى الاستعارة كما يشير إلى الطبيعة الإنسانية للثقافة . فالمخترع يؤكد جانب ارتباط الثقافة بجماعة معينة و الاستعارة و النقل تؤكد جانب وحدة الإنسانية في ميدان الوسائل التي تتخذها الجماعة للمعيشة على البيئة . و الاختراع كطريقة لاختراع الثقافة ينطبق عليه ما على العمل الابتكاري الذي لابد فيه من عملية تفكيرية أصيلة لا تكون إلا استجابة لمشكلة تحفز الإنسان على التفكير لما تسببه من الضغط على نفسه و على أعصابه فينبري الإنسان للمشكلة بعملية تفكير يركز فيها ذكائه على المشكلة محاولا حلها مدفوعا بالتوتر العصبي الذي لا يهدأ إلا إذا تخلص من مشكلته . فالثقافة هي من هذا النوع عمل ابتكاري يكون نتيجة عملية تفكيرية أصيلة و صحيحة في مواجهة مشكلة محددة ضاغطة لأنها تهدد رغبة من رغبات الإنسان أو تعطل حاجة من حاجاته . فالجماعة عندما تتحداها مشكلة على البيئة الطبيعية أو في نظامها الاجتماعي تتصدى لهذه المشكلة و تضع لها حلا و هذا الحل إذا نجح في مواجهة المشكلة ينضم إلى مركبها الثقافي كعنصر من هذا المركب . و من أمثلة ذلك حضارات الشعوب الأولى القديمة فنحن إذا نظرنا إلى الحضارة المصرية القديمة فنجد أن معظمها أتى نتيجة عملية اختراع لأن الطبيعة تحدت المصريين من أول الأمر . المستنقعات ، الحيوانات المتوحشة ، انخفاض النيل و ما ترتب عليه من العطش للإنسان و النبات ثم فيضانه و ما يترتب عليه من إغراق إنبات الأرض و إهلاك المحاصيل . تقسيم الأرض الزراعية على أهل القرى بيع المحصولات و شرائها . مواجهة مشكلات الموت و الحياة و قوى الطبيعة المعادية و الصديقة . مشكلة الملك و الاعتداء على الملك . مشكلة الأسرة و الاعتداء على الأسرة . كل هذه مشكلات مادية و معنوية تحدت المصريين القدماء و تصدوا لها

بعمليات تفكير و كانت النتيجة تلك الحضارة العظيمة و تلك الثقافة المتعددة الجوانب التي ترتبط بالمصريين القدماء في التاريخ .

و كما أن العمل الابتكاري لابد أن يكون نتيجة عبقرية في حالة الفرد فإن الاختراع الثقافي في حالة الجماعة لابد أن يكون نتيجة عبقرية سواء عبقرية فردية في الجماعة و هو الغالب أو عبقرية الجماعة ككل و كوحدة كبيرة و هو أمر متمم لعبقرية الأفراد . فالذي يخترع الاختراع أي العنصر الثقافي لاشك أنه فرد أو مجموعة متتالية من الأفراد من صفاتهم العبقرية و الجماعة التي تشجع عباقرتها على الاختراع الثقافي و تحتفظ بما يخترعون و تضمه طواعية لحصيلتها الثقافية هي من غير شك جماعة عبقرية أيضا . فالجماعة المصرية القديمة جماعة عبقرية لأنها شجعت الابتكار في الأفراد و قبلت اختراعاتهم الثقافية على حين أن جماعات أوربا في العصور الوسطى كانت جماعات ليس فيها عباقرة لأنها اضطهدت عباقرتها و اضطهدت مخترعاتهم الثقافية . فكل من ظهر بنظرية علم اضطهد و احرق و عذب و احرق كتابه أو الآلة التي اخترعها . على حين أن الجماعة الإسلامية في العصور الوسطى أيضا كان فيها عباقرة لأنها شجعت ابتكار الأفراد حتى من غير المسلمين و المختلفين مع الجماعة في الدين و الأخلاق و القيم . و لذلك نشأت المدنية العربية العظيمة على حين قطعت الشعوب الغربية عدة قرون في العصور الوسطى و خرجت بدون ثقافة و بدون مدنية حتى اتصلت بالمدنية العربية و بدأت تتبعها على يد العباقرة مثل روجر ملك صقلية و بعض ملوك أسبانيا بعد فرديناند و ايزابيلا و كما تتفق الآراء و تتشابه الاختراعات و تتوارد الخواطر في حالة الأفراد في مجال العلم و الأدب كذلك تتوارد الخواطر و الأفكار و الحلول بين الجماعات فقد تتوصل جماعتان أو أكثر لنفس المخترع الثقافي أو لنفس العنصر الثقافي مع تباعد المكان و الزمان أو تباعدهما دون أن تتصل أحدهما بالأخرى . و تفرق علماء التاريخ و كذلك علماء الأنثربولوجي في أول ظهور العلم و اختلفوا في تعليله و لكن التعليل سهل ميسور و هو أن تشابه المشكلة يؤدي إلى تشابه الحل لذلك اخترعت الأبجدية و العملة و النار و طهو الطعام و المركبة و الأدوات الزراعية في جماعات مختلفة في عصور متباعدة و أماكن نائية و من أمثلة ذلك الاختلاف على أول جماعة استنبتت القمح أهم

المصريون القدماء أم سكان سوريا القدماء ؟ و اختلف في هذا و كتبت البحوث المستفيضة و مع ذلك فالحل بسيط جدا و هو أن كلا من المصريين و السوريين توصلوا إلى استئناس النبات كما توصلوا إلى استئناس الحيوان كل بطريقته حسب ضغط الظروف المتشابهة .

و بهذا الاختراع الثقافي تنشأ الثقافات المختلفة و تختلف تبعا لإنجابها عدد من العباقرة و تبعا لمرونتها في قبول ما يخترعه هؤلاء العباقرة . و هكذا تتقرر الصفة المحلية للثقافات . لأن كل ثقافة هو اختراع جماعة تحت ظروف معينة .

هناك عاملان لتكوين الثقافة : الاختراع و الاستعارة أو الاقتباس .
و الاختراع مهما يكن فهو يحتاج إلى عبقرية فرد في الجماعة . فالجماعة كلها لا تخترع و لكن الفرد العبقري هو الذي يخلق الاختراع ثم يعطيه للجماعة و لذلك يجب أن نشجع العبقريات و مع ذلك يرجع الاختراع أحيانا إلى عامل الصدفة أو حتى أحيانا إلى عامل الخطأ مثل اختراع الآلة البخارية (عندما رأي البخار) و التفاحة ساقطة أوحت لنيوتن بفكرة الجانبية الأرضية . و قد يحدث خطأ في تركيب كيماوي و يظهر لهذا المركب بعض الخصائص و المزايا فيصبح اختراعا ثقافيا . و على كل حال فسواء كان الاختراع نتيجة قصد و عمد و بحث أو نتيجة مصادفة أو نتيجة خطأ فهو يحتاج دائما إلى عنصر العبقرية . فإن الذي يستطيع أن يلتقط حادث عفوي عشوائي و يجعله أساس الاختراع لابد أن يكون عبقريا و الذي يحول خطأه إلى اختراع لابد أن يكون عبقريا فلا بد لنا من الاعتراف بأهمية العبقرية في موضوع الثقافة .

العامل الثاني : الاستعارة الثقافية و هذا العامل يقوم على أن الثقافة تنتقل عبر الأجيال إما طوليا و إما أفقيا عبر الأراضي المختلفة . و هي تنتقل عن طريق التعليم و التقليد و المحاكاة و الاقتباس . فالثقافة التي تنتقل من جيل إلى جيل أو من فرد إلى فرد لا وسيلة له إلا التعليم و التقليد و المحاكاة و هذا يحدث في الثقافة . فإن أي جماعة من الجماعات لا تستغني عن أن تقتبس و تستعير عناصر ثقافية تأتي في طريقها عن طريق الاحتكاك بجماعة أخرى معاصرة فإذا حدث

اتصال بين جماعتين فإن كل منهما تستطيع أن تتعلم من الأخرى بعض عناصر ثقافتها أي تقتبس بعض هذه العناصر . و متى استعارت الجماعة عنصرا ثقافيا و قبلته و ضمته إلى ثقافتها أصبح جزءا من هذه الثقافة و دخل في مركبها الثقافي كأنه أصيل فيها خصوصا إذا تقادم عليه العهد و تفاعل مع سابق ثقافته و اندمج فيه و هكذا يأتي لكل ثقافة مدد من الثقافات الأخرى المعاصرة .

هذا التعلم و هذا التقليد طريق مسلم بها في تكوين الثقافات و في نموها . و قد جعله ابن خلدون العنصر الأساسي في تكوين الثقافات و في تطورها فقد ذهب إلى أن تقليد جماعة لجماعة أخرى يؤثر في ثقافتها و يدخل عناصر جديدة في هذه الثقافة . ***و هناك عوامل تسهل هذه الاستعارة الثقافية :***

(۱) العامل الأول : هو العامل الجغرافي فكلما قرب موطن الجماعتين سهل استعارة أحدهما من الآخر فالجماعة يسهل عليها أن تستعير من الجماعة التي تعيش على حدودها أكثر من إمكانية استعارتها من جماعة تعيش على مسافة بعيدة أو تقطع بينها و بين هذه الجماعة ظواهر جغرافية بعيدة كالبحار و الجبال و ما إلى ذلك .

(۲) العامل الثاني : سهولة المواصلات بحيث يسهل الاتصال بين الجماعة فتسهل عملية النقل على حين أن بعد الشقة و بطء المواصلات تقف حائلا دون أي استعارة ثقافية و لذلك فإن عملية الاستعارة الثقافية كانت في التاريخ القديم تستغرق قرونا عدة فانتقال الحضارة المصرية القديمة إلى اليونان استغرق عدة قرون إلى أن حدث تأثير و تمكنت الجماعة اليونانية أن تستعير عناصر ذات قيمة من الحضارة الفرعونية و كذلك استغرق الأوربيون مدة طويلة قبل أن يتمكنوا من استعارة ثقافة العرب و اقتباسها . هذا على حين أن انتقال المدنية الغربية الحديثة إلى جميع أجزاء العالم تم بغاية السرعة ابتداء من انتصاف القرن ۱۹ و إذا قدرنا ما أمكن نقله من هذه الحضارة قبل منتصف القرن ۱۹ في جميع أنحاء العالم و ما أمكن تعلمه بعد هذا التاريخ لوجدنا أن نسبة ضئيلة من تلك الحضارة الأوربية هي تلك التي أمكن أن تنتقل إلى الشعوب الأخرى قبل منتصف القرن

١٩ و لمجتمعات قليلة جدا أما بعد منتصف القرن ١٩ فقد انتقلت هذه الحضارة بسرعة لأن طرق المواصلات السريعة و الحديثة كلها قد اخترعت في منتصف القرن ١٩ فسهولة المواصلات كانت عاملا في انتشار الحضارة الغربية الحديثة . و الراديو كوسيلة نقل الثقافة .. في تاريخ الآداب أن التأثيرات الحضارية و الأدبية و الفنية قد انتشرت في أنحاء العالم منذ اخترعت الطباعة و الصحف ووسائل المواصلات التي نقلت الصحف في أنحاء العالم و لكن أثر الصحف لا يمكن أن يقاس بأثر الراديو في نقل الثقافة لأن الراديو ينقل بسرعة الصوت . و هناك أمثلة كثيرة للتطور الثقافي عن طريق النقل و الاقتباس فانتقال أمتنا العربية من حضارة العصور الوسطى إلى العصور الحديثة لم يكن إلا استعارة ثقافية في كليتها منذ اتجهنا نحو هذه المدنية بعد حملة نابليون في أواخر القرن ١٨ ثم النهضة الثقافية و التعليمية و الصناعية التي حدثت في مصر في النصف الأول من القرن ١٩ انتقلنا من حضارة إلى حضارة .

تتكون الثقافة عن طريق الاختراع أو النقل و الاقتباس . ناقش مبينا أهم العوامل المؤثرة في ذلك .

و مثال آخر اليابان و اقتباسها للحضارة الغربية و الصناعة الغربية في نفس الوقت تقريبا و الأمثلة كثيرة . و مع ذلك فهناك قواعد و قوانين للاستعارة الثقافية . و أولى هذه القواعد هي أن الاقتباس في المظاهر المادية أسهل بكثير من الاقتباس من المظاهر الفكرية و العاطفية و الخلقية و العقلية فمن السهل :

-١- أن تستعير جماعة القلم و تستخدمه في الكتابة و تترك ريشة الأوز أو الدجاج و من السهل أن تقتبس جماعة آلة من الآلات أو وسيلة من وسائل الانتقال و لكنه يصعب أن تنقل عقيدة أو سلوك خلقي من نوع معين و ذلك لتأصل العواطف و العقائد و الأفكار في الجماعة و ارتباطها بكيانها و تكوينها لمقدساتها و من ثم يصعب التغيير و الاقتباس .

- ٢ – أنه يسهل الاستعارة الثقافية إذا أمكن لهذا العنصر أن يثبت تفوقه على نظائره في الثقافة المتحولة أو المتغيرة . فمن غير شك تستطيع القاطرة الحديدية أو السيارة أن تثبت أنها أكثر فائدة في حل مشكلة انتقال الناس من الحمار أو الحصان و على ذلك يسهل جدا على الناس أن يركبوا الحصان و العربات و أن يقتبسوا القاطرة و السيارة و الترام و ما إلى ذلك . و بالرغم من خوف الناس من ركوب الطائرة فإن السفر بالطائرة أصبح هو القاعدة الآن بالرغم من هذا الخوف و ارتفاع الأجر لأن الطائرة أثبتت أنها أكثر فائدة في حل مشكلة الانتقال و المواصلات . أما إذا كان العنصر الثقافي لا يتغلب فاقتباسه صعب مثل الطب . فبالرغم من قدم علم الطب و العقاقير فإن السحر و الشعوذة ما زالت مستمرة و باقية إلى الآن و السبب في ذلك أن العلاج بالعقاقير لم يستطيع بصفة قاطعة أن يثبت أن السحر و التمائم لا فائدة لهما ، و على ذلك أقول إن الناس انتفعوا بعلم الطب و ا لعقاقير الحديثة و مع ذلك فإنهم استمروا في استخدام التعاويذ و الوسائل السحرية لأن شيئا لا يستطيع إقناعهم أن الشفاء كان نتيجة الدواء لا السحر و التعاويذ لذلك استمر العنصران جنبا إلى جنب للعلاج على حين اختفى الحصان و الحمار .

- ٣ – أنه يسهل اقتباس العنصر الثقافي إذا كان لا يتعارض تعارضا ظاهرا مع نصوص الدين أو مع القيم المسلم بها و لهذا السبب سهل اقتباس شرب القهوة و الشاي حتى أصبحت عامة في العالم كله لأنه لم يوجد نص في دين يحرم استخدام هذه الأشياء على حين أن الخمر لم تتمكن على قدمها من أن تصبح جزء من ثقافتنا و ثقافة الشعوب الإسلامية كلها لأن هناك نصا دينيا صريحا يتعارض مع الخمر . فحيث يوجد التعارض الظاهر المنصوص عليه يصعب جدا إن لم يكن من المستحيل أن تقتبس العنصر الثقافي .

- ٤ – أن كل اقتباس ثقافي لابد أن يقابل مواجهة في أول الأمر فالجماعة أي جماعة تقاوم كل تغير في ثقافة و كل اقتباس جديد و لكنها على كل حال مقاومة نسبية فحيث يكون العنصر الثقافي المقتبس متمشيا مع القواعد السابقة تكون المقاومة سهلة لينة و تختفي بسرعة أما إذا كانت ضد هذه القواعد فإن الاقتباس

يتعذر ربما إلى حد الحرب الأهلية فالقاطرة وجدت مقاومة و نسبت إلى الشيطان و الطباعة وجدت مقاومة من الناسخين و لكن انهارت المقاومة بسرعة لأن هذه العناصر الثقافية أثبتت جدارتها و فاعليتها أما عندما يتعرض النقل الثقافي للدين أو للغة أو للقيم الموروثة فإن المقاومة تشتد و تعم و تستمر إلى درجة وقوع حرب أحيانا . و أيا كان نوع الاقتباس الثقافي فهو متوقف على إرادة الجماعة . فالجماعة لا تقتبس إلا إذا أرادت و اقتنعت ، و في كثير من الحالات لابد من حدوث تعديل لأن العنصر الثقافي الذي يقتبس قد لا يتناسب معها فيعدل فيه حتى يناسب هذه الجماعة و يبدو كأنه عنصر أصيل في ثقافتها .

– ٥ – أن الاقتباس دائما يكون متمشيا مع الغلبة فالجماعة المغلوبة تقلد دائما الجماعة الغالبة كما قال ابن خلدون و مهما قلنا من أمر الاقتباس الثقافي فإن للثقافة صفتها الإنسانية العامة بحيث أنه لا تستطيع جماعة أن تدعى أن جماعة أخرى نقلت عنها بالذات و أن تفتخر بأنها علمت الجماعات الأخرى لأن كثيرا من العناصر التي تعلم و تتعلم عناصر إنسانية ساهم في تكوينها من أول الأمر أكثر من جماعة و من شعب فالنظرية العامة أن الإنسانية عامة تقتبس من الإنسانية عامة أو أن جماعة معينة لا تقتبس من جماعة معينة أخرى إنما هي تقتبس من الإنسانية . فاقتباسنا للمدنية الغربية ليس اقتباسا من الغرب لأن كثيرا من علوم الغرب الحالية التي نقتبسها إنما هي راجعة إلى اختراعات ثقافية اسهم العرب فيها و أسهم غيرنا فيها و أضاف الغرب عليها مشكورين فنحن نقتبس حضارة إنسانية و ليست حضارة غربية و علم الطب الحديث قائم على الطب العربي من تأليف ابن سينا و غيره الذي كان يعلم في أوربا إلى أواخر القرن ١٨ و هكذا كل الاختراعات حتى القاطرة البخارية نحن اخترعنا العجلة و لولا العجلة و نظريتها لما كان في الإمكان اختراع القاطرة .

و يمكن أيضا أن نقول أن الاقتباس الثقافي و النقل و الاستعارة الثقافية تحتاج إلى عبقرية فلا بد من فرد متميز الذكاء يستطيع أن يلمح العناصر الثقافية التي تستحق الاقتباس و يكون شجاعا يستطيع أن يجاهر بوجوب التغيير و الاقتباس و هو يعلم أنه سيجد مقاومة كبيرة في سبيل هذا الاقتباس و كثير من الناس قتلوا أو

عذبوا أو قدموا للمحاكمة لأنهم نقلوا فكرة أو اختراع من جماعة أخرى فالعبقرية لازمة للنقل كما أنها لازمة للاختراع في ميدان الثقافة .

ملاحظة أخيرة أنه بالرغم من أننا قلنا أن العبقرية الفردية ضرورة في النمو الثقافي فإن الجماعة لها أثر كبير في النمو الثقافي و ذلك لأن المخترع مهما كان عبقريا فإنه لن يخترع شيئا من لا شئ و إذا حللنا كل اختراع ثقافي وجدناه يرجع إلى عناصر سابقة موجودة في ثقافة الجماعة فهو أولا و آخرا استخدم ثقافة الجماعة ليحدث اختراعا . و أي ابتكار في حقيقته ليس خلقا جديدا و إنما هو إدراك علاقات جديدة بين عناصر قديمة معروفة فالعجلة قديمة و فكرة المركبة قديمة و فكرة جر المركبة بقوة قديمة و قوة البخار موجودة و كل ما عمله مخترع القاطرة أنه أدرك هذه العلاقات فهو ابن جماعة و هو مدين لها بمقدار . إن اختراع من الاختراعات مهما عظم و كبرت فائدته لا يمكن أن يستقر إذا لم تشجع الجماعة ذلك الفرد العبقري و كثيرا من الجماعات قتلت كثيرا من مخترعيها و بذلك قضت على مخترعاتهم . فتشجيع الجماعة للفرد العبقري دين آخر في عنق العبقري للجماعة . و أي اختراع ليس له قيمة إلا إذا قبلته الجماعة و تبنته و أدخلته في مناهج المدارس و قبل الآباء أن يعلموه للأبناء و كل هذا يؤكد الصفة الاجتماعية للثقافة . فالجماعة هي المسئولة عن ثقافتها أولا و أخرا . ثقافة الجماعة مقدسة بالنسبة لها ولا نقصد بأنها مقدسة أنها آتية من عالم الغيب أو أنها متصلة بالدين و إنما تعنى قداسة الثقافة أنها حيوية بالنسبة للجماعة و أن حياة الجماعة متصلة بها. و أن أي رقي أو نهوض فيها إنما هو نهوض للجماعة . فإذا كانت حياة الجماعة و مستقبل الجماعة و سمعة الجماعة متصلة بالثقافة فإن هذه الأهمية هي التي تكون مفهوم القداسة الثقافية . و هذا المفهوم لا يتعارض إطلاقا مع أن الثقافة بشرية وإنسانية ومن صنع الناس و من هذا نستطيع الوصول إلى المعنى الدارج لمقدسات الجماعة . فمقدسات الجماعة هي ثقافتها مع عدم الخلط بين الثقافة و بين الدين .

تحليل الثقافة .

و قد يكون هناك تعارض و تناقض بين كلمة تحليل وكلمة ثقافة و ذلك لأننا قلنا فيما قبل أن الثقافة مركب واحد متكامل لا يمكن فصل بعضه عن سائره **و هو مركب على معنيين هما :**

المعنى الأول : أن كل عنصر من عناصر الثقافة مهما صغر و قل إنما هو خلاصة عدد كبير من الخبرات و عدد كبير من الحلول التي أتى بعضها فوق بعض و تفاعل بعضها مع بعض بحيث أن كل خبرة عدلت الخبرة السابقة لها و بذلك يكون كل عنصر من عناصر الثقافة هو كل فكري متطور مر في سلسلة طويلة من التاريخ الاجتماعي و من التطور الاجتماعي . فإذا نظرنا إلى الطائرة على أنها عنصر من عناصر الثقافة الحديثة فلابد أن نعرف أنها مبنية على فكرة العجلة . و فكرة العجلة موجودة منذ آلاف السنين ثم مركبة تدفع بالخيول ثم بالبخار أو الكهرباء ثم تطورت إلى نظرية علمية جديدة لتجر المركبة في الجو و كذلك كل فكرة و كل اختراع تراكمت عليه الخبرات .

المعنى الثاني : لتركيب الثقافة أن كل جوانبها من مادية و معرفية و معنوية كلها تشكل كلا واحدا و مركبا واحدا بحيث أنه يستحيل الفصل بين الجانب المعنوي أو الخلقي أو الروحي من الثقافة فالمذهب الاشتراكي بكل ما ينطوي عليه من فكرة العدالة و التصنيع و زيادة الدخل و تدخل الدولة باسم الشعب كل ذلك لا يمكن فصله عن عصر العلوم .

و إذا أردنا أن نفصل بين النظرية الاشتراكية و عصر العلوم و الثورة الصناعية وجدنا صعوبة لأن القوانين العمالية والضرائب و نظم الملكية أتى نتيجة الإنتاج الكبير نتيجة تقدم الصناعة و الاختراع . فإذا اعتبرنا أن النظرية الاشتراكية نظرية خلقية هي المساواة و العدالة فلا يمكن كذلك الفصل بين هذه القيم و المظهر المادي من تقدم العلوم و الصناعات . وكذلك إذا أردنا أن نفصل نظام الرق عن

وسائل الإنتاج الموجودة في ذلك الوقت لما استطعنا ذلك . فنظام الملكية الذي يقبل الرق إنما هو مرتبط بنظام اقتصادي معين و حياة اقتصادية معينة تقوم على نوع معين من وسائل الإنتاج و أسس التوزيع و كذلك كل القيم و المثل إنما هي منبعثة من ظروف مادية معينة و مستوى فكري معين لا يمكن أن نفصله عنهما . و هذا هو المعنى الثاني لقولنا أن الثقافة مركب فكل جوانبها مرتبطة متصلة لا يمكن فصلها بعضها عن بعضها الآخر . و من هنا يأتي التناقض في قولنا أن الثقافة يمكن أن تحلل لأن الثقافة كل متكامل و اليوم الذي تتحلل فيه الثقافة تزول لأن ارتباط الثقافة بنفسها هو سبب قوتها . و على ذلك فلابد أن يكون هناك مفهوم ضيق لكلمة " تحليل " عندما نقول تحليل الثقافة .

معنى التحليل هو أنه طريقة لتصور هذه الثقافة و طريقة لفهمها . فمن المعروف أن المركبات معقدة و أن المركبات المعقدة لا يسهل فهمها بالنظرة السطحية أو بالمعالجة العابرة و من أصعب الأمور أن يوجد الإنسان أمام مركب معقد كالثقافة أو ثقافة جماعة معينة فيستطيع أن يفهمه بجوانبه المختلفة و تبرير كل عنصر من كل هذه العناصر . و على ذلك فإن الطريقة العقلية الطبيعية لفهم أي مركب إنما هي طريقة التحليل . و الثقافة كل مركب لا يمكن أن يحلل كما قلنا لأن التحليل هو فصل بعضها عن بعض و ليس هذا تفسير في حالة الثقافة و إلا أمكننا خلق ثقافات جديدة من عناصر نشكلها نحن و نكونها على هوانا . و على ذلك فطريقة التحليل في حالة المركب الثقافي إنما هو مجرد وسيلة عقلية يصطنعها الإنسان لينظر إلى جانب واحد في وقت واحد و بذلك فإن كل تحليل للثقافة هو تصور لها في عقل باحث معين يصل إليه عن طريق تركيزه للفكر على جانب واحد من الثقافة و صرفه مؤقتا عن الجوانب الأخرى اللازمة له .

و على ذلك فكل تحليل نقوله للثقافة إنما هو مجرد تسمية لنوع من التصور الفكري نمارسه على ثقافة من الثقافات و على ذلك يمكن أن يكون للثقافة أكثر من طريقة واحدة للتحليل فيمكن مثلا أن نتصور بطريقة ما تحليل الثقافة إلى جوانب مادية تشبه الآلات و الأدوات و العدد و الحيل المادية بكل أنواعها ثم جانب فكري الذي يجمع وسائل تناول هذا الجانب المادي السابق أي وسائل استخدام تلك الآلات

و العدد و الحيل و المادية . فهناك الآلة و هناك النظرية التي تقوم عليها الآلة و المهارات التي تدار بها الآلة . ففي تصور من تصورات الثقافة يمكن أن نحللها فكريا إلى هذين الجانبين : المادي و المعنوي .

و في تصور آخر من التصورات يمكن أن نتصور الجانب المادي من الثقافة و يشمل الآلات و الحقائق العلمية المتصلة بها ثم الجانب المعنوي أو الخلقي الذي يشمل مجموعة القوانين و القواعد الخلقية التي تضبط علاقات الناس في أثناء عملية الإنتاج الاجتماعي و الاقتصادي التي يستعملون فيها تلك الآلات المادية و الفكرية .

و من هذا نعرف أن كل محاولة لتحليل الثقافة إنما هي ظاهرة فكرية في عقل الباحث و ليست ظاهرة مادية تقع على الثقافة نفسها لأنها كل لا يتجزأ . و على هذا الأساس يمكن أن نذكر بعض التصورات التي تصورها بعض علماء علم الاجتماع و علم الانثربولوجيا في معالجتهم للثقافات المختلفة تيسيرا لعلاجها لا فصلا بين أجزائها . فمن هذه التصورات للثقافة التي يطلق عليا تجاوزا أنها تحاليل للثقافة هو ذلك التصور الذي يقسم الثقافة إلى أشياء تسمى عموميات و أشياء تسمى خصوصيات و أشياء تسمى متغيرات . فهذا تصور من التصورات التي لجأ إليها بعض العلماء لكي يسهل عليهم فهم الثقافة و معالجتها و تصويرها كتابة أي التأليف فيها و تحويل الثقافة كظاهرة اجتماعية إلى موضوع فكري . فالعموميات هي تلك العناصر التي يشترك فيها كل أفراد الجماعة فلا يختلف فرد أو مجموعة من الأفراد عن المشاركة في هذا الجانب و احترامه و مراعاته و كل فرد يشذ عن القاعدة فيما يخص هذه العموميات يعتبر مارقا خارجا عن الجماعة و كل قوة خارجية تمس شيئا من هذه العموميات تعتبر معتدية على الجماعة و يكون هذا الاعتداء مبررا لوسائل المقاومة إلى درجة الحرب أحيانا . و كل الأوصاف السيئة التي وصف بها بعض الناس في التاريخ كالمروق و الخيانة و الإلحاد و الزندقة و الفوضوية و الهدم ليست إلا صفات أعطيت لأفراد حاولوا أن يخرجوا على عموميات الجماعة أو يحدثوا تغييرا فيها . فالخائن ليس إلا شخص يحاول أن يقلل من أهمية أهداف الجماعة . و الزنديق هو الذي يطعن المعتقدات الدينية للجماعة

و الفوضوي ليس إلا شخص يحاول أن يعتدي على النظم الاجتماعية و الاقتصادية المسلم بها من الجماعة . و الهدام هو الشخص الذي يحاول أن يهدم شيئا من عموميات الجماعة كدينها أو لغتها أو تنظيماتها الأساسية . و من هنا حقت المقاومة لكل إنسان يحاول أن يمس هذه العموميات . و من هنا يتضح أن جانب العموميات يمثل عمد الثقافة و الأشياء المهمة فيها . و عندما يقال مقدسات الجماعة فإن عموميات ثقافتها هي هذه المقدسات و أي تخلخل أو تغير فجائي في شئ من عموميات الثقافة يزعزع الثقافة كلها ويقوض الجماعة برمتها كأن يضعف الاعتقاد بين أفراد الجماعة في دينها أو يرتد بعض الأفراد عن هذا الدين أو تترك الجماعة لغتها أو حتى تغير شكل الحروف التي تكتب بها اللغة فأقل ضرر أن تزول سيطرة الجماعة على تراثها الفكري الماضي .

و نستطيع أن نحلل التراث الثقافي إلى أنواع متعددة فهناك أولا المظاهر المادية بما تشتمل عليه من الآلات و وسائل المواصلات و وسائل السيطرة على البيئة و هناك أيضا المظاهر السلوكية للثقافة و هي العادات و التقاليد و آداب السلوك و طرق التعامل بين أفراد الجماعة و نستطيع أن نقول أنها عبارة عن الوسائل التي تستخدم بها أفراد الجماعة ا لظاهرة المادية للثقافة التي يعيشون فيها . و هناك جانب ثالث يتمثل في الظاهرة الاجتماعية و هي التنظيمات التي تدير بها الجماعة شئونها و ما توصلت إليه الجماعة من عرف و تقاليد تحكم العلاقات بين أفرادها مثال ذلك الأسرة و نظام الحكم و النقابات و الجمعيات و كل هذه أشياء تعارفت عليها الجماعة لكي تشيع نوعا من النظام في حياتها الاجتماعية . و بجانب هذه المظاهر الثلاثة لثقافة الجماعة نستطيع أن نميز جانبا آخرا أو مظهرا رابعا في ثقافة الجماعة و هو الجانب الرمزي في الثقافة فاللغة على سبيل المثال و العلاقات الحسابية و الرسوم و وسائل التعبير المختلفة كل هذه مسائل رمزية لجأ إليها الإنسان لكي يستطيع أن يكون أكثر تحكما في بيئته و لكي يستطيع أيضا أن يحتفظ بما توصل إليه من تراث اجتماعي في سياق نضاله الطويل مع عناصر البيئة التي يعيش فيها . و هناك أيضا مظهر خامس من مظاهر الثقافة و هو الجانب السيكولوجي أو الفني كالمعتقدات الدينية و الأوهام و الأساطير و المثل العليا التي تسيطر على حياة الجماعة فكل هذه نواحي أو جوانب تكمل ذلك التراث الاجتماعي

و هناك بالإضافة إلى هذا كله جانب ا لفكر المنظم و يشتمل على العلوم و المعارف و جميع المعلومات المنظمة مما نطلق عليه علما أو أدبا أو فلسفة و هي بدورها تشكل جانبا من التراث الثقافي أو من جوانب الثقافة .

تحليل الثقافة إلى عناصر مختلفة يساعد على فهمها . ناقش موضحا أهم تلك العناصر الثقافية .

و يلاحظ أن الثقافة دائما متغيرة و إذا كنا نقول أن جماعة من الجماعات لا تتغير أو أن ثقافة من الثقافات قد ظلت بالشكل الذي هي عليه قرونا طويلة فإن ذلك في أغلب الأحيان يكون على سبيل المجاز و التعميم لأن الثقافة لا تبقى أبدا بصورة تامة و دقيقة بشكلها نفسه طوال هذه الفترة من الزمان فالثقافة لابد أن تتغير و لا بد أن يطرأ عليها أكثر من تطوير طفيف أو يكون أحيانا واضحا بارزا ملموسا فنستطيع أن نتنبه له و أن نواجهه و أن نرصده على أقل تقدير يكون في أحيان أخرى بسيطا خفيا غير ملموس و بالتالي يصعب علينا رصده و تقديره ليستوي في هذا الناس الذين يعيشون هذه الثقافة و المؤرخ الذي يحكم عليها ربما بعد زوالها بمئات السنين . و إذا كانت حياة الناس في العصور الأولى تسير بطيئة رتيبة لا يطرأ عليها التغير بشكل واضح ملموس فإن ذلك لا يمنع أنه قد حدث فيها تغييرات كثيرة إلا أن الصفة العامة المميزة لحياة الجماعات في العصور البدائية و في العصور القديمة كانت هي الاستمرار و عدم التغير أو البطء فيه .

كان الآباء يعلمون أبناءهم وسائل حياتهم و عاداتهم و التقاليد التي يسيرون عليها و يبثون في أنفسهم احترام نفس الآلهة و الطرق التي يستطيعون بها أن يستحوذوا على الرب أو يدفعوا شره و كان الأبناء يقبلون هذه الحياة و يسيرون عليها و ساعد على ذلك أن البيئة الطبيعية و الاجتماعية كانت هادئة و كانت موارد الرزق على قلتها موفورة في متناول الإنسان و مع ذلك كله فإن إنسان العالم القديم قد مر بتغيرات رصدها المؤرخون بل و اتخذوا منها معالم يحددون بها الفرق بين

عصر و عصر أو بين ثقافة و ثقافة فأرخوا حياة الإنسان القديم بالعصر الحجري و باستخدام الحديد أو النحاس و غير ذلك من معالم التغير في حياة الإنسان القديم و بالتالي في ثقافته .

و ربما استمرت حياة الإنسان فترة طويلة في بعض المناطق دون أن يطرأ عليها هذا التغير الجوهري و بالتالي فإن حياة الإنسان و ثقافته تستمر في التغير و في التطور في منطقة معينة بينما تقف بعض المناطق الأخرى عن ركب التقدم و من هنا يحدث الاختلاف بين الثقافات . فإذا كان إنسان العالم القديم قد استطاع أن يكتشف الزراعة و أن يصنع مدينة مستقرة على ضفاف النيل فإن مثل هذا الحظ لم يكن من حظ غيره من الناس الذين عاشوا في العالم القديم . وقد استمر هذا النظر في التغير من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى و إن وجدت أيضا بعض المعالم و بعض العناصر التي كانت مقدمات لحضارة العصور الحديثة إلا أن حجر الزاوية في هذا التغير كان إدخال التكنولوجيا و العلم الطبيعي في مطلع العصور الحديثة و هو الأمر الذي دفع بالحضارة في ركب التغير دفعة قوية جعلتها أشبه بالطفرة بالنسبة لما حققه الإنسان في القرون الطويلة السابقة على هذا التغير الاجتماعي و من ناحية أخرى فإن مفهوم التغير قديما يختلف اختلافا واضحا عن مفهوم التغير في العصور الحديثة لأن الناس قديما كانوا يرون الحياة كلها من حولهم راكدة ساكنة تسير على ما كانت تسير عليه حياة الآباء و الأجداد و لم يلمسوا فيها تغيرا أو اختلافا واضحا بينما نرى نحن اليوم أن الحياة من حولنا لا تكاد تستقر و لا تثبت على حال و يشهد الجيل الواحد و ليس الأجيال المتعاقبة هذا التغير و الاختلاف في حياتهم و لقد سيطر على الفكر القديم المفهوم الذي كان يعتنقه أرسطو و أفلاطون عن التغير . و بقدر ما كان تأثير كل من أفلاطون و أرسطو على فكر العالم القديم و الوسيط بقدر ما كان هذا التأثير قويا كان الناس يعتنقون فكرتهما عن التغير .

و لقد كان أفلاطون يرى أن التغير الذي يطرأ على المجتمع إما أن يكون تغيرا تافها أشبه بما يعرض للناس في حياتهم اليومية من حوادث و إما أن يكون تغييرا كبيرا أو واضحا يمكن معرفته و التنبؤ به و لكنه يعزو هذا التغير لا إلى

الموقف الذي يميز الجماعات الرجعية في نظرتها للتغير إذ ترى أن العصور الماضية هي دائما أزهى العصور و أن حياة الأجيال السالفة أفضل من الأجيال التالية على الدوام . و هذه المواقف المختلفة من التغير الثقافي لا نريد أن نقف منها إلا عند موقف واحد هو موقف أصحاب نظرية الحضارة أو الاتجاه الدائري للحضارات الإنسانية و هو موقف اتخذه كثير من المؤرخين بصفة خاصة ، هذا الموقف الذي اتخذه ابن خلدون المؤرخ العربي المعروف و جيبرن و أيضا شبلنجر و توينبى ، كل هؤلاء المؤرخين الفلاسفة اتخذوا نفس الموقف من الثقافة الإنسانية و من حضارة المجتمعات المختلفة مع وجود اختلاف في نظرياتهم . فابن خلدون يرى أن الحضارة و عهد الدولة ينقسم إلى عدة أقسام : يبدأ فريق من الناس بانتزاع الملك و تأسيس دولة معينة ثم تدعيم هذا الملك و الاستئثار به إلا أنهم سرعان ما يبدأوا في الاتجاه نحو الترف و الخمول أما الأجيال التالية فإنها تنزع إلى المحاكاة و التقليد ثم الانهيار و التدهور ، و إذن فإن الحضارة الإنسانية و ثقافة الجماعة تمر بهذا الدور الذي يشبه إلى حد بعيد حياة الإنسان من ميلاده إلى وفاته إلا أن الثقافة لا تنتهي بهذه الوفاة و إنما تقوم على أكتافها ثقافة أخرى تابعة لدولة أخرى خاضعة لنفس هذا القانون و لنفس هذه التطورات فهي أشبه في تطورها بالدائرة و جيبون يقف أيضا موقفا مشابها فهو يرى أن روما اتسعت ثم أصابها الانهيار و لاحظ أيضا أن هذا الموقف ينطبق على حضارات غيرها من الأمم و أن عوامل التغير المختلفة لا تطرأ فجأة لتنهى حضارة معينة أو دولة معينة و لكنها تصاحبها من ميلادها إلى وفاتها .

أما شبلنجر فإنه و إن اختلف معهم بعض الاختلاف إلا أنه يتفق مع أبن خلدون و جيبون في نظرته إلى الحضارة و إلى تغيرها . فهي تبدأ زراعية و تتطور إلى التصنيع و إلى التعقيد في الحياة بعد أن كانت بسيطة و الحضارة الإنسانية بدأت في الشرق و انتقلت إلى الغرب و بالعودة مرة ثانية إلى حضارة الشرق و إلى مدنيتها . أما توينبيي فإنه بعد دراسته المستفيضة لتاريخ الحضارات الإنسانية خرج أيضا بنفس النتيجة التي وصل إليها من سبقوه من حيث الاتجاه إلى دورة الحضارة و أن الحضارات تتعاقب و تمر بنفس الطريق : تبدأ أولا بتأسيس هذه الحضارة و نموها و اتساعها ثم بأن تدب إليها عوامل الضعف و الانهيار و إذا

بهذه الحضارة التي كانت في وقت من الأوقات قوية متينة إذا بها تبدأ في التدهور و تتعرض لطغيان غيرها من الحضارات عليها حتى تسقط في النهاية و تحل مكانها حضارة جديدة تسلك نفس السبيل من حيث النشأة و الازدهار و السقوط و خلاصة هذا كله أن الحضارة الإنسانية و أن ثقافة جماعة من الجماعات لا تبقى على حالها و إنما هي متغيرة و التغير موجود فقد يكون بسيطا و قد يكون إلى أمام أو دائريا و لكنه موجود ملاحظ معترف به .

فالتغير إذن ظاهرة من أهم الظاهرات و يجب أن نفهم النظريات المختلفة التي تفسر ظاهرة التغير الثقافي . من أقدم هذه النظريات في التغير الاجتماعي نظرية العبقرية التي تقول أن التغير الذي يطرأ على حياة الجماعة من الناس إنما حدث لأن فردا عبقريا قد استطاع بجهده و باستغلاله لكافة العناصر التي تيسرت له أن يحدث تغيرا واضحا ملموسا في حياة جماعته فتاريخ الإنسان إذن هو تاريخ العباقرة من أفراد الجنس البشري و تاريخ أمة من الأمم هو عبارة عن تسجيل أعمال الأفذاذ من أبنائها أيا كانت صورة هذا البطل أو هذا النابغة فقد يكون قائدا عسكريا مثل الاسكندر أو نابليون و قد يكون نبيا و قد يكون مصلحا اجتماعيا و هي الفكرة التي نراها واضحة في كتابات المؤرخين القدماء الذين عرضوا لنا تاريخ الجماعات الإنسانية .

و هناك موقف آخر يختلف عن هذا الموقف في تعليل التغير الثقافي يتخذه أصحاب النظريات الحتمية و يسمى بالنظرية الحتمية أي تفسير السلوك الإنساني و التغير الذي يحدث فيه أو يطرأ عليه في ضوء عوامل بيئية خارجية مادية و بالتالي نستطيع أن نضم إلى أصحاب هذه النظريات حتى علماء النفس الذين يفسرون سلوك الإنسان على أساس قاعدة المثير و الاستجابة و إذا كانت البيئة تفسر في حياة الإنسان تفسيرا كبير ملحوظا إلا إننا لا نستطيع أن نقول بأن البيئة هي كل شئ في حياة الإنسان و أنها تسيطر عليه و تخضعه لأنواع الحتم البيئي الذي يسير بحياته في اتجاه معين مرسوم .

و من أصحاب هذه النظريات الحتمية في التغيير الثقافي و الاجتماعي هيجل و ماركس . ماركس مثلا فسر التغير الاجتماعي على أساس العوامل الاقتصادية و خرج بنظريته هذه في أعقاب الأحداث العنيفة التي خاضها الأوربيون أيام الانقلاب الصناعي و ما تلاه من أحداث و لعل هذا هو السبب الذي جعل ماركس يتخذ هذا المذهب الحتمي الاقتصادي في تفسيره للتاريخ و التغير الاجتماعي . و يفسر ماركس هذا التغير بالتغير الذي يطرأ على الإنتاج و القوى الاقتصادية .. فكل حياة الإنسان و ثقافته ناتجة عن عوامل و علاقات اقتصادية و كل المنظمات الاجتماعية المختلفة : الأسرة و الجماعة و الدولة .. الخ كل هذه المنظمات تتأثر بالأساس الاقتصادي الذي تقوم عليه حياة الجماعة فإذا حدث تغير في قوى الإنسان المادية استلزم هذا تغير في الحياة الاجتماعية . و إذا كان أصحاب السلطة يرفضون التغير عادة و يقفون في اتجاه التغير الثقافي فلابد من قيام ثورة عنيفة لكي يحدث تغير تاريخي . فكل فترة من فترات التاريخ تتحدد بهذا الصراع الذي يقوم بين طبقات المجتمع المختلفة حتى نصل في النهاية إلى مرحلة لا يوجد فيها صراع لأن عوامل الصراع قد اختفت و لا تختفي هذه العوامل إلا باختفاء أسبابها بأن تتلاشى الطبقات الاجتماعية و الأسس التي قامت عليها و لن يحدث ذلك كله إلا بتحقيق الشيوعية و إلا بوجود المجتمع اللاطبقي و بالقضاء على الطبقتين الرأسمالية أولا و البرجوازية بعد ذلك .

فالتغير الاجتماعي كما يراه ماركس ضروري و حتمي و لن يحدث استقرار في حياة المجتمع إلا بالوصول إلى هذه المرحلة اللاطبقية أما قبل ذلك فإن كل مرحلة اجتماعية تؤدي إلى المرحلة التالية لها . و السؤال الآن لماذا يحدث التغير الثقافي و الاجتماعي ؟ و ما هي أسبابه ؟ و إذا كان هناك أكثر من رأي و تفسير فإن الباحثين ليسوا أقل اختلافا في بحث أسباب هذا التغير . و إذا كان منهم من يقول أن التغير يحدث في حياة المجتمعات البشرية نتيجة لعامل واحد فإن نظرتنا الحالية ترى أن ذلك أمر عسير و أن حياة الناس أكثر تعقدا من أن يفسر التغير فيها بسبب واحد . قد يحدث تغير نتيجة لما يطرأ على البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الناس من تغيير و اختلاف . و نستطيع أن نضرب على ذلك مثلا بحياة المصريين القدماء إذ كانوا يعيشون في عصور ما قبل التاريخ على الهضاب التي

تحيط بوادي النيل لأن العصر كانت أمطاره غزيرة و كانت المنطقة التي تكون الصحراء الشرقية و الغربية منطقة غابات و أعشاب يعيش فيها المصري على جمع الثمار و الصيد و القنص و إذا بالبيئة الطبيعية تتغير من حوله . فقل سقوط المطر و اختفت الغابات و زالت الأعشاب و لجأ الإنسان و الحيوان جميعا إلى وادي النيل و بدأ المصري يفكر في الاستقرار و يكون القرى و يلجأ إلى الزراعة و يغير من ثقافته و من حضارته . و قد يكون التغير نتيجة الهجرة و الانتقال من مكان إلى مكان فقبائل الهكسوس أو الرعاة التي أتت فاتحة غازية و التي كانت تعيش حياة قبلية في مواطنها الأصلية انتقلت إلى وادي النيل و استعبدت أهله و تغيرت حياتهم من التنقل إلى الاستقرار و مثل ذلك يمكن أن يقال عن المغول الذين تركوا أواسط آسيا و شرقها و نزحوا غربا و غير ذلك من الأمثلة في طوال التاريخ . و قد يحدث التغير نتيجة جهد بشري و لأن الإنسان قد استخدم ذكاءه و تفاعل مع بيئته فتوصل إلى اكتشاف أو اختراع أو أنه قد نقل عن غيره من الناس أو الجماعات اكتشافا أو اختراعا . قد يحدث التغير الثقافي و الاجتماعي لسبب من هذه الأسباب . و لكننا لا نستطيع أن نحصر التغير في سبب واحد .

ما أهم نظريات التغير الثقافي ؟ وما رأيك الخاص في تلك النظريات ؟

و إذا كان التغير حقيقة مقررة فإنه لا يحدث بسهولة و لا يحدث دون معارضة و نحن قد أشرنا من قبل إلى أنه ليس من السهل أن تغير الجماعة حياتها و تترك ثقافتها و تستبدل بها عناصر ثقافية جديدة .

و هناك أكثر من عامل يسبب معارضة هذا التغير و مقاومته مثل :

(أولا) تأثير الأجيال السابقة :

فالإنسان يتمسك بثقافته و يتمسك بهذا التراث الاجتماعي الذي خلفه له آباؤه و يصل به هذا التمسك إلى درجة التقديس و من ثم فإذا حدث تغير اجتماعي فإن تأثير الأجيال السابقة و الثقافة السابقة يستمر موجودا و يقاوم هذا التغير لأن الثقافة لا تستلم بسهولة .

(ثانيا) الجمود الثقافي أو القصور الذاتي :

الذي يوجد في الثقافة و تتمثل بالرضاء بالحياة الحاضرة و الخوف من التغير و مقاومة كل جديد حتى و لو كان شيئا مفيدا تعرف الجماعة أنه سوف ييسر عليها حياتها و يسهل معيشتها . و إن النظر في تاريخ المخترعات الإنسانية ليوضح هذه الحقيقة فقد قاومت الجماعات المختلفة استخدام القطار و العربة بحجج مختلفة فقاوموا استخدام القطار لأنهم لم يتصوروا أن جسم الإنسان يستطيع أن يتحمل سرعته و تخوفوا مما يمكن أن يحدث نتيجة لاستخدامه و قاوموا الطباعة لأنها من عمل الشيطان .

(ثالثا) المصالح الذاتية الشخصية :

إذ قد ترتبط مصلحة جماعة أو طبقة بالوضع الاجتماعي الموجود و بالتالي فإن أي تغيير يطرأ على هذه الثقافة و يغير من هذه الأوضاع يعتبر تهديدا لمصالح هذه الطبقة أو الجماعة و قد تعتقد الجماعة أيضا أن هذا التغير له فائدة في حياتهم إلا أنهم يستمرون في معارضته دفاعا عن مصالحهم الذاتية الشخصية .

(رابعا) العزلة الثقافية:

و قد تكون هذه العزلة مفروضة على الجماعة من الخارج و قد تكون عزلة تتمسك بها الجماعة لما تتصور أنه من مصلحتها . فمصر في العصر العثماني عاشت في عزلة ثقافية فرضها عليها العثمانيون حتى إذا واجهت تيار العصر الحديث بما فيه من تقدم و مخترعات كان البون شاسعا بين الثقافتين و مع ذلك فقد استمر المصريون أو غالبيتهم يريدون أن يتمسكوا بثقافتهم القديمة و يتركوا هذه الثقافة الغربية حتى ظهر أن هذه الثقافة الأوربية شئ ضروري و أنهم لن يستطيعوا أن يعيشوا أبد الدهر في عزلة عن العالم و أن عليهم إذا أرادوا الحفاظ على استقلالهم فإن عليهم أن يأخذوا بأساليب الحياة الأوربية . و الاتحاد السوفيتي قد فرض حول بلدانه ستارا حديديا عقب الثورة الروسية لأنه أراد داخل هذا الستار أن يحمي نفسه و أن يطور المجتمع إلى الحد الذي يستطيع فيه أن يكون مجتمعا متطورا و بالتالي يستطيع أن يخفف و أن ينزع هذا الستار الحديدي .

ما أهم العوامل التي تحول دون سرعة التغير الثقافي ؟

موقف الجماعات المختلفة من التغير الثقافي

نستطيع أن نقسم الجماعات إلى قسمين :

(أ) جماعات محافظة أو رجعية تقاوم التغير أو تكون أكثر مقاومة له عن غيرها من الجماعات . (ب) و جماعات أخرى تقدمية تقبل على التغير أو تكون أيسر في تقبلها له من غيرها من الجماعات . و عادة ما يلاحظ أن المجتمعات الزراعية تتسم بصفة الجمود و الرجعية و مقاومة التغير . بينما تكون المجتمعات التي تقوم حياتها على التجارة أو الصناعة أكبر قبولا للتغير من الجماعات الزراعية . و ثمة فرق بين الرجعية و المحافظة فرق في الدرجة لا في النوع فالرجعي لا يقبل التغير و لا يريده بدرجة أكبر من درجة تمسك المحافظ بثقافته القديمة و مقاومته للتغير و إذا كنا قد ميزنا بين درجتين من مقاومة التغير فإننا نميز أيضا بين درجتين من تقبله و هو الفرق بين حب التجديد و الفوضى . الفرد أو الجماعة التي تحب التجديد و تقبل عليه تقبل التغير في ثقافتها و لكن ليس بالقدر الذي يهدم ثقافتها القديمة تماما و إنما هي عادة ما تقبل التغيير في إطار هذه الثقافة القديمة و لكي يتم التكييف و التناسق بين ثقافتها القديمة و بين العوامل أو العناصر الجديدة التي تسبب التغير . أما الجماعات التي نسمها بصفة الفوضى فإنها تندفع إلى الجديد كلية و ربما تركت عناصر ثقافتها القديمة و أهملتها إهمالا تاما و هذا كله يصدق على الأفراد كما يصدق على الجماعات . و يتضح من هذا كله أنه لابد من إيجاد نوع من التوازن بين المحافظة و حب التغيير لأن الجماعة إذا تمسكت بثقافتها دون تغيير قتلت نفسها و إذا تركت ثقافتها و أقبلت على ثقافة جديدة مختلفة عنها وصلت إلى نفس المصير .

و هناك طريقان للتغير الثقافي :

أولا : طريق الثورة أو الطفرة . و ثانيا : طريق التطور الهادئ البطيء و ليس في مصلحة أي جماعة أن تأخذ في التغير الثقافي بالطفرة أو بالثورة لأن

ذلك عادة ما يهز ثقافتها و يضعف من تماسكها فيحدث هذا التطور السريع نتيجة لاختراع أو لاكتشاف و قد يحدث نتيجة لعمل قائد أو مصلح أو زعيم إلا أن على الجماعة بقدر الإمكان أن تقاوم هذا الطريق الثوري الذي يغير ثقافتها تماما كما أن عليها أن تقاوم الجمود في ثقافتها . إن طريق التطور البطيء الهادئ طريق مضمون النتائج و يحدث عادة دون أن تفقد الجماعة تماسكها و اتزانها و نستطيع أن نوضح هذين الموقفين من التغير الثقافي بمثالين :

المثال الأول : هو ما حدث في تركيا في مطلع القرن العشرين على يد مصطفى كمال آتاتورك الذي رأى هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى و انهيار الإمبراطورية العثمانية و أرجع ذلك إلى الجمود الذي أصاب الحياة في تركيا و ما وجد في الثقافة الإسلامية من تأخر و ضعف و قد بادر مصطفى كمال بهدم هذا التراث الثقافي و اتجه نحو الحضارة الغربية و أراد أن يخلع تركيا من جلدها الثقافي القديم و يلبسها ثقافة جديدة لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح لأنها قد حدثت طفرة في وقت لم تكن فيه تركيا على استعداد لهذا التطور المفاجئ السريع و لأنه لم يكن من مصلحة تركيا أن تنبذ ثقافتها القديمة كلية و تتجه إلى ثقافة جديدة .

و المثال الثاني : فهو حياة المصريين تحت الحكم العثماني و المملوكي فإذا كانت الحياة في مصر في هذه الفترة من مطلع القرن ١٦ إلى نهاية القرن ١٨ قد اتسمت بشئ فإنها قد اتسمت بالرجعية و الجمود و العزلة و التمسك بالثقافة القديمة و مقاومة التغير و كان المصريون في ذلك الوقت بطبيعاتهم المختلفة حاكمة و محكومة راضين عن الوضع الذي يعيشون فيه و كان هذا وضعهم عندما داهمتهم الحملة الفرنسية أواخر القرن ١٨ فقاوموها عسكريا و ثقافيا و لكن الثقافة المصرية في ذلك الوقت كانت من الضعف و من التأخر بحيث أصابها الفشل في الميدانين العسكري و الثقافي و أخذ المصريون ينظرون إلى الغربيين و مدنيتهم و حضارتهم و تبينوا الفارق الكبير بين الثقافتين و بدأت حركات الإصلاح و الدعوة إلى التغير و الأخذ بالحضارة الغربية نادى بذلك الشيخ حسن العطار و عبد الرحمن الجبرتي و رفاعة الطهطاوي بعد أن ذهب إلى باريس و عاش في فرنسا فترة طويلة .

و نحن نخرج من هذا كله بحقيقة هامة و هو أن التغير إذا كان لا ينبغي أن يتم فجأة فإنه ينبغي أيضا ألا نسرف في مقاومته . و هنا يتضح الدور الهام الذي تلعبه التربية و قيمة التربية كوسيلة لإحداث تغير في اتجاه اجتماعي مرسوم . و إذا كنا نستطيع أن نحدد العوامل التي تتحكم في التغير في عصرنا الحديث من تحرر الإنسان من التقاليد و إيمانه بالعمل و التفكير العلمي و الأخذ بالتكنولوجيا و ما ترتب على ذلك من ازدياد حجم الاكتشافات و المخترعات و ما أدى إليه من تعقيد في حياة الناس إلى الدرجة التي دعت بعض المفكرين لأن يدعوا إلى الرجوع إلى الحياة البدائية البسيطة . فإن أهمية الديمقراطية و نشأة القوميات المختلفة ليست بأقل شأنا في إحداث التغير من العاملين السابقين .

و يرتبط بفكرة التغير هذه نظرية أخرى شاعت في القرن العشرين بصفة خاصة و هي نظرية التخلف الثقافي و الاجتماعي . تلك الفكرة أو النظرية التي نادى بها وليم اجبرن في أوائل هذا القرن و هي فكرة أو نظرية شاعت بحيث أصبح مفهوم التخلف الثقافي مفهوما متداولا يستخدم في أشياء عديدة . و ساعد التغير الملموس في مدنيتنا الحديثة في القرن التاسع عشر و العشرين و الاضطرابات الاجتماعية و الأزمات المختلفة التي اتسمت بها المدنية الحديثة على أن يتقبل الناس مفهوم التخلف الاجتماعي لأنهم قد شاهدوا آثاره في حياتهم و في هذا التفكك و الانحلال الذي ظهر في المدنية الحديثة أو في بعض عناصرها استلزم ذلك أن تتغير باقي الجوانب بحيث تتوافق مع التغير الذي طرأ على ذلك العنصر أو الجانب من جوانب الثقافة . فإذا حدث تغير في الصناعة مثلا أدى إلى تغير في أساليب الإنتاج و وسائله ووجب أن يتغير النظام التعليمي الذي يعد أفرادا من المجتمع لكي يعملوا في هذا الجانب الاقتصادي فالصناعة تكون عنصرا ثقافيا مستقلا قد ترتب على تغيره تغير عنصر ثقافي تابع لهذا العنصر الثقافي الأول .

و يمضي و ليم اجبرن في شرح نظرية التخلف الثقافي فيقول إذا تغير جانب من الثقافة و استلزم ذلك تغير في جانب ثقافي آخر تابع له فإن التغير التابع يتأخر عادة و يستغرق وقتا أطول لإعادة التكيف و الانسجام بين عناصر الثقافة

المختلفة و هذا ما يعرف باسم التخلف الثقافي . هذا التخلف الثقافي يحدث شيئا من الاضطراب و التفكك في بنية الثقافة و على الجماعة أن تعمل على تلافيه . و يعلل اجبرن سبب التخلف الثقافي بقوله : " إن الثقافة المادية تكون جانبا كبيرا من تراثنا الثقافي . و استخدام هذه الثقافة يؤثر فيما يعرف بالثقافة التابعة أو المتكيفة و هي الجانب غير المادي من الثقافة الذي يتبع أو يرتبط مع الثقافة المادية فإذا تغير الجانب المادي من الثقافة أو بعض عناصره فإن ذلك يستلزم تغير الجانب التابع له من الثقافة حتى يستمر التكيف [illegible] نسجام بين عناصر الثقافة المختلفة و لكن ذلك لا يحدث عادة و إنما يحدث سوء تكيف ثقافي " .

إن الجانب المادي من الثقافة كما يقول اجبرن يتغير عادة بدرجة أسرع من الثقافة التابعة الأمر الذي يترتب عليه باستمرار أن يتخلف الجانب غير المادي عن الجانب المادي من الثقافة لأن التقدم في الجانب المادي أكبر و أسرع و لأن الجانب المادي يؤثر تأثيرا كبيرا في بقية جوانب الثقافة . و يدلل اجبرن على صحة كلامه بما وصلنا إليه في مدنيتنا الحديثة من تقدم مادي ضخم يتمثل في العديد من الاختراعات و الابتكارات و في تعقد حياتنا المادية في الوقت الذي لم نستطيع في نظم الحكم مثلا أن نصل إلى أكثر مما وصل إليه قدماء اليونان على سبيل المثال رغم الفترة الطويلة التي تفصل بيننا و بينهم و رغم الفارق الكبير بين الجانب المادي من ثقافتنا إذا قورن بالجانب المادي من الثقافة التي عاشها اليونان القدماء .

و إذا كان هذا التخلف الثقافي في أحيان كثيرة يستمر لفترة قصيرة فإن خطورته و تأثيره في المجتمع إنما يتضح إذا طالت مدته و زادت الهوة التي تفصل بين عناصر الثقافة المتقدمة و عناصرها المختلفة بحيث يستدعي الأمر في بعض الأحيان قيام ثورة يرأب بها هذا المجتمع هذا الصدع الذي طرأ على كيان الثقافة ثمة مثال تقليدي يقال في توضيح فكرة التخلف الثقافي بما حدث في أوربا أواخر القرن ١٨ و أوائل القرن ١٩ أيام الانقلاب الصناعي و مع أن الانقلاب الصناعي لم يكن أمرا مفاجئا و إنما سبقته مقدمات و إرهاصات كثيرة فإن الناس قد فوجئوا بنتائجه و لعل أهل هذه النتائج التي ترتبت على حدوث الانقلاب الصناعي في أوربا

أنه قد تكونت طبقة من أصحاب رؤوس الأموال تعمل على المحافظة على مصالحها و مقاومة أي تغير كما صاحب الانقلاب الصناعي منفعة قليلة للجماهير التي أخذت تترك الزراعة و الحرف اليدوية لتشتغل بالصناعة . و كان أن تكونت طبقة من العمال أخذت تحتل المكانة الدنيا بين طبقات المجتمع و لم تكن هذه الطبقة تملك شيئا إلا الأجر الذي تتقاضاه مقابل عملها اليدوي .

كما ترتب على قيام الانقلاب الصناعي تجمع العمال في أماكن محددة في مبان سيئة في المصانع و المنازل بحيث كانت الأسرة بأكملها تسكن حجرة واحدة و بحيث بلغ الأمر أن تكدس من السكان في مبان سكنية أضعاف العدد الذي كان يسكن قرية صغيرة من قرى هذا العصر و زادت حالة العمال سوءا و انتفي بينهم الشعور بالأمن كما تزايد عدد العمال الذين لم يكونوا قد بلغوا شيئا غير هذا العمل و الأجر الذي يتقاضونه كما أسرف أصحاب الأعمال في تشغيل الأطفال و النساء بأجور زهيدة و كان الأطفال يشتغلون ساعات طويلة قد تصل إلى أكثر من ١٦-١٨ ساعة يوميا عملا متواصلا و كنتيجة لما صاحب الانقلاب الصناعي من أزمات اقتصادية و تقلبات في أحوال المصانع المختلفة فقد حدثت بطالة بين صفوف العمال في الوقت الذي كانت أعدادهم فيه تزيد بدرجة كبيرة .

هذه أهم النتائج التي ترتبت على الانقلاب الصناعي في أوربا . و لكن هذا الانقلاب في الجانب المادي من الثقافة لم يصحبه تقدم آخر كان لابد من وجوده في عناصر الثقافة التابعة له و الذي يتمثل في علاقة العمال بأصحاب الأعمال و في حماية الدولة للعامل و تنظيمها لساعات العمل و شروطه و رعايتها الاجتماعية و الصحية له و لحفظها لحقوقه فيما يتعلق بأجره و موقفه من صاحب العمل بحيث تمنع استغلال صاحب العمل للعامل و لكن هذا كله قد تأخر و كما يقول اجبرن : " تأخر العامل التابع للثقافة في تطوره و تغيره عن العامل المستقل الذي يتمثل في تقدم الصناعة " . تلك هي فكرة التخلف الثقافي كما وضحها اجبرن في كتابه SOCIAL CHANGE و علماء الاجتماع يرون أن هذا التحليل للثقافة إلى جانبين : مادي و غير مادي تحليل مفتعل من حيث أن الثقافة كل واحد و أنها متكاملة لا يمكن الفصل بين مادياتها و معنوياتها بهذا الشكل و أيضا من حيث أنه

قد جعل السبق و التفوق دائما في جانب العناصر المادية من الثقافة و جعل التخلف و التأخر في جانب العناصر المعنوية أو العناصر المتكيفة على حد تعبيره . ثم يتساءل بعض هؤلاء الباحثين عن المعيار أو المعايير التي يمكن أن تتخذ لقياس هذا التقدم و التخلف في جوانب الثقافة المختلفة .

إن التخلف الثقافي ظاهرة أعمق في أسبابها و أكثر تعقيدا بحيث لا يمكن أن نفسرها في ضوء تقدم العناصر المادية على العناصر المعنوية . و يحدث هذا التخلف كأثر أو نتيجة لكثير من العوامل التي قد تأتي من الجهل بالتغير الذي يطرأ على بعض عناصر ثقافة المجتمع كما أن ذلك التخلف قد يزداد عمقا بحيث يصبح أكثر خطورة في حياة المجتمع إذا أخذت بعض فئات الجماعة تقاوم الجهود التي تبذل للتخفيف من حدة هذا التخلف . و ثمة أسباب متعددة تساعد على إيجاد هذا التخلف و تعمق من هذا الفاصل الذي قد يحدث بين أجزاء من عناصر الثقافة و الأجزاء الأخرى و لعل أول هذه العوامل النزعة المحافظة في الشخصية الإنسانية فكل مجتمع له قيمه الاجتماعية التي يتشربها الفرد و يؤمن بها بحيث يصل في النهاية إلى درجة التقديس لها و ذلك من خلال عملية التطبيع الاجتماعي التي يمر بها عضو الجماعة طفلا حتى يصبح في النهاية مواطنا في جماعته و تصبح هذه القيم الاجتماعية جزء من كيانه و بالتالي فإنه يعارض أي تغير يطرأ عليه و يرى أنه يهدم هذا التراث الثقافي الذي آمن به و عاش فيه فترة طويلة كما أن موقف الناس من التغير يختلف فالاختراع و الابتكار الذي يرى أفراد المجتمع أنه في مصلحتهم أو أنه يسهل عليهم حياتهم كأي تغير علمي تكنولوجي هذا التغير يسهل على الناس قبوله بدرجة تختلف كثيرا عن موقفهم من أي تغير آخر يحدث في أشياء لا يرى الناس العلاقة الواضحة بينه و بين مصلحتهم العامة أو أنه لا يرتبط مباشرة بواقع حياتهم اليومية .

و هناك عامل آخر من هذه العوامل التي قد تساعد على إيجاد التخلف الثقافي تتمثل في أثر المصالح الذاتية عند بعض الأشخاص مما يجعلهم يعارضون الجماعة في مواجهة إحداث أي تغيير يمكن أن يصل في النهاية إلى إزالة التخلف الثقافي حتى لا تضار مصالحهم الشخصية أو مصالح طبقتهم و بالتالي يؤثر موقف

هذا الفريق من أصحاب هذه المصالح الذاتية في تأخير إزالة التخلف الثقافي . فالتخلف الثقافي و التغير الثقافي لهما من الخطورة في حياة الجماعة ما يجعل معرفة أسبابها أمر ينبغي على الجماعة أن توجه إليه اهتمامها و في الواقع أن مشكلة التغير الثقافي و التخلف الثقافي هما مشكلتان من مشكلات التربية بقدر أكثر من كونهما مشكلتين من مشكلات التشريع و التقنين . فإن تشريع قانون ما لن يكون علاجا لظاهرة حدثت في ثقافة المجتمع دون أن تعمل أجهزة التربية المختلفة على إعداد أفراد المجتمع لتقبل هذا القانون و للإسهام في التغلب على التخلف الثقافي و على مواجهة التغير الثقافي .

ما المقصود بالتخلف الثقافي عند اجبرن ؟ وكيف تواجهه التربية في رأيك ؟

وظيفة التربية الثقافية

للتربية وظيفتان ثقافيتان :

(١) المحافظة على الثقافة .
(٢) تطوير هذه الثقافة .

(١) المحافظة على الثقافة :

سبق أن عرفنا أن تماسك المجتمع متوقف على استمرار ثقافته و بقائها فاليوم الذي تنمحي فيه ثقافة من صدور الناس و عقولهم هو اليوم الذي تتحول فيه أي جماعة بشرية إلى جماعة من السائمة . فكيان المجتمع ليس في الأفراد الآدميين الذي يكونون جيلا منه و لكنه في اضطراد الأجيال المتعاقبة . و اضطراد الأجيال المتعاقبة عملية ثقافية قبل أن تكون عملية بيولوجية لأن ترك الجيل الصاعد لثقافة الجيل السابق معناه انقطاع الجيل الماضي و لذلك فإن عملية المحافظة على الثقافة و استمرارها هو أول واجب على المدرسة بل إن تاريخ المدرسة بين أنها لم توجد كمؤسسة اجتماعية و كأداة ثقافية إلا بعد أن زاد حجم الثقافة و تعقدت و عبر عنها بالرموز و أصبح أفراد الأجيال الصاعدة لا يستطيعون امتلاك هذه الثقافة إلا إذا عرفوا أولا فك هذه الرموز و عن طريقها يحصلون على الثقافة و من ثم حفظت الثقافة في الكتب و أنشأت المدرسة لتعطي التلاميذ مفتاح هذه الثقافة . و مفتاح الثقافة التعبير اللغوي عنها بتعليم القراءة و الكتابة . و من قديم الزمان و المدرسة تقوم بوظيفة مزدوجة . فأصحاب المدرسة من المعلمين يرصدون كل جديد من الثقافة في كتبهم ثم يحفظون هذه الكتب للتلاميذ و بذلك ينقلونها من رموز الكتب إلى شخصيات تكون أفراد المواطنين . و مع ذلك فإن هذه المسئولية تتفاوت باختلاف عناصر الثقافة و من ثم تتفاوت بتفاوت مراحل التعليم . فمسئولية المدرسة بازاء العموميات لأنها هي كيان الجماعة و أساس المعيشة فيها و كلما

كان العنصر الثقافي أصيلا في الثقافة كانت مسئولية المدرسة كبيرة في ذلك فالدين مثلا و اللغة و التقاليد و آداب السلوك كلها عموميات ثقافية تتماسك الجماعة أو تتفكك بمقدار حظها من القوة أو الضعف و لذلك كانت مسئولية المدرسة عن هذه العموميات بالغة الخطورة و هذه هي فلسفة التعليم الابتدائي الإلزامي المجاني العام . فهذه المرحلة من التعليم وظيفتها الأساسية صيانة العموميات و تمليكها لكل فرد دون استثناء على اعتبار أن كل فرد أي كل طفل هو لبنة من بناء المجتمع و مواصفات هذه اللبنة أن تتماسك اجتماعيا و ثقافيا مع غيرها من اللبنات و وسيلة ذلك التماسك هو تملك عموميات الثقافة دون تحريف أو تغيير أو تطوير فهي عملية نقل أمينة للثقافة فإذا انتقلنا إلى مجال الخصوصيات فمن مسئولية المدرسة أيضا أن تحافظ عليها تنقلها إلى الأجيال الصاعدة لأن الخصوصيات هي مجموعة المعارف و المهارات التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية للجماعة و هذا يفسر انقسام المدرسة إلى تخصصات مختلفة بعد المرحلة الابتدائية على اعتبار أن كل نوع من المدارس يعلم نوعا من المهارات و نوعا من المعرفة .

و لو أن المدرسة قصرت في نقل الخصوصيات و المحافظة عليها لتدهورت الصناعات و المهن و الحرف و تأخرت الفنون و المعارف و من ثم فإن مهمة المحافظة و النقل من المسئوليات الثقافية للمدرسة و مع ذلك فإن المدرسة تستطيع أن تمارس بعض الحرية في المحافظة على الخصوصيات و نقلها و ذلك لأن هذه الخصوصيات قائمة على البحث العلمي و من ثم كان على المدرسة أن ترصد التقدم في مجال البحث العلمي و أن تطور تعليم الخصوصيات بما يتفق و آخر كلمة قالها العلم . و ما على المدرسة من بأس في أن تصحح ما عساه أن يكتشف لها من أخطاء في مجال الخصوصيات و مهاراتها .

أما المتغيرات فيجب أن تكون المدرسة فيها على حذر و يجب ألا تتقدم المدرسة ركب المتغيرات و إنما يجب عليها أن تتريث في هذه المتغيرات إلى أن تستقر و تقبل و يوافق المسئولون عنها في كل ميدان علمي و يرضون بضم هذه العناصر من المتغيرات إلى المركب الثقافي في ضوء ثبوت صلاحيتها و هنا فقط يكون من حق المدرسة أن تدخل المتغيرات في برامجها و إذا لم تصطنع المدرسة

هذه الأناة بازاء المتغيرات لانزلقت بتلاميذها في طريق البدع و الموضات و غير ذلك مما لا يحمد عقباه حتى و لو تمكن من أن يسود بعض الوقت . فعلى المدرسة مسئولية يمكن أن نصفها بالمحافظة وهي عكس التجديد و هذا حق لأن المحافظة في ميدان الثقافة معناه الاستقرار و الثبات و التماسك الاجتماعي . و وظيفة المحافظة على الثقافة و نقلها عبر الأجيال مهمة جدا و يكفي لإثبات ذلك أن أي عنصر ثقافي لا يدخل برنامج المدرسة لا يمكن أن يتأصل في الجماعة و هذا يفسر لنا تطور المناهج بتقدم الثقافة و ارتقاء المدنية لأن عنصر الثقافة الذي لا تتبناه المدرسة وبرامجها يسقط من الثقافة و يضيع و تضيع الجهود التي بذلت في اختراعه و استعارته .

(٢) تطوير الثقافة :

و قد سبق أن قلنا أن من أهداف أي جماعة أن تحقق لنفسها الرقي و رقي الجماعة وسيلته المحددة رقي الثقافة و تقدم المدنية و لذلك فإن المدرسة إذا لم تسهم في هذا الواجب تخلفت الثقافة و جمدت ***و تطوير المدرسة للثقافة يأتي من ناحيتين :***

١= رصد المستحدثات الثقافية الصحيحة المقبولة و تزويد التلاميذ بها .

٢= معالجة مشكلات الجماعة مع التلاميذ و مساعدتهم على أن يقوموا بواجبهم في حل هذه المشكلات كمواطنين .

أما عن ***الناحية الأولى*** فنجد أن المدرسة حريصة على أن يكون معلميها واقفون على التطور العلمي على قدر إمكانها و إمكانهم . على أن تعمل على أن يقوم بتأليف كتبها الدراسية أولئك الذي يستطيعون الوقوف على آخر تطورات العلم ليكون هذا الكتاب هاديا للتلاميذ و للمعلم على السواء . و بهذه الطريقة تساعد المدرسة على تطوير الثقافة عن طريق خفة الحركة في مسايرة التقدم العلمي . و مع ذلك فإن مسئولية المدرسة عن التطوير تتفاوت بتفاوت عناصر الثقافة و باختلاف مراحل التعليم . ففي المراحل الأولى من التعليم و هي مراحل

العموميات و في المواد المتعلقة بالعموميات في كل المراحل يكون من واجب المدرسة التريث في عملية التطوير و الأناة في مجاراة أصحابها خارجها . فإذا انتقلنا إلى الخصوصيات وجدنا أن المدرسة بعد المرحلة الابتدائية تتنوع اختصاصاتها و نجد أن من وظيفتها إيقاف التلاميذ على أحدث تطورات اختصاصاتها . أما وظيفة الجامعة فإننا نجد أن أبرز ما في هذه الوظيفة هو العمل على تطوير الثقافة و تحقيق رقيها و لذلك فإن جانب الاختراع و الابتكار سمة هامة من سمات التعليم الجامعي الجيد و بعبارة أخرى إذا كانت الوظيفة الأساسية للمدارس في التعليم العام هي المحافظة فإن وظيفة الجامعة الأساسية هي التطوير . و عادة ما ينعكس ما تحققه الجامعات في التطوير على برامج المراحل السابقة لها .

أما الوظيفة الثانية و هي وظيفة معالجة المشكلات فعلى المدرسة أن تحدث في تلاميذها الحساسية الاجتماعية أي الإحساس بجوانب المشكلة الثقافية ثم عليها أن تزودهم بوسائل حل هذه المشكلات و هنا تبرز مشكلة تربوية هامة و هي إلى أي حد تستطيع المدرسة أن تتقدم عملية التجديد و علاج المشكلات في الجامعة ؟ و الجواب على هذا أن المدرسة لا تستطيع إطلاقا أن تتقدم الجماعة أو تتقدم الرأي العام في التجديد الثقافي و في علاج المشكلات .

و معنى هذا أن المدرسة لا تستطيع أن تزود تلاميذها باتجاه ثقافي جديد إلا إذا وجدت الرأي العام في الجماعة قد سلم بهذا الاتجاه . و ليس من حق المدرسة أن تعتبر مشكلة إلا إذا رأت أن الرأي العام مسلم بأنها مشكلة . و من الواجب على المدرسة ألا تعلم التلاميذ شيئا لا تعتقد الجماعة فيه و لا تتبناه . فكل ما تعلمه المدرسة لتلاميذها يجب أن تتقيد فيه دائما بالإطار الثقافي المسلم به في الجماعة .

و الواجب الثاني بازاء هذه المشكلة التربوية هو ألا يفرض المدرس وجهة نظر معينة حتى و لا وجهة نظره هو على التلاميذ و إنما واجبه أن يوقف التلاميذ على كل الآراء المتعلقة بالمشكلة و بذلك نزودهم بأدوات تكوين الرأي ثم

نترك لهم حرية اختيار الرأي على أن نحاول أن نجنبهم الزلل في التفكير و القفز إلى الوصول إلى النتائج و هذا لن يعوق عملية التطوير في الجماعة و لن يعوق حل مشكلاتها لأن التلاميذ و هم في المدرسة ليسوا مواطنين عاملين و إنما هم مواطنون في دور الصناعة و التكوين و إلى أن يصبحوا مواطنين بالفعل و يطلب منهم المشاركة في حل مشكلات مجتمعاتهم و يكونون قد كونوا آراءهم في ضوء ما تزودهم به المدرسة من الحقائق و ما قد تستقر عليه قرار الجماعة بعد حين . كما أن المشكلات إما أن تكون قد حلت أو وضع لها حلول جديدة أو أصبحت الحلول الموضوعة غير صالحة لمعالجة المشكلات المترتبة عليها .

المدرسة أداة للمحافظة والتجديد الثقافي معا .

ناقش مبينا رأيك .

قراءات إضافية :

(١) : إبراهيم عصمت مطاوع : *أصول التربية* ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

(٢) : حامد عمار : *في بناء البشر ، دراسة في التغير الحضاري و الفكر التربوي* ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٣) : حسن حسين الببلاوي : *الإصلاح التربوي في العالم الثالث* ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(٤) : حسين سليمان قورة : *الأصول التربوية* ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٥) : سعد مرسي أحمد : *التربية و التقدم* ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٦) : عبد الرحمن النقيب ، صلاح مراد : *مقدمة في التربية و علم النفس* ، مرجع سابق .

(٧) : عبد الفتاح تركي : *المدرسة و بناء الإنسان* ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

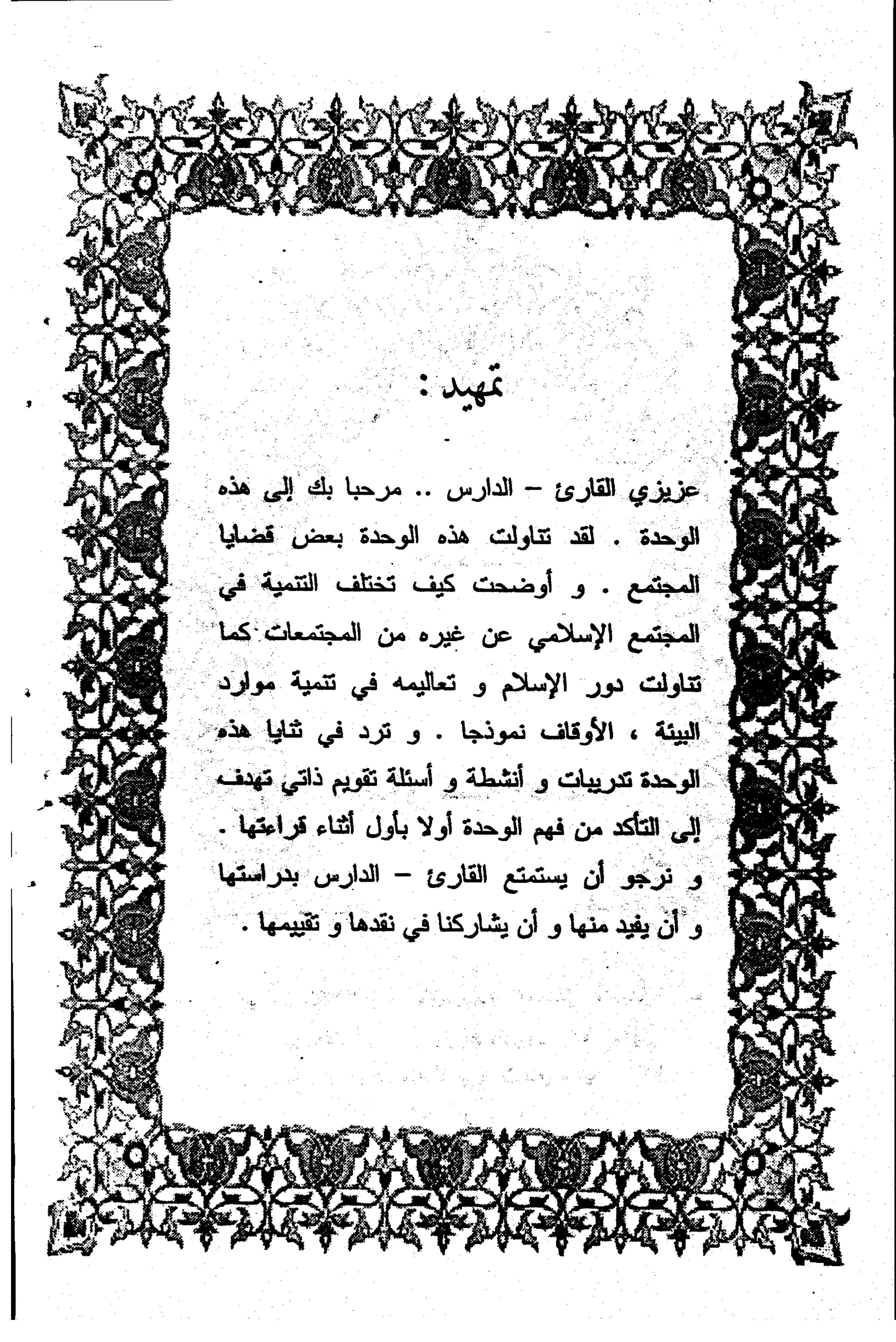
(٨) : محمد لبيب النجيحي : *الأسس الاجتماعية للتربية* ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٩) : محمد الهادي عفيفي : *في أصول التربية ، الأصول الثقافية للتربية* ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .



الوحدة الثالثة

التربية و تنمية المجتمع .



تمهيد :

عزيزي القارئ – الدارس .. مرحبا بك إلى هذه الوحدة . لقد تناولت هذه الوحدة بعض قضايا المجتمع . و أوضحت كيف تختلف التنمية في المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات كما تناولت دور الإسلام و تعاليمه في تنمية موارد البيئة ، الأوقاف نموذجا . و ترد في ثنايا هذه الوحدة تدريبات و أنشطة و أسئلة تقويم ذاتي تهدف إلى التأكد من فهم الوحدة أولا بأول أثناء قراءتها . و نرجو أن يستمتع القارئ – الدارس بدراستها و أن يفيد منها و أن يشاركنا في نقدها و تقييمها .

منهج التربية الإسلامية في التنمية :

يشهد عالمنا المعاصر تفاوتا اقتصاديا و سياسيا و اجتماعيا شديدا بين دوله المختلفة و خصوصا تلك الدول التي حققت تقدما هائلا في مجالات الاقتصاد و السياسة و الاجتماع كدول أوروبا و أمريكا الشمالية و الاتحاد السوفيتي و اليابان ، و تلك الدول المتخلفة في أفريقيا و آسيا و أمريكا اللاتينية التي ما تزال تبحث عن ذاتها و مكانتها في هذا العالم .

و لقد تدعم هذا التفاوت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نتيجة لانحسار الاستعمار و حصول كثير من دول العالم الثالث على استقلاله بحيث بات واضحا أن ثمة عالمين : عالم متقدم DEVELOPED COUNTRIES و آخر متخلف UNDERDEVELOPED COUNTRIES ثم ظهر مصطلح جديد و هو " الدول النامية " DEVELOPING CONTRIES للتعبير عن تلك الدول ذات المستوى الأدني من النمو الاقتصادي و الاجتماعي و التي لم تعد بعد من " الدول المتخلفة " و إن كانت لم تصل بعد أيضا إلى مستوى الدول المتقدمة . و قد شاع هذا المصطلح الجديد في الستينات من هذا القرن لما ينطوي عليه من مجاملة لأبناء تلك الدول التي استطاع أغلبها في ذلك العقد السادس من القرن العشرين أن يحصل على استقلاله الوطني و ربما انطوى كذلك على رغبة المشتغلين بهذا اللون من الدراسات تجنب إصابة أبناء تلك الدول بالحساسيات التي تنطوي عليها تلك التسميات .

و لعله مما ساعد على انتشار مصطلح " البلاد النامية " الأكثر تهذيبا اشتغال عدد من علماء تلك البلاد أنفسهم بقضايا التنمية في بلادهم و مشاركتهم بشكل ملحوظ في المؤتمرات و نشاط البحث الدولي حول هذه الموضوعات مما مكنهم من أن يرسخوا تلك التسمية الجديدة .

كذلك شهدت فترة الستينات من هذا القرن العشرين ظهور آلاف الكتب و المقالات و الدراسات التي تحاول تشخيص مشكلات الدول المتخلفة و النامية و تحاول تحديد معالم الطريق الذي يمكن أن تسلكه تلك الدول كي تحقق تقدمها و تلحق بدول العالم المتقدم . كما شاهدت تلك الفترة أيضا – الستينات من هذا القرن – اهتماما قويا على مستوى دولي يسعى إلى معاونة دول العالم الثالث على مواجهة مشكلاته الاجتماعية و الاقتصادية التي تحول دون انطلاقه نحو التنمية الشاملة . و كان من دلائل هذا الاهتمام العالمي بتلك المشكلة أن أطلقت الأمم المتحدة على تلك الفترة " حقبة التنمية " ثم ما لبثت أن جعلت من فترة السبعينات " حقبة أخرى للتنمية " .

و تكاد معظم الجهود و الكتابات التي عالجت مشكلة التخلف و التنمية على مستوى العالم أن تنطلق من عدة مسلمات يرى الباحث أن أهمها ما يلي :

أولا : تحديد مواصفات للدول المتقدمة مثل : متوسط الدخل الفردي المرتفع ، وقلة عدد السكان الذي يعملون بالزراعة و كثرة العاملين في مجال الصناعة ، و النسبة المئوية العالية للسكان الذين يعرفون القراءة و الكتابة و ينالون فرص التعليم المختلفة ، و ازدياد عدد سكان الحضر " المدن " ، و العدد المرتفع للأطباء و المستشفيات ، و المعدل العالي في توزيع الصحف و عدد أجهزة الراديو و السيارات بالنسبة لكل شخص .. الخ .

ثانيا : تحديد مواصفات للدول المتخلفة و النامية ، و هي غالبا عكس الصفات الأولى ، إذ تشمل مثلا ضعف التصنيع و اعتماد الدول المتخلفة على الزراعة ، و انخفاض مستوى دخل الفرد ، وسوء الحالة الصحية ، و هبوط مستوى التعليم ، و انتشار البطالة و الأمراض و سوء التغذية ، و نقص رؤوس الأموال و التبعية الاقتصادية للدول المتقدمة ، و ارتفاع نسبة الأمية .. الخ .

ثالثا : تحديد مواصفات للإنسان المعاصر الذي حقق التقدم في الدول الأولى ، و كيف أنه إنسان له خصائص مميزة مثل الاستعداد للخبرات الجديدة ، و تقبل التجديدات و التغير ، و ا لعقل المفتوح الليبرالي و التوجه الديمقراطي و المحافظة على الوقت و المواعيد و التوجه نحو التخطيط و الالتزام ، و الاعتقاد في التقدم و الإيمان بالعلم و التكنولوجية .. الخ و عكس ذلك إنسان الدول المتخلفة و النامية .

رابعا : أن سبيل الدول المتخلفة و النامية إلى التقدم هو أخذها بمفهوم " التنمية " بوصفه أداة أو وسيلة من خلالها يمكن للدول النامية أن تواجه عوامل التخلف بتبنيها لخصائص أو سمات المجتمعات المتقدمة و خصائص أو سمات " الإنسان المعاصر " . و التنمية كما عرفها السكرتير العام للأمم المتحدة في أحد تقاريره " تشمل النمو و التغير ، و تشمل النواحي الاقتصادية و الاجتماعية كما أنها ذات أبعاد كمية و كيفية " . و تلجأ الدول النامية إلى التخطيط بشتى تقسيماته كمنهج و أسلوب لتحقيق أهداف التنمية . إذ أن التخطيط بمفهومه العام هو رسم و تحديد المفردات التي ينبغي اتباعها في توجيه النشاط البشري اجتماعيا و اقتصاديا لتحقيق نتائج معينة في فترة زمنية محددة .

أي أن التخطيط هو أداة المجتمعات النامية إلى التنمية ، و التنمية هي ثمرة محاولة تلك الدول النامية للوصول إلى خصائص و سمات المجتمع المتقدم و خصائص و سمات الإنسان المعاصر التي سبق الحديث عنها .

و تلجأ الدول النامية غالبا إلى عدة وسائل منها تقليد الدول المتقدمة في الاتجاه إلى التصنيع الآلي الثقيل و لو على حساب الزراعة و على حساب توفير اليد العاملة لديها ، كذلك تفتح تلك الدول النامية أبوابها غالبا للاستثمارات الأجنبية و لقبول المساعدات و القروض الخارجية بهدف الإسراع بالنمو و إلى استيراد العلم و التكنولوجيا الحديثة بل و المؤسسات التعليمية أحيانا من الدول المتقدمة بل أن تلك

الدول النامية قد تستعير أحيانا بعض مظاهر الترف و الكماليات التي لا تتناسب أبدا مع اقتصاد تلك البلاد .

و لسنا هنا بصدد مناقشة السياسات المختلفة للنمو بصفة عامة و لا محاولة تقييم تلك السياسات فذلك يخرج عن هدف تلك المقالة كما أن له مراجعه و مصادره و رجاله الثقات ، و لكن الذي يهمنا هنا في تلك المقالة هو نقد تلك الأسس و المسلمات السابق ذكرها و التي تقوم عليها فكرة التنمية و خصوصا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية و محاولة تقديم بديل إسلامي للتنمية عن طريق التربية الإسلامية .

ما أهم معايير التقدم بالمعنى الغربي ؟ وما رأيك في تلك المعايير ؟

و يقوم هذا الخيار الإسلامي البديل عن عدة مسلمات تنقض المسلمات السابقة للتنمية لعل من أهمها :

١- أن النموذجين الرأسمالي و الشيوعي ليسا هما النموذجين الوحيدين في التنمية بحيث أن المجتمعات النامية لا يمكنها أن تنهض إلا من خلال اتباع أحد هذين النموذجين ، بل أن المجتمعات النامية لابد أن تكتشف بنفسها طريقها الخاص للتقدم . ذلك أن تجربة التقدم في البلاد الرأسمالية قد قامت في ظل استعمارها لغيرها من الشعوب ، و استغلال ثرواتها المادية و البشرية لصالحها ، و لم يعد هذا ممكنا و لا مرغوب فيه في واقعنا المعاصر . كذلك فإن تجربة التقدم في البلاد الشيوعية قد تمت في ظروف القهر و التضحية بأجيال الحاضر من أجل أجيال المستقبل ، و لم يعد هذا الأسلوب ملائما للشعوب التي طال حرمانها و طال تطلعها إلى حياة أفضل .

٢- أن الدول المتقدمة - الرأسمالية و الشيوعية - ما زالت حتى اليوم تستغلان الشعوب النامية من أجل الحفاظ على هذا التقدم الذي حققته . و أن " الاستثمارات " التي تستثمرها تلك الدول المتقدمة في الدول المتخلفة و النامية موجهة أساسا نحو هدف محدد هو الإبقاء على هذه الدول كمصدر للمواد الأولية و عدم إدخال صناعات جديدة يمكن أن تسهم في تحقيق التنمية الاقتصادية . كذلك فإن " قروضهم " إلى الدول النامية و المتخلفة غالبا ما تهدف إلى خدمة أغراض سياسية خالصة و غالبا ما تخصص لمجالات غير إنتاجية كالطرق و المواني و المطارات و المستشفيات .. الخ كما أنها " أي القروض " ذات فوائد عالية بالإضافة إلى الشروط القاسية المرتبطة بها . و فضلا عن ذلك نجد تفاوتا شاسعا بين صادرات الدول المتخلفة من المواد الأولية ووارداتها من السلع المصنعة من تلك الدول المتقدمة . أما " المساعدات الخارجية " فلا تتخذ فقط معنى اقتصاديا بل تتضمن دلالات سياسية بالغة الأهمية طالما أنها تكسب الدول المتلقية دور الخاضع في السياسة الداخلية بل و أحيانا دور الخاضع في السياسة الخارجية أيضا .

٣- أن النموذجين الرأسمالي و الشيوعي في التقدم ليسا المثل الأعلى الذي ينبغي على البشرية أن تحتذيه ، بل أن إنجازات هذين النموذجين لا ينبغي أن تخفي عنا وجهها القبيح متمثلا في الحربين العالميتين الأولى و الثانية ، و ذلك السباق المجنون نحو التسلح و هذا التحلل الخلقي و الاستهانة بالقيم و المثل العليا ، وحركات تمرد الشباب على السلطة و الأعراف و التقاليد ، و الانغماس الكامل في اللهو و المجون و السكر و الجنس و ارتفاع نسبة الجرائم و الانتحار و الأمراض النفسية .. الخ . و لعل أفضل ما نختتم به تلك الفقرة هو قول " فرانتز فانون " FRANTZ FANON نحن - شعوب العالم الثالث - بحاجة إلى مثال ، قدوة و لكن كثيرا منا يفتنه النموذج الأوروبي أكثر من أي نموذج آخر - و لقد رأينا كيف أن هذه المحاكاة ستقودنا إلى الإخفاق .. يجب ألا تغرينا بعد الآن ولا أن تفقدنا توازننا ، الإنجازات الأوربية .. أنني حين أبحث عن الإنسان في العالم الأوروبي لا أرى إلا سلسلة من الإنكارات للإنسان " و إلا جرائم من قتل الإنسان " . و ما يذكره فانون هنا عن " النموذج الأوروبي " يمكن أن ينسحب بالكامل على " النموذج الشيوعي " .

٤- أنه ذا جاز للدول النامية غير الإسلامية أن تتطلع إلى " النموذج الأوروبي " أو " النموذج الشيوعي " في التنمية محاولة أن تقلد أحدهما تقليدا " كاريكاتوريا " و فضلا عن فشل هذا التقليد " الكاريكاتوري " في حد ذاته ، فإن دول العالم الإسلامي بالذات مطالبة عقلا و شرعا أن تبتكر و أن تكتشف طريقها الإسلامي في التقدم الذي يخالف النموذجين الأوروبي و الشيوعي معا . و أنه لمن أجل أوروبا و سائر دول العالم الحر ، و من أجل روسيا و سائر دول العالم الشيوعي و من أجل العالم الإسلامي .. و من أجل الإنسانية فإن علينا – نحن المسلمين – أن نلبس جلدا إسلاميا و أن نتوصل إلى فكر إسلامي جديد .. و أن نحاول بناء إنسان مسلم معاصر ، و مجتمعات إسلامية حقيقية ، تحل المشكلات التي لم تستطع أوروبا و أمريكا و روسيا أن تأتي لها بحلول .. و تخلق الإنسان الجديد الذي عجزت غيرنا من الدول المتقدمة عن تحقيق الانتصار له في هذا العالم .

أن دول العالم الإسلامي تملك رصيدا هائلا من القوى البشرية و الثروات الطبيعية و لديها من التراث الثقافي و الحضاري ما يؤهلها بالفعل لتقديم نموذج جديد للتنمية في كافة المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . و لعل أهم ملامح هذا " النموذج الإسلامي " في التنمية أنه يقوم أصلا على تبني وجهة نظر إسلامية في الكون و الحياة و الإنسان ، و يستمد من الشريعة الإسلامية أهدافه و مثله و غاياته من الحياة . و داخل هذا الإطار الإسلامي العام ***يمكننا إبراز الملامح الرئيسية التالية :***

(أ) عقائد راسخة قوية ذات أثر في حياة الفرد و الجماعة ، تتمثل في الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و القضاء و القدر .

(ب) عبادات إسلامية تصل الإنسان بربه و تزيده قدرة على مواصلة معارك الإيمان مع أعداء الحق في الداخل و الخارج .

(ج) أخلاق إسلامية رائعة تسمو بالمسلم و تشرفه و تسمو بالمجتمع الإسلامي و تجعله النموذج الأخلاقي " القدوة " لغيره من المجتمعات .

(د) نظام سياسي يقوم على الاحتكام لشريعة الله حكومة و شعبا ، وعلى كرامة الفرد و الأخذ بمبادئ العدل و الشورى الإسلامية .

(هـ) نظام في العلاقات الدولية يقوم على احترام حقوق الإنسان و على عدم العدوان و التعاون في كل خير ، مع رفض إعطاء الذلة من أنفسنا أو التفريط في حقوقنا و دعوتنا .

(و) نظام اقتصادي يقوم على أن المال مال الله و أن البشر مستخلفون فيه ، و لذا فلابد من مراعاة مصادر الكسب و مصادر الإنفاق و إخراج الزكاة و تأدية حقوق الفقراء و التكافل بين أفراد المجتمع و استغلال كل مصادر الثروات في صالح الإسلام و المسلمين .

(ز) نظام اجتماعي يقوم على العدل و المساواة بين الأفراد بدون تفرقة على أساس من الجنس أو اللون أو الدين أو المركز الاجتماعي و الاقتصادي ، و يكون التأكيد على الجانب الأخلاقي و توفر عنصر التقوى و عدم خضوع الإنسان لأي كائن آخر ، أنسانا أو آلة أو طبيعة .

(ح) نظام تعليمي يقوم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة ، و أن العلم هو الطريق الموصل إلى الله .. و إلى هداية الإنسان و سموه بحث يكون أهلا " لخلافة الله في أرضه " . و أن طلب العلم من المهد إلى اللحد . و سوف نتناول تلك النقطة فيما بعد بشيء من الإيجاز الذي تفرضه طبيعة هذا المقال . و يمكننا الحديث بجوار ذلك عن نظام إسلامي في الجندية ، و آخر في الإعلام

و التوجيه إلى غير ذلك من الملامح الذاتية التي ينبغي أن تميز المجتمعات الإسلامية و تصبح مثلها الأعلى في التنمية و التقدم .

ما أهم معايير التنمية في المجتمع الإسلامي ؟ وما رأيك في تلك المعايير ؟

و إذا كانت النظم المعاصرة تدرك أهمية التربية في تحقيق التنمية و تلجأ إلى ما يسمى بالتخطيط التربوي لتحقيق ما تحتاجه من قوى بشرية و لتحقيق قدر كبير من الوحدة الوطنية يمكنها من مواصلة طريق النمو فإن " التربية الإسلامية " في نظرنا ، و التربية الإسلامية بالذات هو أقدر أنواع التربيات ، بل أنها هي التربية الوحيدة التي يمكنها أن تحقق للمجتمعات الإسلامية المعنى الإسلامي للنمو .

و رغم غياب التربية الإسلامية الأصيلة عن مسرح واقعنا المعاصر بحيث غدت مصطلحا تاريخيا يلجأ الباحث فيها إلى كتب التاريخ و كتب التراث لكي يتبين ملامحها و معالمها . ورغم تلك الغيبة الطويلة للتربية الإسلامية و التي جعلتها تختلط في أذهان الباحثين و غير الباحثين ببعض أجزائها : كالتربية الدينية و التعليم الديني المتخصص لرجال الدعوة الإسلامية أو بعض مباحث الأخلاق و القيم إلا أن المعنى الحقيقي للتربية الإسلامية ما زال واضحا في بعض أبحاث الباحثين على أنها هذا النوع المتميز من التربية الذي ينتج لنا المواطن المسلم صاحب الرسالة و المنهج الواضح في شتى مجالات الحياة : عقائد ، و عبادات ، و أخلاق ، و نظم ، و الذي يسعى جاهدا للتمكين لهذا المنهج الإلهي في أرض الله الواسعة و من ثم فإن للتربية الإسلامية مفهوما واضحا ينبغي ألا يكون أقل وضوحا لدينا من مفهوم التربية الروسية أو التربية الأمريكية أو غيرها من التربيات .. و هي تربية لها ملامحها و سماتها و مميزاتها فهي تربية ذات فلسفة واضحة مستمدة من القرآن الكريم و السنة المطهرة ، و هي تربية

مستمرة مدى الحياة ، تشمل تعليم الصغار و تعليم الكبار .. التعليم في المؤسسات النظامية و التعليم في المؤسسات غير النظامية .. و هي تربية شاملة كاملة تربي الإنسان المتكامل جسدا و عقلا و روحا و وجدانا و لا تركز على جانب من تلك الجوانب و تهمل الأخرى كما تفعل غيرها من التربيات ، و هي مسئولية فردية و جماعية في نفس الوقت .. و هي ذات نظم إدارية و تمويلية سهلة مبسطة فيها كثير من الشورى و الديمقراطية و احترام شخصية العالم و المتعلم .. و هي تربية ارتبط فيها القول بالعمل و النظرية بالتطبيق و هي تربية تقوم على الانفتاح و الأصالة .. و هي تربية لا تتبع أطرا محددة لا من حيث الزمان و لا من حيث المكان و لا من حيث المناهج ، وهي لا تعتمد على التلقين كغيرها من التربيات بل اعتمدت التثقيف الذاتي و الرحلة في طلب العلم و النقاش و الحوار .. و هي تربية لا تعتمد على الامتحانات بل على قدرة الطالب على الدرس و الاستيعاب . ثم أنها تربية توفر فيها عنصر القدوة الحسنة و الاهتمام بالتربية الخلقية .

تلك هي التربية الإسلامية التي أنتجت الحضارة الإسلامية الزاهرة بعلومها المتعددة و فنونها الإنسانية المتميزة و في تصور الباحث أن التربية الإسلامية بهذا المعنى السابق و بتلك الملامح و السمات هي سبيل المجتمعات الإسلامية للنمو في عالم اليوم كما كانت سبب تقدمه و نهوضه و ريادته في عالم الأمس . و هذا تصور مبدئي يحتاج إلى مزيد من البحث و الدراسة لإثباته قبل ذيوعه و انتشاره و تطبيقه أو نقده و مهاجمته و استبعاده .

التربية الإسلامية هي أداة التنمية الإسلامية المنشودة . ناقش .

دور الإسلام و تعاليمه

في

تنمية موارد البيئة و المحافظة عليها .

تواجه دول العالم مشكلات بيئية متعددة تتزايد باستمرار حتى أصبحت تمثل خطورة حقيقية على مصير الكائنات الحية بما فيها الإنسان نفسه ، و تقسم تلك المشكلات التي تهدد موارد البيئة إلى :

(أ) مشكلات البيئة الطبيعية كالتلوث : تلوث الهواء و الماء و التراب من آثار النفايات التي يلقيها الإنسان في كل مكان بأشكالها المتعددة الغازية أو الصلبة أو السائلة أو النصف صلبة مما يهدد تلك الموارد الطبيعية بالفساد ، يضاف إلى ذلك الاستغلال غير الرشيد لتلك الموارد المائية و المعدنية و اللامعدنية و الحيوانية و النباتية بحيث يكون هناك إسراف و تبديد لتلك الموارد ، مما يهدد مستقبل الإنسان على ظهر تلك الأرض . فالموارد الطبيعية مهددة إما بالتلوث أو بالإسراف و التبذير في استخدامها .

(ب) مشكلات البيئة الاجتماعية : لقد صاحب هذا التدهور الواضح للبيئة الطبيعية تدهور مماثل للبيئة الاجتماعية في كل من المجتمعات الصناعية و النامية على السواء . و تمثل ذلك في تلك التوترات و الاضطرابات التي تسود العالم كله بدرجات مختلفة نتيجة التفكك الأسري و الجماعي ، و ضعف المؤسسات الوطنية و العالمية و عجزها عن إيجاد بيئة نامية نموا متكافئا من الناحية الاقتصادية و الاجتماعية في نفس الوقت .

مما يهدد معظم المجتمعات المتقدمة و النامية على السواء بما يسمى (التنمية غير المتكافئة) .

إزاء تلك المخاطر المحدقة بالإنسان و البيئة في آن واحد ، كثرت في الأعوام الأخيرة اللقاءات و المؤتمرات القومية و العالمية وورش العمل على مستوى دول العالم كله مما يطول هنا أن نعرض له و لأهم ما وصلت إليه من قرارات و توصيات في مجال تنمية البيئة و المحافظة عليها . و لقد كان أول هذه المؤتمرات على المستوى العالمي مؤتمر نيفادا عام ١٩٧٠ و مؤتمر سويسرا عام ١٩٧١ و اجتماع فنلندا العالمي عام ١٩٧١ ، ثم مؤتمر استكهولم عام ١٩٧٢ ، كما كان أولها على المستوى القومي الحلقة الدراسية بالخرطوم عام ١٩٧٢ و على المستوى المحلي مؤتمر المعلمين بالقاهرة عام ١٩٧١ ، ثم تتابعت المؤتمرات و الندوات و ا لحلقات الدراسية و البحوث الخاصة بالتربية البيئية و تنمية الموارد و المحافظة عليها .

ما أهم مشكلات البيئة الطبيعية والاجتماعية في رأيك ؟

و بالرغم من هذا الاهتمام البادي بتنمية البيئة و المحافظة عليها ما زالت البحوث التي تركز على العامل العقائدي في الموضوع تعاني نوعا من القصور رغم أن العامل العقائدي يمكن أن يكون من أهم العوامل و أقواها فاعلية في هذا الموضوع و خاصة ما يتصل بالإسلام و تعاليمه . فقد حوت الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية على الكثير من المبادئ و الموجهات التي تصلح كموجه لتنمية البيئة و المحافظة علها من ذلك ما يلي :

١- تعميق الشعور بقداسة المسئولة الملقاة على كاهل الإنسان و التي لا مناص له من القيام بتبعاتها ، و هي مسئولية استخلاف الله للإنسان لكي يعمر الأرض و يحمل أمانة التعمير و التحضر بإرادة الله خالق هذا الكون :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(البقرة : ٣٠) و تقتضي تلك المسئولية عدم الإفساد في الأرض من ناحية و ضرورة الإصلاح و العمران من ناحية أخرى .

٢- التذكير الدائم بمراقبة الله أعمال و أفعال العباد و بمحاسبتهم عليها ويدخل في ذلك أعماله و أفعاله تجاه البيئة بعناصرها المختلفة :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

(الزلزلة : ٧،٨) و قوله تعالي في (سورة إبراهيم : ٤٢) :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

و لاشك أن تلك المراقبة سوف تمنع الإنسان من إفساد كثير من موارد البيئة .

٣- الدعوى إلى العمل و تعمير الأرض و إحيائها ، يقول الله تعالي :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

(الملك : ١٥) و قال الرسول صلى الله عليه و سلم : " التمسوا الرزق في خبايا الأرض " ، و قال صلى الله عليه و سلم : " من كانت له أرض ثم تركها سنين فلم يعمرها ثم عمرها قوم آخرون ، فهم أحق بها " .

٤- و في وجوب رعاية الثروة الحيوانية يقول الله تعالى :

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

(طه : ٥٤) بل أن الرحمة بالحيوان تدخل صاحبها الجنة : " بينما رجل يمشي بطريق اشتد به العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب منها ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث الثرى من العطش ، فقال لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسك بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله فغفر له ، قيل يا رسول الله ، و هل لنا في البهائم من أجر ، فقال في كل ذات كبد رطبة أجر " ، و لذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استعمال القسوة مع الحيوانات ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ، و لم تدعها تأكل خشاش الأرض حتى ماتت " ، و في عدم الإساءة إلى الحيوان و إيذائه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها " ، و في عدم استخدام الحيوان في غير ما خلقه له ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا " . و يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم : " الإبل عز لأهلها و الغنم بركة ، و الخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة " .

٥- و في وجوب رعاية الثروة النباتية يقول الله تعالى :

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

(سورة يس : ٣٤-٣٥) و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "من كانت له أرض فليزرعها" . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من غرس غرسا لم يأكل منه آدمي و لا خلق من خلق الله إلا كان له صدقة " . كما أوجب الإسلام على الإنسان أن يستمر في ممارسة الزراعة حتى

ولو قامت الساعة ، يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم : " إذا قامت الساعة و في يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها " . كذلك نهى الإسلام عن إهلاك النباتات و قطع الأشجار ، قال تعالى :

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

(البقرة : ٢٠٥) . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار " .

٦- و في وجوب رعاية الثروة المائية و ترشيد استهلاكها ، يقول الله تعالى :

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

(الأنبياء : ٣٠) و يقول الله تعالى في سورة (الحجر : ٢٢) :

وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

و يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسرف في الماء و إن كنت على نهر جار " ، و في الحث على عدم تلويث الماء يقول صلى الله عليه و سلم : " غطوا الإناء و أوكئوا السقاء " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يبلون أحدكم في الماء الراكد " .

٧- وفي وجوب المحافظة على الثروات المعدنية و اللامعدنية يقول تعالى :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

(الحديد : ٢٥) ، و قال تعالى في سورة (النحل : ١٤) :

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

و قال تعالى :

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾

(سورة الرحمن : ٢٢) ، و قال تعالي في سورة (الأنفال : ٦٠) :

وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

٨= وفي وجوب المحافظة على الموارد البشرية و الاهتمام بالإنسان عقلا و روحا و جسدا ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف " ، و قال صلى الله عليه وسلم : " تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد : الهرم " و في أهمية القوة العقلية و البدنية يقول الله تعالى :

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

(البقرة : ٢٤٧) .

٩- و في وجوب المحافظة على الهدوء و توفيره و عدم التلوث الضوضائي يقول الله تعالى :

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

(النحل : ٨٠) ، و قال الله تعالى في سورة (يونس : ٦٧) :

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

و قال الله تعالى :

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

(لقمان : ١٩) ، و عن السائب بن يزيد : " كنت قائما في المسجد فحصبني رجل : فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فأتني بهذين ، فجئته بهما ، قال : من أنتما أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، قال : لو كنتما من أهل بدر لأوجعتكما ، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه

و سلم . و هكذا فالإسلام حارب الضجة و دعا إلى الهدوء و السكينة في كل وقت و مكان .

١٠= في وجوب الاعتدال و عدم الإسراف في استهلاك الموارد يقول الله تعالى :

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

(الإسراء : ٢٩) ، و يقول الله تعالى في سورة (الأعراف : ٣١) :

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

و قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

(سورة الفرقان : ٦٧)

و بإيجاز فالإنسان سوف يسأل عن كيفية استغلاله لما آتاه الله من نعم ، قال الله تعالى في سورة (التكاثر : ٨) :

ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ

١١= في وجوب المحافظة على نظافة و جمال البيئة المحيطة ، يقول الله تعالى :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

(الحج : ٢٦) ، و يقول الرسول صلى الله عليه و سلم : " إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من القذر و البول و الخلاء ، إنما هي لقراءة القرآن و ذكر الله

و الصلاة " . و قال صلى الله عليه و سلم : " طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تطهر أفنيتها " . و قال تعالى :

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾

(سورة ق : ٦) ، و قال تعالى في (سورة الحجر : ١٦) :

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾

وقال تعالي في (سورة النحل : ٥-٨) :

وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

١٢- و في النهي عن إفساد البيئة و إتلاف مواردها الطبيعية يقول الله تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة البقرة : ٢٠٤-٢٠٥) ، وقال الله تعالى في سورة (الأعراف : ٥٦) :

وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

و أخيرا فإن تلك الأمة بما أنها مستخلفة فهي مطالبة بعمارة الأرض ، و صيانة ثرواتها كما أنها مطالبة بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في مجال صون البيئة و حماية مواردها عملا بقوله تعالى :

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

(سورة آل عمران : ١٠٤) .

مما سبق يتضح أن الإسلام و تعاليمه يمكن أن يكون أداة فعالة في خلق وعي بيئي عام يستهدف تنمية موارد البيئة و الحفاظ عليها . و تستطيع السلطات و الجماعات المهتمة بالبيئة القيام بحملة عقائدية لنشر الوعي البيئي مستخدمة سلاح العقيدة على أن تشرك في تلك الحملة العقائدية وزارة الإعلام بوسائلها المختلفة من إذاعة و تلفزيون و سينما و مسرح ، و وزارة التربية بطلابها و معلميها و مبانيها المتعددة ، و وزارة الأوقاف بمساجدها و علمائها ، و وزارة الصحة بأطبائها و معاونيهم ، و يكون الهدف من ذلك خلق وعي بيئي إسلامي يرقى بمصر و موارد مصر و إنسان مصر .

قال الله تعالى :

وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

كيف يمكن للعامل العقائدي أن نستخدم في حل مشكلات البيئة الطبيعية والاجتماعية ؟

دور الإسلام و تعاليمه

في

التخطيط للتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي .

تعاني المكتبة التربوية بصفة عامة من نقص في الدراسات التي تتناول التربية الصحية ، كما يغلب على الدراسات العلمية التي تتناول هذا الموضوع التجاهل للإسلام و تعاليمه . و الدراسة الحالية محاولة أولية للتخطيط للتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي من منظور إسلامي أصيل . و لقد اقتصر البحث على التخطيط للتربية الصحية في المدارس فقط لأن التربية الصحية في المراحل الدراسية تمتد لسنوات طويلة منذ دخول المدرسة لأول مرة و حتى دخول الجامعة . كذلك فإن كسب المعارف و المهارات و السلوك الصحي خلال تلك المرحلة الطويلة من العمل يكفي غالبا لرسوخ تلك المعارف و ا لمهارات السلوكية في مراحل العمر التالية . يضاف إلى ذلك كله أن المدارس بصفوفها المختلفة تضم نسبة عالية من عدد السكان في العالم الإسلامي . و الدراسة تحاول أن تخطط للتربية الإسلامية من منظور عقائدي إسلامي يرتكز على الإسلام و تعاليمه من ناحية ، وعلى الدراسات التربوية و الطبية من ناحية ثانية و على قراءة في التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية من ناحية ثالثة . و هي في ذلك كله تكتفي بالملامح العامة دون الاستقصاء و الإفاضة حتى تتناسب الدراسة زمانا و مكانا لما أعدت له . و لقد أظهرت الدراسة الطبيعة الخاصة للتربية الصحية كما ينبغي أن تكون في مدارسنا الإسلامية . فمن حيث الأهداف نجدها تهدف إلى تحقيق الصحة البدنية و الروحية معا . و من حيث الوسائل فإنها تستخدم " الأسلوب العقائدي " في تشكيل البيئة المدرسية ، و تقديم الخدمات المدرسية الصحية ، و بناء منهج التربية الصحية الذي يمتزج فيه الطب و الإيمان و التربية و الحضارة الإسلامية .

و المخطط التربوي المقترح ليس مجرد خيال علمي بل هو محاولة لقراءة فكر سلفنا الصالح في مجال التربية الصحية على ضوء حاجاتنا العصرية و علومنا الحديثة الطبية و التربوية ، وفي ظن الباحث أن سلفنا الصالح قد طبق هذا المخطط التربوي الصحي في داخل مؤسساتهم التربوية و خارجها فاستطاعوا بذلك أن يشيدوا حضارة قوية امتازت بقوة الجسم و العقل و الخلق . و كانت تلك الحضارة الإسلامية في تصورنا ثمرة طبيعية لفهم صحيح للإسلام و مبادئه في ميدان " الصحة البدنية " و " الصحة الروحية " و هذا ما تحاول تلك الدراسة أن تلقي الضوء عليه كمقدمات لدراسات تالية أكثر شمولا و عمقا يقوم بها الدارس أو غيره من الباحثين في ميدان التربية الصحية من منطلق عقائدي إسلامي .

مقدمة البحث :

يشهد عالمنا الإسلامي المعاصر بوادر يقظة عقلية و فكرية تتخذ من الإسلام و تعاليمه منطلقا أساسيا لها في شتى المجالات السياسية و الاقتصادية و التربوية و الطبية .. الخ . و يكفي أن نذكر هنا أسماء مؤسسات علمية ذات طابع عالمي إسلامي مثل : المركز العالمي للبحوث في الإقتصاد الإسلامي بجدة . و المركز العالمي للتعليم الإسلامي بمكة المكرمة . و المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة بالرباط . و مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية باستانبول . و منظمة الطب الإسلامي بالصفاة – الكويت . و غيرها كثير كرموز علمية لهذا الاتجاه العلمي الجديد ، و لعل الجهد العلمي الذي تقوم به تلك المؤسسات في الحاضر و المستقبل و كذا الجهود العلمية الفردية التي يقوم بها الباحثون المسلمون المعاصرون هنا و هناك في أرجاء العالم الإسلامي أن تزيد هذا الاتجاه عراقة و أصالة حتى يحدث أثره المطلوب في حياة الشعوب و الحكومات الإسلامية .

و البحث الحالي ينتمي إلى هذا النوع من البحوث إذ يقدم محاولة متواضعة و مختصرة لوضع خطوط عامة لكيفية استخدام الإسلام و تعاليمه في وضع

تصور للتربية الصحية المدرسية في العالم الإسلامي انطلاقا من المسلمتين التاليتين :

أولا : أن الإسلام يحتوي من المبادئ و التعاليم الصحية ما يكفي لكي يجعل الأمة الإسلامية هي الأمة الأولى في النظافة و التقدم الصحي إذا هي نفذت تلك التعاليم .

ثانيا : أن التربية الصحية المدرسية من أهم وسائل تحقيق الصحة العامة للمجتمع الإسلامي ككل و من هنا وجب الاهتمام بها تخطيطا و تنفيذا و متابعة .

و لعل تلك الدراسة الموجزة أن تكون بداية لدراسات أطول و أعمق في هذا الميدان التربوي الصحي الهام .

الهدف من الدراسة :

تتجاهل أغلب الدراسات التي تتناول التربية الصحية في دول العالم الإسلامي الدور الذي يمكن أن يسهم به الإسلام و تعاليمه في التخطيط للتربية الصحية في المدارس سواء عند دراسة أهداف التربية الصحية أو محتواها الدراسي أو كيفية تحقيق تلك الأهداف . و لعل هذا التجاهل لدور الإسلام و تعاليمه في التخطيط للتربية الصحية إنما هو جزء من ظاهرة عامة فشت بين الباحثين في العالم الإسلامي عندما تجاهلوا الإسلام و تعاليمه في دراستهم و بحوثهم المختلفة سواء في ميادين السياسة و الاقتصاد و الاجتماع و التربية و العلوم و الطب .. الخ بحيث بدت دراستهم مقطوعة الصلة بالإسلام و تعاليمه ، ونتج عن ذلك أثران مدمران على الحياة العلمية و العقلية لدى معظم شعوب العالم الإسلامي :

الأثر الأول : في غيبة الإسلام و تعاليمه و توجيهاته عن معظم نواحي الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و اقتصار دور الإسلام على الجانب العقائدي و الأخلاقي و أمور العبادات تعمق الشعور لدى الباحثين و الدارسين بأن الإسلام مجرد دين كغيره من الأديان و ليس

دينا و دنيا أو دينا و حضارة ، و تربت الأجيال من الطبقة المثقفة و رجال العلم و البحث على هذا الشعور الخاطئ بالمعيار العلمي المجرد .

الأثر الثاني : أن تجاهل " العقل المسلم " أو الباحث المسلم للإسلام و تعاليمه و توجيهاته في مجال تخصصه و دراسته قد جعل معظم تلك الدراسات مجرد أصداء للدراسات الأجنبية و حرمته من فرصة الأصالة و الابتكار . و بدلا من أن يبدع " الباحث المسلم " في مجال تخصصه و أن ينقد و يطور ما وصل إليه الغير من معارف إذا به في الغالب يكتفي بمجرد الاقتباس و الترجمة أو التقليد و المتابعة و المسايرة . لذا فقد فقدت معظم تلك الدراسات و البحوث ذاتيتها الإسلامية و غرقت في بحور الغير و ثقافتهم و أيدلوجيتهم مما جعل " العقل المسلم " عاجزا طوال الفترة السابقة عن إبداع حضارته و ثقافته الخاصة به و المناسبة لتطور مجتمعاته و تقدمها . من هنا يبرز الإسلام و تعاليمه في شتى المجالات و يعيد له دوره المؤثر في حياتنا العقلية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية .

و الدراسة الحالية هي إحدى المحاولات في هذا الاتجاه و في مجال محدد هو مجال التخطيط للتربية الصحية في مدارس عالمنا الإسلامي . و تهدف تلك الدراسة أن تظهر كيف يمكن استخدام التعاليم الإسلامية كدوافع للتربية الصحية و كجزء هام من أجزاء المنهج الدراسي و كأداة لخلق بيئة صحية مناسبة و وسط مدرسي يقدر الصحة و يسعى إليها . و لا شك أن تلك الدراسة تغفل الكثير من التفاصيل و تحتاج إلى مزيد من الوقت و البحث و تعاون جهود الكثير من الدارسين و الباحثين في مجال التربية الصحية لتزداد وضوحا و عمقا و تأخذ صورتها العلمية الدقيقة و الشاملة .

لماذا تهتم الدراسة بالتخطيط للتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي ؟

إذا رجعنا إلى المكتبة التربوية و الطبية لاحظنا قلة الدراسات و الكتابات التي تعالج التربية الصحية المدرسية رغم أهمية هذا المجال . و تأتي أهمية هذا الميدان من أن المرحلة المدرسية " ما قبل الجامعة " تشمل فترة زمنية طويلة ، كما أنها تعتبر أكثر كثافة طلابية من الدراسة في الجامعة . ففي مصر على سبيل المثال تمتد المرحلة المدرسية من سن السادسة إلى سن الثامنة عشر على الأقل ، هذا إذا استبعدنا مرحلة الحضانة و رياض الأطفال و عدد سنوات الرسوب الدراسي . و يضم التعليم الابتدائي المصري ٤,٣ مليون تلميذ بنسبة حوالي ٧٥% من الشريحة العمرية ".٦-١٢ " و قد وضعت الوزارة خطتها على أساس الوصول إلى الاستيعاب الكامل في عام ١٩٨٥ و يضم التعليم الإعدادي نحو ١,٥ مليون طالب و طالبة ، يمثلون ٥٥% من شريحة العمل بين " ١٣-١٥ " ، و يضم التعليم الثانوي بنوعيه المختلفة نحو ٩٧٥ ألف طالب و طالبة يمثلون ٤٠% من شريحة العمر بين " ١٦-١٨ " ، أي أن التعليم المدرسي بمراحله الثلاث يضم حوالي سبعة ملايين تلميذ بنسبة ١٧,٥% من عدد السكان ، بينما يضم التعليم الجامعي و العالي نحو ٥٠٠ ألف طالب و طالبة ، يمثلون نحو ١٢% من شريحة العمر " ١٩-٢٢ " أي نحو ١,٥% من عدد السكان فقط . و لا شك أن عدد الطلاب سوف يزداد بعد أخذ مصر بنظام التعليم الأساسي ابتداء من العام الدراسي ١٩٩٨١-١٩٨٢ و جعل التعليم الأساسي تعليم إلزامي مجاني مدته تسع سنوات من " ٦-١٥ " أي أنه من بين كل ستة مواطنين مصريين يوجد مواطن يدرس في مرحلة من مراحل التعليم المدرسي ، و قس على ذلك سائر الدول الإسلامية التي يحظى التعليم المدرسي فيها لأسباب كثيرة بأعداد أكبر من نظيره الجامعي ، و من هنا يمكن القول إن الاهتمام بالتربية الصحية في المراحل الدراسية هو اهتمام بتربية نسبة عالية من عدد المثقفين في دول العالم الإسلامي تربية صحيحة سليمة . يضاف إلى ما سبق أن وضع تخطيط شامل لتربية صحية ناجحة في مرحلة التعليم قبل الجامعي سوف يكفل لنا أن الطالب حتى سن الثامنة عشر أو التاسعة عشر تقريبا

سيكون قد اكتسب المعلومات و المهارات و العادات الصحية اللازمة لنموه البدني و العقلي و الانفعالي . و سيكون من السهل عليه بعد ذلك أن يتابع ذلك بنفسه في المرحلة الجامعية و ما بعدها . من هنا تأتي أهمية العناية بالتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي من حيث التخطيط و التنفيذ و المتابعة .

و رغم أن العالم الإسلامي يشمل كل أولئك الذي يؤمنون بالإسلام كدين و أيدلوجية و من ثم فهو لا يعني تعريفا جغرافيا محددا ، أو كيانا سياسيا معينا بل يتسع ليشمل كل مسلم في العالم على اختلاف الأجناس و الأوطان ، فإن الدراسة الحالية تدرك الفرق بين مناطق يغلب عليها الإسلام و يعيش فيها المسلمون كأغلبية حاكمة كمصر و أندونيسيا و باكستان و تركيا .. الخ و مناطق أخرى يعيش فيها المسلمون كأقليات محكومة مثل الأقليات المسلمة التي تعيش في قارات أوربا و الأمريكتين و غيرهما . و طبيعي أن مشاكل الصحة ستكون كثيرة الاختلاف و التباين بين المجموعتين من المناطق ، بل و ستوجد تلك الفروق بين الدول الإسلامية المستقلة فيما بينها مما يمثل بالفعل صعوبة حقيقية في وضع تخطيط عام للتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي ، يراعى الظروف و المشكلات الخاصة بكل دولة ، و في نفس الوقت يستخدم الإسلام و تعاليمه في وضع هذا المخطط العام . و من سوء الحظ فإن العالم الإسلامي رغم إمكانياته المادية و المعنوية الهائلة و التي تتمثل في ألف مليون مسلم يمثلون خمس سكان العالم ، و يسيطرون على مساحة تبلغ ربع الكرة الأرضية و له مشاركته في الإنتاج العالمي متمثلا في ١٥% من الإنتاج العالمي للقمح و الأرز ، ١٠% من إنتاج السكر ، ٩٩% من إنتاج التمر ، ٨٠% من جوز الهند ، ٣٠% من الزيتون ، ٤٣% من القطن ، ٧٥% من الجوت ، ٨٠% من المطاط ، ٦٠% من النفط ، ٥٦% من القصدير ، ٤٠% من الكروم .. الخ ، هذا كله بجوار التعاليم الإسلامية التي تدعوا إلى الوحدة و القوة في كافة المجالات ، فإنه لم يكون حتى الآن جهازا صحيا عالميا تكون مهمته المسح الشامل لمشاكل العالم الإسلامي الصحية ووضع الخطط و المشاريع المشتركة لحل تلك المشكلات .

ما أهمية التربية الصحية في التعليم قبل الجامعي ؟

و رغم عدم توفر البيانات الصحية الدقيقة ، و رغم غياب مؤسسات صحية ذات طابع إسلامي عالمي يتابع الأوضاع الصحية للمسلمين في العالم و يسهل وضع مخطط للتربية الصحية في كافة مدارس العالم الإسلامي و يملك الإمكانات المادية لتنفيذ ذلك ، إلا أن برامج التربية الصحية على المستوى العالمي قد أظهرت أن الخبرات التعليمية في ميدان الصحة تأتي عن طريق :

١- الحياة الصحية في المدرسة .
٢- الخدمات المدرسية الصحية .
٣- تعليم علم الصحة .
٤- الصلات القائمة بين المدرسة و البيت و المجتمع .

و من هنا فإن أي مخطط للتربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي لابد أن يتعرض لتلك العوامل الأربعة من وجهة النظر الإسلامية :

أولا : الهدف الإسلامي من التربية الصحية المدرسية :

قبل أن نتعرض للعوامل الأربعة السابقة بالدراسة موضحين كيف يستخدم الإسلام و تعاليمه في تدعيمها نرى أن نناقش الهدف الإسلامي هنا من التربية الصحية المدرسية و المعروف أن التربية الصحية المدرسية بصفة عامة تهدف إلى إكساب الطلاب المعارف و المهارات اللازمة للسلوك الصحي السليم سواء من الناحية البدنية أو التعليمية أو الاجتماعية أو تهدف إلى خلق وعي صحي عام بين الطلاب يظهر في صورة سلوك صحي سليم . أو تهدف إلى تزويد الشخص " التلميذ " بمعلومات أو خبرات بغرض التأثير في معرفته و ميوله و سلوكه من حيث صحته الشخصية و صحة المجتمع الذي يعيش فيه ، كما تساعده على الحياة الصحية السليمة ، و سوف نجد أن الإسلام يقر تلك الأهداف و يجعلها ضرورة إسلامية أو واجب ديني حتى يشب أتباعه أقوياء أصحاء قادرين على تأدية واجباتهم

الإسلامية العديدة من صلاة و صوم و زكاة و حج و جهاد في سبيل الله و عمارة للكون .. الخ . و لا شك أن تعميق الشعور لدي الطلاب بأن هذا الهدف الصحي إنما هو ضرورة إسلامية سوف يجعلهم أكثر إقبالا و حرصا على تحقيق الأهداف . إن الطلاب سوف يدركون أن الإسلام لا يرضى لأبنائه ضعف البنية و اعتلال الصحة و رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف " و يشير الله في كتابه إلى فضل الرجل القوي في مناسبات عدة فيقول عز و جل :

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾

(الفتح : ٢٩) ، و يقول سبحانه و تعالى في سورة (البقرة : ٢٤٧) :

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾

وبذلك يؤمنون أن الصحة و القوة مطلب إسلامي يجب أن يحرص عليها المسلم امتثالا لأوامر ربه و توجيه رسوله . و بذلك يكون الهدف من التربية الصحية في مدارس العالم الإسلامي هو إكساب الطلاب المعارف و المهارات اللازمة للسلوك الصحي السليم حتى يصبحوا مسلمين أقوياء من الناحية البدنية و العقلية و الاجتماعية .

يضاف إلى ما سبق ضرورة أن تهدف التربية الصحية إلى سلامة الطلاب من " الأمراض الروحية " التي تنتج أساسا من البعد عن الله و الانغماس في الشرور ، إذ لاشك أن سلامة الطلاب من " الأمراض الروحية " يساعد على سلامتهم من " الأمراض البدنية " و يكسبهم الكثير من السعادة و الرضا ، و التربية الصحية الإسلامية تهتم بالصحة البدنية و الروحية معا . يقول ابن القيم الجوزية : " المرض نوعان : مرض القلوب ، و مرض الأبدان ، و هما مذكوران في القرآن ، ثم يمضى في الحديث عن تشخيص المرضين مظهرا علاجهما معا . و هذا هدف أصيل من أهداف التربية الصحية في الإسلام ينبغي أن يكون واضحا عند تخطيطنا للتربية الصحية في مدارس عالمنا الإسلامي .

ثانيا : عناصر التربية الصحية المدرسية :

١- الحياة الصحية في المدرسة من منظور إسلامي :

تحرص الدراسات التي تتناول التربية الصحية المدرسية على الوقوف عند أهمية البيئة المدرسية الصحية من حيث : موقع و مساحة المدرسة ، الشروط الصحية للمباني المدرسية ، الشروط الصحية لحجرات الدراسة ، الشروط الصحية للأثاث المدرسي ، الشروط الصحية للمطبخ و المطعم بالمدرسة ، الشروط الصحية للمرافق المدرسية : " المياه ، تصريف الفضلات " ، و ترجع أهمية البيئة المدرسية الصحية إلى أنها : " فضلا عما لها من تأثير جيد على صحة شاغليها من تلاميذ و موظفين فإنها تعتبر مثلا يحتذي للحياة الصحية . فالحياة الصحية بالمدرسة تجربة واقعية متكررة تؤدي إلى تكوين العادات الصحية ، و تربي النشىء على النواحي المعيشية السليمة . و لاشك أن كل ما يرد في المراجع العربية و الأجنبية حول إيجاد بيئة مدرسية صحية يعيش فيها الطلاب خلال حياتهم المدرسية هي من الأمور التي ينبغي أن نستفيد بها عند التخطيط لتربية صحية في مدارسنا الإسلامية ، إلا أننا عند استفادتنا من ذلك كله ينبغي أن نركز على الأمور الثلاثة التالية :

الأمر الأول : لفت نظر الطلاب إلى اهتمام الإسلام بخلق بيئة صحية لا تنفذ إليها الأمراض و لا تستوطن فيها و ذلك بفضل النظافة التامة التي يدعو إليها الإسلام . " و المقصود بالنظافة نظافة الناس في أجسامهم و ملابسهم و عاداتهم و نظافة الشوارع و البيوت و نظافة الطعام و الشراب و نظافة موارد المياه " . و الآيات و الأحاديث الواردة في هذا الشأن أكثر من أن تحصى و يمكن الرجوع إليها في مصادرها الأصلية من كتاب الله و سنة رسوله .

الأمر الثاني : لفت نظر الطلاب إلى اهتمام المسلمين في عصور ازدهارهم بتطبيق تلك المبادئ الصحية في مؤسساتهم التربوية سواء كانت مساجد أو مدراس أو بيمارستانات .. الخ ، و المراجع الإسلامية تتحدث عن الميضأة بالقرب من المسجد للتوضئة منها و الشماسات " مظلة خشبية " تقام فوق الأبواب و النوافذ لتحمي الداخل إليها من الشمس و المطر و لتضيف إليها عنصرا زخرفيا جماليا و الفسقيات المملوءة بالمياه وسط المسجد أو المدرسة لتلطيف حرارة الجو أو خشية أن يحدث حريق في الليل ، و الحمامات للاستحمام و المطابخ للطهي و الساعات لمعرفة الوقت و تزيين المباني و اللوحات القرآنية تحلى العمد و الجدران بزخارفها الجميلة و الشبابيك النحاسية ذات الأشكال الهندسية الرائعة . و يطول بنا الحديث لو ذهبنا نستقصي مظاهر الجمال و أسباب الصحة التي وفرها المسلمون في معاهدهم الدراسية . و المؤسف أن كتب التربية الصحية الحالية تكاد تخلو من الحديث عن هذا الجانب الهام مما يعطي انطباعا للدارس أن مثل هذه الأمور إنما هي من نتاج العصر الحديث و لم يكن للمسلمين كثير اهتمام بها . و هذا يتطلب القيام بدراسات تظهر الجانب الصحي في البيئة المدرسية الإسلامية .

الأمر الثالث : أنه رغم أهمية توفر الشروط الصحية في البيئة المدرسية ، ورغم أن تخطيطنا لمدارس العالم الإسلامي ينبغي أن يستهدف تصميم أفضل بيئة مدرسية ممكنة من الناحية الصحية تتناسب مع حاجات الطلاب التربوية و توفر لهم الحماية و الأمن و الراحة ، إلا أننا نحب أن نلفت النظر هنا إلى ما أكدته بعض الدراسات من أهمية توفر جو من العلاقات الطيبة بين أعضاء هيئة التدريس بعضهم و بعض ، و بينهم و بين الطلاب و التلاميذ ، ذلك لأن توفير تلك العلاقات الإنسانية المتبادلة لا تقل أهمية عن الجانب المادي من البيئة المدرسية .

و لقد وفر الإسلام بمبادئه و تعاليمه علاقات وثيقة بين الشيوخ أو العلماء بعضهم ببعض و بين الطلاب و أساتذتهم ، و الطلاب بعضهم ببعض ، بحيث كانت تلك العلاقات الوثيقة من أهم سمات التعليم الإسلامي و من أسباب الصحة النفسية لكل من العالم و المتعلم و عند التخطيط الإسلامي للتربية الصحية في مدارسنا الإسلامية لا بد من محاولة إحياء تقاليدنا الإسلامية في هذا الشأن ، و بذل كل الجهود الممكنة لإعادة العلاقة الروحية و العلمية المتينة بين : الطالب و الطالب ، و المعلم و المعلم ، و المعلم و الطالب و هي علاقة بدونها لا يشعر الطلاب بحب الحياة المدرسية أو الإقبال على مؤسساتهم التربوية مهما توافرت فيها العناصر الصحية التي سبق الحديث عنها .

٢- الخدمات المدرسية الصحية من منظور إسلامي :

أنه لشئ مثالي أن يحضر الأطفال من رياض الأطفال و حتى الجامعة إلى مدارسهم في صحة سليمة ، و لكن الواقع غير ذلك . فقد دلت الإحصاءات على أنه من بين كل مائة طفل في سن الدراسة ، يوجد طفل واحد يعاني من أزمات صحية ، و عشرون طفلا يعانون من صعوبات تتعلق بالنظر ، و عشرة أطفال يعانون من ضعف السمع و خمسة عشر من نقص في الغذاء ، و عشرة من مشاكل تتعلق بالنمو ، و عشرون إلى أربعين من اضطراب عقلي و نفسي ، كما يعاني

معظم هذا العدد من نوع أو أكثر من مشاكل الأسنان . يضاف إلى ذلك أن نسبة عالية من الطلاب يعانون من مشاكل صحية أخرى مثل الحساسية و تشوه الأعضاء و الكسور و آلام الفم و الأنف و الحنجرة و الأمراض الجلدية و الشعور بالإعياء و التعب . و هناك من لا يشتكي من أمراض بدنية معينة و لكنه لا يحصل على كفايته من ساعات النوم و الاستجمام و الهواء النقي و أشعة الشمس .

و من المعروف أن قدرة الطالب على التعلم تتأثر إلى حد كبير بحالته الصحية . فالطفل الذي يعاني مثلا من نزلة برد شديدة أو بعض الأمراض المعدية لن يكون قادرا على الحضور إلى المدرسة و سوف تفوته بعض الدروس مما يؤثر على تحصيله الدراسي كذلك فإن الطفل المريض قد يجد صعوبة في قدرته على التعلم . إن الأطفال الذين يعانون من نقص الأغذية و فقر الدم أو النقص في نموهم الجسمي أو بعض القصور في السمع و البصر و خلافه غالبا ما تؤثر حالتهم الصحية على تحصيلهم الدراسي . و من هنا تأتي أهمية العناية بالطلاب صحيا أثناء حياتهم المدرسية ، و تأتي أهمية تقديم خدمات صحية مناسبة لهم في هذه الفترة من حياتهم . و تكاد معظم الدراسات أن تجمع حول الخدمات الست التالية كأنشطة صحية أو خدمات يجب أن تقوم بها المدرسة حفاظا على صحة طلابها ، و صحة المجتمع المدرسي و هي :

(أ) اكتشاف الأمراض المعدية لدى الطلاب و المساعدة على الوقاية منها و اتخاذ الإجراءات اللازمة لعلاجها و مكافحتها .

(ب) تقييم صحة التلاميذ و موظفي المدرسة و ذلك بإجراء الكشوف و الفحوص الدورية التي تتناول وزن التلاميذ و أطوالهم و الكشف على أسنانهم و جميع أعضاء جسمهم لتحديد صلاحيتها و اكتشاف ما يكمن في بعضها من الأمراض و العاهات ، كما يشمل الفحص عمليات لتحليل البول و البراز و فحص الصدر بالأشعة .. الخ و إجراء الفحوص النفسية بين آونة و أخرى لمن تظهر عليه منهم أعراض تدل على مشاكل نفسية .

(ج) السعي إلى تعديل العيوب و العلل أو القيام بهذا العمل فعلا مثل إرشاد الطلاب إلى ضرورة الاهتمام بأسنانهم غير النظيفة أو عمل نظارة طبية .. الخ و حث الطلاب على الاهتمام بهذه الأمور الصحية . و يحتفظ بعض المعلمين بمفكرة يدونون فيها العيوب التي تحتاج إلى تقويم و يرجع المعلم و ممرضته المدرسية معا إلى هذه المفكرة كلما تم الحصول على المداواة المطلوبة لكل حالة خاصة . و قد أحرز كثير من المعلمين نجاحا كبيرا في جعل تقويم عيوب الأسنان مشروعا مدرسيا ينطوي على الإشادة بكل طفل و تقريظه عندما يتم إصلاح أسنانه ولا حاجة بنا إلى القول بأن التعجيل في تقويم عيوب الطفل يساهم في تحسين صحته و تربيته الصحية مساهمة ذات شأن .

(د) العناية التي تستلزمها الحوادث الطارئة و الأمراض المفاجئة للطلاب أثناء اليوم المدرسي و تقديم الإسعافات الأولية أو العلاج اللازم في الحالات الخفيفة البسيطة أو اتخاذ إجراءات نقل المصاب للمستشفى و الاتصال بذوي التلميذ في الحالات الخطيرة . و من الضروري أن تكون المدرسة مجهزة و مستعدة لمواجهة مثل هذه الحالات الطارئة التي تحدث للطلاب و هم بين جدرانها .

(هـ) إنشاء خدمات صحية خاصة للأطفال الشاذين و المعوقين الذين يعانون من ضعف السمع أو البصر أو القدرة على النطق و الكلام أو الصرع EPILEPSY أو الضعف العقلي MENTALLY DEFECTIVES أو السلوك العدواني و التخريب و السرقة و الهروب من المدرسة و عدم الطاعة .. الخ .

(و) الإشراف على صحة البيئة أو الوسط المدرسي و التأكد من مراعاته للشروط الصحية التي سبق الحديث عنها .

و الذي نلفت النظر إليه هنا هو أن مؤسسات التعليم الإسلامية قد قدمت لطلابها و بيئتها المحيطة الخدمات الصحية المناسبة . فقد كانت تلك المؤسسات تقدم لطلابها الغذاء و المأوى و العلاج .. الخ و على سبيل المثال فإن مؤرخا معاصرا عند حديثه عن مدرسة السلطان حسن (٧٥٧هـ) بالقاهرة المشهورة بجمالها و مساكن طلابها يقول : " و كان لها - المدرسة - أطباء ثلاثة اختص أحدهم بالطب الباطني و الثاني بطب العيون و الثالث بالجراحة " .

و من يطالع في رحلتي ابن جبير و ابن بطوطة يجد صورا مشرقة من اهتمام المسلمين بمؤسساتهم التعليمية من حيث جمال المبنى و توفير الغذاء و المأوى و الرعاية الطبية لطلابها [٣١] .. كذلك كان الأطباء المسلمون لا يكتفون بالدروس و المحاضرات يعطونها لطلابهم بل ينزلون إلى المرضى بالبيمارستانات (المستشفيات) يتفقدون أحوالهم و يصفون العلاج لهم .

٣- تعليم علم الصحة من منظور إسلامي :

(أ) مادة التربية الصحية :

لقد كان هناك خلاف بين رجال التربية الصحية حول : هل من الأفضل أن يكون هناك مقرر خاص بالتربية الصحية ؟ أم تدرس من خلال المواد الدراسية الأخرى خصوصا و أن هناك مواد كثيرة يمكن أن تفيد في التربية الصحية مثل التربية البدنية و العلوم الأساسية و العلوم الاجتماعية و الاقتصاد المنزلي ؟ و لكن هذا الخلاف قد حسم لصالح ضرورة وجود مقرر مستقل بالتربية الصحية يزود الطلاب بتعليم صحي وافي و كامل ، إذا أثبتت التجارب أن الاقتصار على استعمال مواضيع الدراسة الأخرى بمفردها لم تعد بنتيجة مرضية فتدريس الصحة من خلال تلك الموضوعات قد يقوي و يعزز تجارب الطالب التعليمية ، و لكن معظم التقارير الصادرة بهذا الشأن تفيد بأن هذه الطريقة من التدريس لا يمكن أن تحل محل التدريس الصحي المباشر كموضوع منفصل . فهناك حاجة إلى درس خاص في

الصحة يجمع شتات المساهمات التي تقدمها مختلف المواضيع المتصلة بالصحة و يعرض مضمون الدراسة الصحية الهام بطريقة موحدة قوية .

و إذا ذهبنا نستعرض الموضوعات الدراسية التي يغطيها منهج التربية الصحية كما تعرضها المراجع العربية و الأجنبية لوجدناها في الغالب تدور حول الجسم الإنساني ووظائفه و الطعام و التغذية و أنواعها و حاجات الإنسان منها ، و نظام الحياة الصحية من تمارين رياضية و راحة و نوم و نظافة .. الخ و الأمراض المعدية و أسبابها و طريقة انتقالها و وسائل الوقاية منها و الإسعافات الأولية .. الخ . و طبيعي أن تختلف طبيعة الموضوعات من مرحلة تعليمية إلى أخرى من حيث السهولة و الصعوبة ، و لكن الذي يلفت النظر هنا هو إغفال الإسلام و تعاليمه في صياغة تلك الموضوعات الصحية رغم توفر الآيات و الأحاديث الواردة في أغلب هذه الموضوعات . إن القرآن و ا لحديث الشريف يحثان على الصحة و قوة البدن و يرغبان في طلب الدواء عند المرض و عزل المريض حتى لا يعدى غيره . كذا نجد في القرآن حديثا مفصلا عن أطوار الجنين و مدة الإرضاع و أنواع الغذاء المحبوب و الغذاء المكروه و المحرم . و حديثا عن الطهارة و النظافة و الحياة الزوجية بما يتصل بها من ثقافة جنسية نظيفة إلى غير ذلك من الموضوعات الصحية ، و يكفي أن نرجع إلى كتابي : الطب النبوي للذهبي ، والطب النبوي لابن القيم الجوزية . و كذلك لبعض الكتابات الحديثة في هذا المجال لنجد المزيد من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي تغطي أغلب هذه الموضوعات . و لا يكتفي الإسلام كما سبق أن ذكرنا بالعناية بالصحة البدنية بل يهتم أيضا بالصحة النفسية أو " الطب الروحاني " و سنجد في مؤلفات مثل الطب الروحاني لابن الجوزي ، و الطب الروحاني للشيرازي و رسالة في مداواة النفوس و تهذيب الأخلاق و الزهد في الرذائل لابن حزم كلها نماذج طيبة ممن الكتابات الإسلامية في هذا الاتجاه . يقول ابن الجوزي في مقدمته لكتاب الطب الروحاني : " لما جمعت كتابا في طب الأبدان و سميته لقط المنافع آثرت أن أشفعه بكتاب في طب النفوس أسميته الطب الروحاني ، فإن طب الأبدان إصلاح الصور و طب النفوس إصلاح المعاني و هي أشرف " .

فالأطباء المسلمون قد اهتموا بصحة البدن و النفس ، و لذلك فإن مؤلفات التربية الصحية في مدارس عالمنا الإسلامي لابد أن يعاد صياغتها من جديد لكي تأخذ الصيغة الإسلامية من خلال القرآن و السنة و أقوال علماء المسلمين و أطبائهم و مربيهم مع إضافة جزء حديث يتصل " بالطب الروحاني " كما عالجه علماؤنا المسلون ، و هو في تصورنا يختلف عن العلاج النفسي المعاصر ، لأن الطب الروحاني الإسلامي يعتمد على تقوية علاقة الإنسان بربه و تخليه عن الصفات المذمومة و تحليه بالصفات المحمودة ، و هو بذلك يحتاج إلى مزيد من الجهد العلمي و الدراسة المتعمقة حتى يمكننا أن نصوغ لأنفسنا مدارس في علم النفس الإسلامي أو الطب الروحاني .

(ب) طرق تدريس التربية الصحية من منظور إسلامي :

تتحدث مراجع التربية الصحية عن طرق تدريس متعددة مثل طريقة التدريس المباشر التي يقوم فيها المدرس بإلقاء المعلومات الصحية و يناقش الطلاب فيها ، و طريقة المشروعات التي يقوم فيها الطالب بمشروع صحي معين يلقنون المعارف الصحية و يكتسبون السلوك الصحي من خلاله و طريقة حل المشكلة التي يدرس فيها الطلاب مشكلة صحية من المشكلات و يتدارسون طرق حلها . و بجوار تلك الطرق التربوية هناك الوسائل السمعية و البصرية المساعدة سواء كانت :

١- وسائل أساسها الممارسة العملية مثل التعرف على البكتيريا و الطفيليات الموجودة بالمياه الملوثة بالميكروسكوب .

٢- وسائل أساسها الملاحظة مثل التوضيحات العملية " تجارب العرض " DEMONSTRAIONS و الرحلات و الزيارات العلمية و المعارض بالفصل أو المدرسة و الصور المتحركة و الأفلام السينمائية و الصور الثابتة و الراديو و التسجيلات الصوتية و التليفزيون .

٣- وسائل أساسها الرموز البصرية مثل الرموز البيانية ، و الرموز النفظية مثل اللوحات المكتوب عليها عبارات معينة و الكتب .. الخ .

و لا شك أننا ينبغي أن نستفيد بتلك الوسائل عند التخطيط للتربية الصحية في مدارس عالمنا الإسلامي مع ربط العملية التعليمية كلها " بالدافع الإسلامي " سواء عند المعلم أو التلاميذ و إبراز عنصر القدوة الإسلامية أو التعليم الإسلامي بالقدوة أي أن يكون المعلمون و الموظفون بالمدرسة قدوة صالحة للطلاب من الناحية الصحية ، و إبراز الآيات و الأحاديث المتعلقة بالأمور الصحية و كتابتها بخط جميل بحيث يراها الطلاب و المعلمون في أماكن متفرقة بالمدرسة و الفصل ، و الاهتمام بالتأليف الأدبي الطبي الذي يجذب الطلاب . و لقد أنتج المسلمون أدبا طبيا يمكن الرجوع إليه ، و الذي يطالع كتاب دعوة الأطباء على مذهب كليلة و دمنة لابن بطلان الطبيب يجد نموذجا لهذا النوع من الكتابات الطبية الأدبية التي تعرض فيها المعلومات الطبية عرضا أدبيا جذابا .

٤= العلاقات القائمة بين المدرسة و البيت و المجتمع من منظور إسلامي :

يتلقى التلاميذ تجارب تربوية في كل من المدرسة و البيت و المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه، و من أسوء الأمور أن يتلقى التلاميذ " خبرات صحية " تتعارض مع سلوك البيت أو المجتمع . و من هنا يركز مخططو التربية الصحية على ضرورة اتصال المدرسة كمؤسسة تتوفر فيها الخبرات الصحية و القوى العاملة المدربة بمنازل الطلاب و أولياء أمورهم لتقدم لهم الخبرات الصحية اللازمة لنمو أولادهم نموا صحيحا. و قد ذكر أحد المراسلين من السلطات التربوية الصحية في البلاد النامية أن ١٧% من التلاميذ الجدد النين يفدون إلى مدرسته يعانون من سوء التغذية و علق على هذا الوضع بقوله : إن الفقر لم يكن السبب الوحيد لسوء التغذية الذي يعانون منه، و أكد أن الجهل يأتي على رأس قائمة الأسباب التي تؤدي إلى سوء التغذية . كذلك فإن المدرسة مطالبة بالتعاون مع السلطات المحلية في المجتمع و بذل كل جهد ممكن لنشر الوعي الصحي بين أفراد المجتمع المحلي و إشراك

الطلاب في مشروعات صحية لخدمة البيئة . مما يقتضي وجود زائرات صحيات و مهتمين بشئون الصحة و أطباء و هو ما تعاني أكثر مدارسنا من نقص في الأعداد اللازمة منهم .

ما أهم عناصر التربية الصحية داخل المدارس ؟ وما أهميتها للفرد والمجتمع ؟

و في تصور الباحث أن الإسلام و تعاليمه الصحية العديدة يمكن أن تكون أداة فعالة في خلق وعي صحي عام في كل من المدرسة و البيت و المجتمع المحلي ، و تستطيع السلطات التربوية و الصحية القيام بحملة عقائدية صحية لنشر السلوك الصحي مستخدمة سلاح العقيدة . و تشترك في تلك الحملة العقائدية الصحية وزارة الإعلام بوسائلها المختلفة من إذاعة و تلفزيون و سينما و مسرح ، ووزارة التربية بطلابها و معلميها و مبانيها المتعددة ، ووزارة الأوقاف بمساجدها و علمائها ، ووزارة الصحة بأطبائها و مفتشيها و يكون الهدف من ذلك خلق وعي صحي إسلامي يقضى على الأمراض السارية في مجتمعاتنا الإسلامية سواء كانت أمراضا بدنية أم سلوكية أم " روحانية " كما سماها سلفنا الصالح .

إن مثل تلك الحملة العقائدية الصحية فضلا على أنها سوف ترفع الوعي الصحي لدى الجميع فإنها ستحدث نوعا من الانسجام و الاتساق بين ما يدعو إليه المنزل المسلم ، و ما تدعو له المدرسة و المجتمع المحلي من سلوك صحي ، و سيكون هذا الانسجام و الاتساق أمرا طبيعيا لأنه ينبع من عقيدة راسخة و ليس مجرد معلومات أو تثقيف صحي . و شتان بين أن تكون الصحة و النظافة عقيدة وسلوكا اجتماعيا و دينيا لشعب من الشعوب و بين أن تأتي طاعة لأوامر الطبيب أو حتى اقتناعا بفائدتها .

خاتمة :

رأينا كيف يمكن أن يكون الإسلام بتعاليمه الصحية العديدة نقطة انطلاق للتخطيط لتربية صحية بمدارس عالمنا الإسلامي سواء عند تحديدنا للهدف من التربية الصحية ، و كيف أنه يشمل سلامة الطلاب من الأمراض الروحية و البدنية معا . أو عند حديثنا عن *عناصر التربية الصحية الأربعة :*

(١) الحياة الصحية في المدرسة .
(٢) الخدمات المدرسية الصحية .
(٣) تعليم علم الصحة .
(٤) الصلات بين المدرسة و البيت و المجتمع .

و كيف أن مزج الإسلام بتلك العناصر الأربعة يمكن أن ينتج لنا تربية صحية خاصة بنا . تربية صحية لا تعتمد على معطيات الطب أو التربية فقط بل تستخدم الأسلوب العقائدي في تنظيم تلك التربية الصحية من حيث الأهداف و طرق التدريس . و لقد جرب المسلمون هذا الأسلوب العقائدي في التربية الصحية فأقاموا معاهد علمية نظيفة و صحية أنجبت حضارة إسلامية زاهرة كانت نتاج أجسام صحيحة و عقول سليمة و أرواح طاهرة .

من هنا يؤكد الباحث على أهمية الأخذ بالأسلوب العقائدي الإسلامي في التربية الصحية و ضرورة إعادة كتابة كتب التربية الصحية في مدارسنا من منظور إسلامي مع تأليف " دليل التربية الصحية " كمرجع شامل للعاملين بحقل التربية الصحية ، و ينبغي أن يحتوي هذا الدليل على موضوعات التربية الصحية من منظور إسلامي ، و بيانات كاملة عن الوضع الصحي في دول العالم الإسلامي ، وصور من ألوان اهتمام المسلمين بمعاهدهم و طلابهم من الناحية الجمالية و الصحية . و سيحتاج وضع مثل هذا الدليل إلى تعاون من رجال التربية و الطب و الدين و التاريخ و الحضارة الإسلامية كل في مجال تخصصه .

و لاشك أن الأخذ بالأسلوب العقائدي الإسلامي في التربية الصحية في مدارسنا سيكون خطوة على الطريق نحو مجتمعات إسلامية قوية و طاهرة .
و نكرر القول : قوية و طاهرة لأهمية القوة و الطهارة في الحس الإسلامي و لحاجة المجتمع الإنساني المعاصر إلى اجتماعها معا في " حضارة إنسانية راقية " تنقذ البشرية مما تعانيه الآن من تفسخ أخلاقي و انفصام كامل بين القوة و الأخلاق .

ما دور الإسلام و تعاليمه في نشر التربية الصحية بالمدارس ؟

أزمة التربية الخلقية في مصر .. وجهة نظر .

ترتفع كثير من الأصوات في أجزاء مختلفة من بقاع الأرض منددة بوجود أزمة خلقية تهدد حضارة الإنسان المعاصر . و تتخذ تلك الأزمة الخلقية صورا مختلفة في كل بلد . فهي أحيانا حركات تمرد من الشباب على السلطة و الأعراف و التقاليد .. و في انغماس كامل في اللهو و المجون و السكر و الجنس .. و هو تارة أخرى حركات عنف ضد الأموال و الأرواح و الممتلكات .. الخ و يستطيع البحث أن يرصد الشكوى من أعراض تلك الأزمة الخلقية على مستوى جميع القارات سواء آسيا و أفريقيا و أوربا و الأمريكتين لا فرق بين قارة و أخرى فالكل يعاني من أعراض تلك الأزمة ، سواء تلك الدول الغنية المتقدمة أو تلك الدول الفقيرة النامية . و سواء تلك الدول الملكية أو الجمهورية أو الديكتاتورية . و ليس هذا مجال لسرد أمثلة لأبعاد تلك الأزمة أو لعديد من الفضائح و الجرائم الخلقية التي ارتكبت في الأعوام القليلة الأخيرة فقط على مستوى دول العالم و في أرقى الأوساط السياسية و الثقافية لكي نؤكد ما نقرره هنا و هو أن أزمة التربية الخلقية إنما هي أزمة عالمية يعاني منها الإنسان المعاصر في كل القارات و على جميع المستويات و يشعر الباحثون و المفكرون هنا و هناك بضرورة التصدي لتلك المشكلة بالدراسة و التحليل و المناقشة .

و الغريب أن الأزمة الخلقية تؤثر تأثيرا مباشرا على حياة الإنسان و على حاضره و مستقبله سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية و مع ذلك نجد أننا نهتم بالمشكلات السياسية فنعقد لها المؤتمرات و نخصص لها الدارسين و المحللين السياسيين و نتابع أخبار العالم و تحركاته السياسية . وكذا نهتم بالمشكلات الاقتصادية و نرصد لها من الجهد و الخبرة و الوقت ما نرصد ، فإذا جاء دور معالجتنا لأزمة الأخلاق تخلينا عن عنصر التحليل العميق و المحاولة الجادة لمعالجة هذا الخطر الأخلاقي الذي يهدد حياتنا سياسة و اقتصادا و اجتماعا و عمرانا و اكتفينا بمجرد العبارات العامة أو التوصيات التي نزين بها

مؤتمراتنا عن الشباب و تربيتهم و ضرورة رعايتهم رعاية شاملة يدخل فيها الرعاية الأخلاقية و الروحية .

و رغم وجود دراسات و بحوث على المستوى المصري و العربي تعالج مشاكل التربية بصفة عامة و التربية الخلقية للشباب بصفة خاصة إلا أن الموضوع ما زال يحتاج إلى مزيد من الدراسة و البحث و الصدق مع الذات و الآخرين .

وعندما نحدد أزمة التربية الخلقية في مصر كموضوع لهذا البحث فليس ذلك لمجرد أن هذا الموضوع هو أحد مباحث المؤتمر فقط و إنما لأهمية هذا المجال في نفس الوقت . كذلك فعندما نحدد أزمة التربية الخلقية في مصر – مصر بالذات – فإن القصد من ذلك أن الحديث عن مصر يصلح أن يكون مثالا يمكن الانتفاع به عند حديثنا عن غيرها من الدول العربية ذلك لأن تلك الدول تقع في دائرة ثقافية و حضارية واحدة بصورة تجعل مشكلتها و أزمتها تكاد تقترب اقترابا يصل إلى حد التطابق في كثير من الأمور . كذلك فإن حديثنا عندما يقتصر على مصر فذلك لتوفر المعلومات لدى الباحث في الفترة الزمنية المحددة لتقديم هذا البحث فيما يختص بمصر . و عندما نقول " وجهة نظر " فليس ذلك لعدم توفر الدلائل على ما نقول أو لضعف الشواهد التاريخية على صحة ما تذهب إليه في تلك الصفحات بل لأننا لا نملك أن نحول تلك الكلمات إلى خطة عملية و كل ما نملكه هو مجرد البحث و التحليل و قوة المنطق و الدليل .

و منطلق هذا البحث هو أن أزمتنا الخلقية الخاصة بنا في " مصر الحديثة " هي أننا شعب مسلم في غالبيته ندين بالإسلام و نعتقد به اعتقادا شعوريا و عاطفيا و نتغنى به شعارات و مثلا عذبة لذيذة تدغدغ عواطفنا و لكن واقعنا الحالي كله على جميع المستويات سياسة و اقتصادا و عمرانا و اجتماعا يأخذنا بعيدا عن تلك المثل الإسلامية العليا و يفرض علينا غربة عن الإسلام قد طال مداها و امتدت جذورها عبر فترة زمنية طويلة من تاريخنا المصري الحديث . و الواقع أن دراسة حركة المد و الجزر الإسلامي على ترابنا المصري منذ دخلها الإسلام حتى اليوم قد تكون دراسة ممتعة و مفيدة لمن يريد أن يلتمس الجذور الحقيقية لأزمة الأخلاق

في مصر ، و لكن طبيعة هذا البحث و ظروفه تحول دون ذلك . غير أننا ينبغي أن ننبه هنا إلى الفارق الكبير بين " انحسار الإسلام " عبر التاريخ المصري عن ناحية من نواحي الحياة مثل السياسة " نظام الحكم الوراثي الاستبدادي " أو الاقتصادي " الثراء غير المشروع و تركز المال في فئات محدودة " أو الاجتماعي " حرمان المرأة من التعليم و ارتياد المساجد و دور العلم " أو بعض نواحي التشريع " المظالم التي تعرض لها العباد خلال التاريخ المصري الإسلامي " و بين الانحسار الكامل المنظم و المقنن لإبعاد الإسلام عن شتى المجالات أو فصل الدين عن الدولة و التشريع كما حدث في مصر رسميا منذ إعلان الدستور عام ١٩٢٣م . نعم إن التاريخ المصري الإسلامي قد شاهد انحرافات الأفراد و الحكام عن الشريعة الإسلامية سواء في مجالات السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو التشريع و لكن تلك التجاوزات كانت انتهاكات للشريعة و كان أصحابها يدركون أنهم مخطئون و كان الآخرون ينظرون إلى تلك التجاوزات على أنها غير شرعية .

و لقد ارتفعت أصوات العلماء عبر التاريخ المصري الإسلامي ضد تلك الانحرافات . و ما زالت المكتبة العربية و العالمية في حاجة إلى دراسة تاريخية ووثائقية لدور العلماء في تاريخ مصر الإسلامي لتحديد حجم هذا الدور و دراسة عوامل قوته في العصور الإسلامية المتعاقبة و أسباب ضعفه في عصرنا الحديث .

و غريب أن نؤرخ العصر الحديث في مصر بحمله نابليون العسكرية و نتخذ من عام ١٧٨٩ م بداية لذلك التحديث و ننسب الكثير إلى تلك الفترة الزمنية القصيرة المحدودة من عام ١٧٩٨ إلى ١٨٠١ التي أقامها الفرنسيون في مصر . بل أن بعض الدراسات ترى أن الفرنسيين قد علموا المصريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم و بذرت فيهم بذور الشعور القومي و أدخلوا العلوم الحديثة إلى مصر (المجمع العلمي الفرنسي) و أنشأوا مدرستين حديثتين و صحيفتين هما بريد مصر COURIER DE L'EGYPTE و العشرية المصرية DECADE EGYPTIENNE إلى غير ذلك من الدعاوى التي تنسب إلى الفرنسيين و التي تخالف منطق الواقع . فالفرنسيون قضوا في مصر وقتا قصيرا قضوا معظمه في الحروب و القضاء على الثورات المضادة لوجودهم و كان من المحال أن يحدثوا

تأثيرا حضاريا في تلك الفترة . و كل المؤسسات الثقافية التي أقاموها في مصر كانت لخدمة الحملة و أنهم لم يخلفوا من ورائهم أي آثار ثقافي أو حضاري .

مهما يكن الأمر فانه عندما جلت قوات الاحتلال الفرنسي عن مصر عام ١٨٠١م اشتد الصراع بين الوالي العثماني و المماليك و عانت البلاد أربعة أعوام من الفوضى انتهت بتنصيب علماء الأزهر " محمد علي " واليا على مصر بشرط أن يحكم بمشورة العلماء و هو الشرط الذي لم ينفذه محمد علي على الإطلاق . و يختلف المؤرخون في تقديرهم لطموح محمد علي السياسي أكان إقامة دولة مصرية عصرية قوية أم إمبراطورية عربية تشمل الأراضي الناطقة بالعربية أم خلافة إسلامية يكون هو السلطان فيها بعد أن يسقط الخلافة العثمانية . و أيا كانت طموحات محمد علي السياسية فقد بدأ بالقضاء الكامل على المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة ثم اتجه إلى العلماء فنفي زعماءهم خارج القاهرة : عمر مكرم إلى دمياط و الدواخلي إلى دسوق ثم صادر أوقافهم و فرض لهم رواتب شهرية و جعل اختيار شيخ الأزهر في يده بعد أن كان في يد العلماء . و طبيعي أن اختيار محمد على شيخ الأزهر لم يكن على أساس الكفاءة العلمية أو الإدارية أو المكانة الشعبية للعالم المختار و إنما كان على أساس مقدار ولاء هذا العالم لشخص محمد علي . و لقد ظل هذا التقليد " اختيار الحاكم لشيخ الأزهر " تقليدا متبعا في مصر طوال حكم أسرة محمد علي و بعدها و حتى اليوم .

و قصة محمد علي مع " التربية الحديثة " في مصر قصة معروفة فهو الذي فتح المدارس الخصوصية و التجهيزية و المبتديان . و هو الذي أرسل البعثات التعليمية إلى الخارج . و هو الذي حدث كثيرا من مظاهر الحياة الإدارية و الاقتصادية و العسكرية حتى يحقق طموحاته السياسية . و لكن محمد على الأمي الذي لا يقرأ و لا يكتب حتى سن السابعة و الأربعين من حياته ، و العسكري ذو الثقافة المحدودة لم يستطع أن يفهم من التحديث إلا معناه الغربي الأوروبي ولم يفهم الحداثة بالمعنى الإسلامي الذي أراده رواد البعث الإسلامي فيما بعد أمثال رفاعة الطهطاوي و جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و رشيد رضا و آخرون . و الفارق الكبير بين التحديث بالمعنى الأوروبي الذي أراده محمد على و الذي

تجاهل عنصر الأصالة العربية و الإسلامية و التحديث بالمعنى الإسلامي الذي يتخذ من الإسلام منطلقا إلى التفوق و التقدم في جميع المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . و لذلك فإن محمد على كان أول من عزل الأزهر رسميا عن الحياة و جعله متخصصا في علوم اللغة و الدين ، أما غير ذلك من العلوم الحديثة فهو من اختصاص تعليمه الحديث الذي أنشأه و قدمه إلى مصر ليقود حركة التحديث بالمعنى الغربي الأوروبي الذي أراده .

و لقد ظل الأزهر منذ إنشائه و تحوله إلى معهد دراسي عام ٩٧٥م حتى عصر محمد علي و هو مكان لدراسة العلوم الدينية و العقلية معا ، و العلوم العقلية اصطلاح إسلامي يشمل ما يسمى بالعلوم الحديثة و هي تسمية فيها كثير من التجاوز و عدم الدقة العلمية – نعم كانت العلوم الدينية تحتل مكانا أهم في الأزهر منذ بدأت الدراسة فيه و كان يخصص لها الساعات الأولى من النهار . و لكن العلوم العقلية كانت موجودة فيه بصورة أو بأخرى حسب عصور الازدهار الثقافي لمصر . فقد درست تلك العلوم العقلية في العصر الفاطمي بالأزهر (٩٧٥-١١٧١م) و كانت محاضرات " ابن الهيثم " الذي عاش في الأزهر مثلا لتلك الدراسات العقلية و في العصر الأيوبي (١١٧١-١٢٥٢م) و كانت دراسات عبد اللطيف البغدادي في الطب مثلا لتلك الدراسات إذ يسجل البغدادي في سيرته : " و كانت سيرتي في هذه المدة أن أقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار بعد صلاة الفجر مباشرة إلى نحو الساعة الرابعة بعد صلاة الفجر بأربع ساعات . ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب و غيره ، و آخر النهار ارجع إلى الجامع الأزهر و يقرأ قوم آخرون . و في الليل اشتغل مع نفسي . و لم أزل على ذلك إلى أن توفى الملك العزيز " . و في العصر المملوكي (١٢٥٢-١٥١٧م) يتحول الأزهر إلى كعبة لعلماء الإسلام يفدون إليه من كل مكان بعد أن زادت شهرته العلمية و كثرت الأوقاف المرصودة على طلابه و علمائه و سقطت عواصم الإسلام الثقافية الأخرى في الأندلس و سوريا و العراق و يظل الأمر كذلك في الأزهر حتى خلال العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م) رغم ما ساد تلك العصور من تخلف ثقافي في مصر .

فقد استولى السلطان سليم على كثير من الكتب و المراجع و المخطوطات المصرية و اصطحب معه عددا كبيرا من العلماء بالبلاد إلى اسلامبول و حرص هو و خلفائه من بعده أن يجعلوا من اسلامبول – هذا هو الاسم الحقيقي بمعنى " دار السلام " و ليس استامبول كما نكتبها – عاصمة ثقافية و سياسية لدولة الخلافة ، و طبيعي أن يؤثر ذلك على القاهرة و الأزهر . كذلك فإن نظام " القضاء العثماني " الذي طبقه السلطان سليمان القانوني منذ عام ١٥٢٣م جعل سلطة القضاء في يد قاض عثماني حنفي المذهب – و كان القضاء قبل ذلك يتولاه أربعة قضاه على المذاهب الأربعة من علماء الأزهر . و كان منصب قاضي المذهب أو مفتي المذهب منصبا كبيرا يسعى إليه العلماء و يبذلون في سبيل الحصول عليه جهدا علميا و يعدون أنفسهم إعدادا دينيا مناسبا له . و يحدثنا الجبرتي طويلا عن أسماء علماء المذهب و لا شك أن نظام القضاء العثماني قد حرم الأزهر من أحد مجالات التفوق العلمي و المكانة الأدبية التي كان يحتلها قضاة المذاهب الأربعة . كذلك فإن العثمانيين قد شجعوا حركة التصوف أما لأنهم دخلوا الإسلام عن طريق التصوف و ليس الفقه و أما لأنهم وجدوا في التصوف حركة عاطفية يحاربون بها المد الشيعي الزاحف أو لأن التصوف يشغل الناس عن واقعهم و يشغلهم بجهاد النفس . ولقد ساد هذا الاتجاه الصوفي في مصر العثمانية و دخل الأزهر و ساعد على فساد العقلية الأزهرية . و يروي الجبرتي كثيرا من الخرافات و الكرامات و الدروشة عن كثير من علماء هذا العصر . كذلك فإن اللغة التركية و ليست العربية كانت اللغة الرسمية لدولة الخلافة مما أثر تأثيرا سيئا على اللغة العربية و آدابها . كذلك فإن المراكز العلمية و الدينية و القضائية قد دخلتها المحسوبية و الرشوة حتى الإجازات الدراسية كانت تعطى على أساس من القرابة أو المعرفة فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن الخلافة العثمانية ظلت مشغولة بحروبها ضد أوروبا مرة لنشر الإسلام و مرة لمجرد حماية أراضيها لأدركنا كيف اجتمعت تلك العوامل لتحدث انحطاطا ثقافيا في مصر و في أهم مراكزها الثقافية و هو الأزهر . و رغم ذلك التأخر الثقافي فقد وجدت بعض العلوم العقلية بالأزهر .

و يذكر لنا الجبرتي كيف أن بعض علماء الأزهر كانوا يدرسون العلوم الدينية و العقلية معا كالشيخ حسن الجبرتي و الشيخ الدمنهوري و غيرهم . أي أنه

حتى في هذا العصر العثماني لم يحدث هذا الفصل الكامل بين العلوم الدينية و العلوم العقلية . و لم تخرج تلك العلوم العقلية من الأزهر خروجا كاملا . فضلا على أن ننظر إلى الأزهر و كأنه لا شأن له بتلك الدراسات .

من كل ما سبق نرى أن محمد علي هو أول من أحدث هذا الفصل الكامل بين علوم الدين و مكانها الأزهر . و علوم العقل و مكانها المدارس و المؤسسات التعليمية الحديثة . و كان هذا الفصل هو أكبر حدث في تاريخ مصر الحديث من الناحية الثقافية و الحضارية . ولم يدرك محمد علي العسكري الأمي أبعاد هذا السلوك الثقافي و لم يدرك معه علماء الأزهر خطورة هذا الانقلاب الثقافي . ربما ظنا منهم أن علومهم الدينية هي أشرف العلوم و كفاهم أن يستقلوا بتلك العلوم و أن يكونوا بأزهرهم بعيدا عن يد الوالي و نفوذه و سلطانه . و لعلهم لم يدركوا أثار هذا الانقلاب طالما ظلوا هم أساتذة اللغة العربية و الدين ورجال الشريعة في البلاد . حتى امتدت يد المؤسسات الحديثة (مدرسة العلوم ١٨٧٢ . مدرسة القضاء الشرعي ١٩٠٧ . الجامعة المصرية ١٩٠٨) تنازعهم تلك التخصصات التي ظلت حكرا لهم . هنا فقط استيقظ الأزهريون إلى خطورة الوضع الذي وصلوا إليه و لكنها كانت صحوة متأخرة قد شابها الغضب للدنيا أكثر من غضبهم للدين .

و الدليل على ذلك أن خطوات الإصلاح التعليمي في الأزهر ظلت خطوات متعثرة و لم ترتفع حتى اليوم إلى مستوى رسالة الأزهر الحقيقية و دوره في الحياة المصرية و تلك قصة أخرى تستحق الدراسة و البحث لأهميتها في حياتنا الثقافية و الحضارية من جميع الوجوه .

و لذا كان محمد علي أول من بدأ بعزل الأزهر رسميا عن علوم العصر إلا أن تلك العزلة لم تتم بالكامل في عصره . و ذلك أن محمد علي قد استعان بالكثيرين من أبناء الأزهر سواء في بعثاته التي أرسلها إلى الخارج أو في مدارسه كطلاب و كمدرسين . و لذلك فإن اتجاه التحديث الذي بدأه محمد علي لم ينفصل بالكامل عن الأزهر و عن الروح الإسلامية و الشرقية . و تؤكد الشواهد التاريخية أن محمد علي رغم أميته لم يكن يحب التقليد الغربي في أمور الحياة اليومية من

ذلك أنه عندما سمع أن أحد الطلاب المبعوثين إلى إنجلترا قد ارتدى الزي الأوروبي غضب و قال : نحن لم نرسله لكي يرتدي الزي الأوروبي و يقلد الأجانب و إنما لكي يتعلم إدارة المصانع و الشركات .

و لقد كان محمد علي في ذلك مخالفا لاتجاهات أبناء أسرته من بعده : سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) و إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) الذين فتنوا بالغرب و أرادوا أن يجعلوا من مصر قطعة من أوروبا في حياتهم اليومية . و هنا لا بد أن نفرق بين وجهتين في التحديث : ***الوجه الأول :*** أن يتم التحديث مع الأصالة و الرجوع إلى المصادر الأولى لحضارتنا و هي الإسلام . و هذا ما لم يفعله محمد علي بالكامل و لكنه كان أكثر احتراما لتقاليده و شرقيته كما سبق أن ذكرنا . ***و الاتجاه الثاني :*** الذي سيطر بعد محمد علي منذ سعيد و إسماعيل و هو أن يتم التحديث بعيدا عن روح الأصالة و في غيبة الإسلام أو عزله عن الحياة .

و هناك فارق كبير بين دعوات رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) وجمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) و محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) إلى تحديث مصر و دعوات طه حسن و لويس عوض و سلامة موسى إلى هذا التحديث . لقد كان رفاعة رافع الطهطاوي و جمال الدين الأفغاني و محمد عبده أصدق قولا و أصوب رأيا و أكثر إخلاصا عندما أدركوا منذ اتصالنا بالغرب و حضارته أن الأصالة والعودة إلى الإسلام هي طريقنا الوحيد إلى التقدم . و أننا لابد أن نستمد مثلنا العليا في السياسة و الاقتصاد و الاجتماع و العمران من الإسلام . لقد أدرك هؤلاء الرواد الأوائل بحق أن أوروبا قد سبقتنا في ميدان العلوم و الحضارة و أننا مطالبون أن ندرك أوروبا حتما إذا أردنا الحياة مجرد الحياة . و لكن هؤلاء الرواد الأوائل أكدوا في أكثر من موضع من كتاباتهم أن طريقنا إلى النهوض ليس بتجاهل الإسلام و إنما بالسير به و معه حتى نحقق التقدم في جميع المجالات . لقد كرر هؤلاء الرواد الأوائل في كتاباتهم في أكثر من موضع أن الإسلام هو الطاقة الهائلة التي تستطيع أن تحرك الجماهير من ناحية و أن تضع الحدود التي ينبغي ألا يتجاوزها أهل الحل و العقد من ناحية أخرى . و الإسلام الذي دعا إليه هؤلاء الرواد الأوائل هو الإسلام الذي يحقق الشورى في ميدان السياسة و العدل في ميدان

الاقتصاد و الطهارة في ميدان الاجتماع و القوة و العزة في ميدان العلاقات الدولية و هذا ما عجز المثقفون المستغربون أن يحققوه لمصر في ظل الاتجاه الرأسمالي الليبرالي أو الاتجاه الاشتراكي إلى غير ذلك من الاتجاهات المستوردة و المفروضة في غيبة الإسلام المصفى .

و لقد قوى الاتجاه الإسلامي في التحديث و اشتد في أواخر عصر إسماعيل بفضل تواجد شخصية ثورية في مصر و هو جمال الدين الأفغاني الذي مكث في مصر من عام ١٨٧١-١٨٧٩ و أخذ شكل معارضة قوية للنفوذ الأوروبي في مصر . و لكن إنجلترا و فرنسا تتنبهان إلى خطورة هذا الاتجاه و تتهمان إسماعيل نفسه بالتواطؤ مع الأفغاني و تسعى لدى الباب العالي لعزله و توليه ابنه توفيق بدلا منه . و يستجيب الباب العالي لمطالبهما فيعزل الخديوي إسماعيل و يولي توفيق الذي يبدأ بطرد جمال الدين الأفغاني من مصر في نفس العام ١٨٧٩ بتحريض من قنصل إنجلترا في مصر .

و لكن هذا الاتجاه الإسلامي في التحديث يتمثل في محمد عبده و يأخذ صورة عسكرية في الثورة العرابية عام ١٨٨٢ و الذي تدخلت القوات الإنجليزية لإخماده و إجهاضه لما يمثله من خطر على المصالح الاستعمارية الأوروبية في ذلك الوقت . و ظل الاستعمار البريطاني في مصر ليتولى بنفسه مهمة إجهاض هذا التيار الإسلامي و إحلال تيار علماني بديل بعيدا عن الإسلام و ثوريته . و رغم وجود الاحتلال البريطاني يرتفع صوت مصطفى كامل و حزبه الوطني و الذي يمزج كفاحه بثوب إسلامي لا يرضى عنه الاحتلال .

و طبيعي أن هذا الاتجاه الإسلامي في التحديث لم يكن هو الاتجاه الذي يرضى عنه الإنجليز أو يمكن أن تتركه إنجلترا لكي يشتد عوده في البلاد . و لذلك فإن بريطانيا كانت تؤيد الاتجاهات العلمانية التي تفصل الإسلام عن ا لدولة ممثلة في هذا الشعار الجديد مصر للمصريين و الذي رفعه حزب الأمة عام ١٩٠٧ و كان أحمد لطفي السيد و جريدته الجريدة هو لسان تلك الدعوة و يسير سعد زغلول و حزب الوفد منذ عام ١٩١٨ على هذا الخط الذي تجسد أخيرا في دستور

عام ١٩٢٣ و الذي يمثل السيطرة الشرعية للاتجاه العلماني على مصر . ثم كان إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا عام ١٩٢٤ هو الفصل الأخير في سيادة هذا الاتجاه في مصر . حيث عارض الوفد و كل الأحزاب المصرية فكرة إنشاء خلافة إسلامية بديلة للخلافة العثمانية التي قضى عليها كمال أتاتورك و إذا كان دستور عام ١٩٢٣ يمثل إعلانا رسميا و شرعيا للعلمانية في مصر . و محو الخلافة من العالم الإسلامي منذ عام ١٩٢٤ يمثل تأكيدا لهذا الإعلان الرسمي إلا أن ذلك كله إنما كان محصلة طبيعية للظروف الثقافية التي سادت مصر منذ الإحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢ و حتى إعلان هذا الدستور عام ١٩٢٣ .

لقد أدرك الاحتلال البريطاني منذ البداية ثورية الإسلام و ثورية الأزهر ممثلا في موقفه من تأييد الثورة العرابية و يعترف " كرومر " الحاكم الإنجليزي العام في ذلك الوقت أنه كان يدرك أن كل أزهري من أصغر شيخ في الكتاب إلى أكبر شيخ في الأزهر ضد الاحتلال ووجوده في مصر و يرى كرومر في كتابه "مصر الحديثة" أن الإنجليز كانوا أصحاب رسالة حضارية تحديثية في مصر و أن الأزهريين كانوا يرفضون تلك الرسالة الحضارية . و الواقع أن الإنجليز قد حكموا مصر حكما استعماريا مطلقا لصالحهم عن طريق تعيين مستشار إنجليزي لكل وزارة من الوزارات و كان هذا المستشار الإنجليزي هو صاحب النفوذ الحقيقي في البلاد . و لما كانت المحاكم الشرعية و الأوقاف و الأزهر خارج دائرة نفوذهم فقد سعوا للقضاء على نفوذها و أبعادها عن الحياة المصرية . و لقد هاجم " كرومر " الإسلام كدين و اتهمه بالقصور في النواحي الاجتماعية و رأي استحالة إصلاح الإسلام أو تحديثه ليوافق العصر و اتهم دعاة الحركة الإسلامية بأنهم قوم واهمون أو خياليون يتعلقون بذكريات تاريخية لا يمكن أن تعود .

أما عن الأزهر فقد أعلن كرومر أن تعليمه لا يفيد و لا جدوى منه ذلك أنه تعليم للآخرة و ليس للدنيا و لذلك فإن التعليم الأزهري كله لا يفيد في تحديث مصر و أن على مصر أن تلتمس التعليم في مكان آخر إذا أرادت أي نهوض . و بذلك يكون الاحتلال البريطاني من عام ١٨٨٢ و حتى ١٩٢٣ هو القوة الثانية بعد محمد علي و أسرته التي مارست و أكملت سياسة عزل الأزهر على العلوم العقلية

و أكدت هذا الاتجاه الذي يفصل بين التعليم الأزهري - تعليم الدين - و تعليم المدارس و الجامعات - تعليم العلوم الحديثة .

و حتى يتأكد هذا الاتجاه فإن سلطات الاحتلال عمدت إلى " دار العلوم " و التي ظلت تأخذ طلابها من الأزهر من عام ١٨٧٢ حتى ١٨٨٥. و كانت برامجها دينية و عقلية في نفس الوقت . و كان خريجوها يعملون كمدرسين للمواد المختلفة : لغة عربية و علوم و رياضيات . و كانت تلك المدرسة تعد نموذجا لالتقاء التعليم الديني و التعليم الحديث ، و لكن سلطات الاحتلال استغلت ضعف المستوى التربوي لتلك الدار و عمدت إلى إنشاء " المدرسة التوفيقية " عام ١٨٨٥ لتخريج مدرسي اللغات الأوروبية و الرياضيات و التاريخ و الجغرافيا و العلوم و تركت " دار العلوم " لتكون قاصرة على تدريس اللغة العربية و الدين فقط إمعانا في ترسيخ فكرة فصل الدين و مؤسساته المختلفة عن الحياة و علوم العصر . و لم يكتف الاحتلال بعزل الأزهر و المؤسسات التي تعتمد عليه " دار العلوم " بل سعى إلى القضاء على نفوذه في الحياة المصرية و ذلك بإنشاء " المحاكم الأهلية " عام ١٨٨٧ م . و كانت تلك المحاكم تطبق القوانين الفرنسية و تفصل في أغلب القضايا بحيث لم يترك للمحاكم الشرعية إلا ما يتصل بالأحوال الشخصية و الميراث . و في عام ١٨٨٩ زاد عدد تلك المحاكم الأهلية و انتشرت في البلاد و قل شأن المحاكم الشرعية بالتدريج حتى حاول الإنجليز إلغاء تلك المحاكم نهائيا بدعوى تخلفها و فساد سير العمل فيها . و لكن تلك المحاولة فشلت بسبب معارضة الخديوي عباس و شيخ الأزهر . كذلك فإن وضع مدرس اللغة العربية و الدين ظل وضعا سيئا سواء من الناحية المالية أو الأدبية طوال فترة الاحتلال إذ بينما كان أقصى ما يصل إليه مرتب مدرس القرآن مثلا هو ٧٢ جنيها مصريا في العام كان مرتب مدرس الإنجليزي من ٢٨٨ إلى ٣٨٤ جنيه مصريا في العام بل وصل راتب مدرس القانون غير المصري إلى ٦٠٠ و حتى ٨٠٠ جنيه مصري هذا بجوار إهانة " المعلم المصري " بصفة عامة أمام مسامع الطلبة و تخصيص غرفة خاصة للمعلمين الإنجليز و أخرى للأساتذة المصريين فلا يجتمعون و لا يتعاشرون . و إذا كان هذا هو نصيب المعلم المصري بصفة عامة

في ظل الاحتلال الإنجليزي فقد كان نصيب " معلم العربية و الدين الإسلامي " بالذات الحظ الوافي من الإهانة و الاحتقار .

و إذا كانت تلك هي الخطوط العريضة للسياسة التعليمية الإنجليزية في مصر طوال فترة الاحتلال من ١٨٨٢ حتى ١٩٢٣ فإن النتيجة الطبيعية لذلك هي أن تعزل طبقة الأزهريين و أن تقع كل مقدرات البلد السياسية و الاقتصادية والاجتماعية في يد طبقة الأفندية و بالذات أولئك الذي مالوا إلى " التيار العلماني " حتى كانت الغلبة في النهاية لهذا التيار الذي مكن له في عهد الاحتلال و الذي أصبح واقعا رسميا في مصر عام ١٩٢٣ . و لذلك لا يعجب الدارس لتاريخ التربية في مصر عندما يجد أن " وزارة المعارف المصرية " عندما تحاول أن تطبق المادة ١٩ من دستور ١٩٢٣ و التي تنص على أن : " التعليم الزامي للمصريين من بنين و بنات و هو مجاني في المكاتب العامة " فأنها لا تلجأ إلى استغلال " الكتاتيب " في حركة نشر التعليم الأولى في مصر رغم انتشار تلك الكتاتيب في مصر انتشارا واسعا بحيث لا توجد قرية في مصر بدون كتاب و رغم ذلك فان " وزارة المعارف " بدلا من أن تتعاون مع الأزهر و بدلا من استخدام تلك الكتاتيب في تحقيق أهدافها ترى أن تلك الكتاتيب لا جدوى منها على الإطلاق .

و تلجأ إلى تكليف " الميزانية المصرية " أعباء جديدة لإنشاء " مدراس أهلية " و هو خطأ قومي من جميع النواحي التربوية و الاقتصادية و سلوك شاذ ليس له ما يبرره إلا سيطرة الاتجاه العلماني على العقلية المصرية في هذا الوقت و الذي يتابع حركة التعليم في مصر بنوعيه الأزهري القديم و المدني الحديث و يقارن بين التعليمين سواء من حيث الميزانية و الإمكانيات المتاحة لكل تعليم و المدخلات و المخرجات لهما منذ عام ١٩٢٣ و حتى عام ١٩٥٢ فسوف يرى فعلا نتائج سيادة هذا الاتجاه العلماني و أثره على التعليم في مصر خلال تلك الحقبة التاريخية . و رغم كل ما يقال في تبرير الاهتمام بالتعليم المدني " التعليم الحديث " فإن ذلك لا يمكن أن يخفي " التوجيه العلماني " للتربية في تلك الفترة . و قد أثبت واقعنا الحالي أن مصر لم تكن أقل حاجة إلى " التعليم الديني الصحيح " منها إلى التعليم الحديث . و أكد واقعنا المصري منذ الاستقلال عام ١٩٢٣ حتى اليوم أن

التعليم الديني الصحيح لم يعد ضروريا فقط لرجل الدين بل هو ضرورة لكل مواطن إذا أردنا نهضة مصرية حقيقية تمتد إلى جذور الشعب المصري و تحركه عقائديا و فكريا و حضاريا .

و إذا كانت الملكية و الأحزاب المصرية من عام ١٩٢٣ حتى ١٩٥٢ هي القوة الثالثة التي مكنت للعلمانية في مصر و جسدتها في دستور ١٩٢٣ بعد فترة احتلال طويل ساعد على ذلك فإن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت هي القوة الرابعة التي حمت هذا الاتجاه و حالت دون " المد الإسلامي " الذي ظهر ممثلا في " الشبان المسلمين " ثم " الإخوان المسلمين " و غيرهما من الجماعات الإسلامية . و رغم محاولة رجال الثورة أن يكسبوا ود الأزهر و رجاله في بداية الثورة من ذلك أن محمد نجيب يحرص على أن يكون شيخ الأزهر الخضر حسين هو أول من يفتتح احتفال إعلان الجمهورية في ١٩٥٣/٦/١٩ . كذلك حرصهم على أن يزوروا الأزهر و يؤدوا فيه صلاة الجمعة من وقت لآخر و كذلك بداية خطبهم الشعبية باسم الله و أداء جمال عبد الناصر لفريضة الحج في ١٩٥٤/٨/٧ و الدعوة إلى إقامة " مؤتمر إسلامي " بالقاهرة . إلا أن تلك المظاهر لا يمكن أن تحجب اتجاه الثورة العلماني الذي أكده زعماؤها أنفسهم ممثلا في رفضهم فكرة إقامة " دولة إسلامية " بالمعنى الذي كان ينادي به " الإخوان المسلمين " في ذلك الوقت كذلك حلهم للإخوان المسلمين في أكتوبر ١٩٥٤ و إلغاء المحاكم الشرعية في سبتمبر ١٩٥٥ إلى غير ذلك من تبني نظريات و أيدلوجيات سوى الإسلام .

و لقد كان حصاد العلمانية في مصر عبر تاريخها الحديث أن فصل السياسة عن الإسلام لم يفرز لنا إلا أنظمة فاسدة تتحكم في ظل أحزاب فاسدة مرة ١٩٢٣-١٩٥٢ و في ظل سيطرة الاتجاه الواحد ثم الحزب الحاكم ١٩٥٢- حتى اليوم مرة . و فصل الاقتصاد عن الإسلام قد سبب لنا انهيارا اقتصاديا و إفلاسا تشهد به مؤتمراتنا الاقتصادية سواء في ظل الاقتصاد الحر (١٩٢٣-١٩٦٠) أو الاقتصاد الاشتراكي (١٩٦١-١٩٧١) أو الاقتصاد ذو الباب المفتوح (١٩٧١-حتى الآن) . لقد توارى " المثل الأعلى الإسلامي " لدى كافة القيادات و أصبح أكثر اختفاء لدى الشعوب عندما فصلت بالتدريج عن إسلامها . و هذا في اعتقاد البحث هو سر الأزمة الأخلاقية في مصر و التي حاولنا أن نتتبع جذورها التاريخية . إن

جذور الأزمة الأخلاقية في مصر هي أن الغالبية العظمى من الشعب تريد الإسلام و تحبه و تعشقه عاطفيا و إن كانت لا تدرك حقائقه عقليا وواقعيا . في نفس الوقت فإن مقدرات الحكم و القيادة و التوجيه قد وقعت لفترات زمنية طويلة في أيد قد أشربت ثقافة غير إسلامية و مثلا و عادات و تقاليد غير إسلامية بحكم تربيتها و ثقافتها العلمانية . و لقد أشاعت تلك القلة المتحكمة في مقدرات البلاد جوا من النظم و القيم و العادات و التقاليد يخالف رغبة الغالبية العظمى من الشعب . و لما كانت هذه الغالبية العظمى عبر تاريخنا الحديث الطويل منذ الاحتلال حتى الآن أقل ثقافة و أقل نفوذا و سلطانا فقد عاشت تلك الغالبية حياة الرفض لهذا " الواقع الجديد " و اتسم هذا الرفض للأسف الشديد بالسلبية الكاملة و الاعتزال بدلا من التصدي لهذا الواقع الجديد . و كان أن اشتد ساعد هذا " الاتجاه العلماني " . و تحكم تحكما كاملا في مقدرات الأمور بحيث لم يسمح لأي اتجاه إسلامي أن يفرض نفسه أو يحرك الجماهير حركة إسلامية صحيحة . من أجل بعث إسلامي يشمل كافة الميادين . و من سوء الحظ أن رجال الثقافة الإسلامية لم يرتفعوا في تلك الفترة إلى مستوى التحدي و لم يستطيعوا أن يحولوا هذا المد الاستغرابي إلى مد إسلامي أصيل .

لقد ضاع صوت جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و محمد رشيد رضا و ظلت أصوات لطفي السيد و سعد زغلول و مصطفى النحاس و كل دعوات الوطنية ثم القومية التي تبعد الإسلام عن ساحة الحياة اليومية للناس و ترده في أحسن الحالات إلى شعائر و عبادات و طقوس . لقد كانت الغلبة السياسية و الاقتصادية و التربوية و الإعلامية للمثقفين المستغربين على حساب الإسلام و رصيده الجماهيري العظيم . و تم عزل الإسلام تدريجيا و بنجاح منقطع النظير عن ميادين السياسة و الاقتصاد و الاجتماع . و تحدد دوره بيد القلة المثقفة المتحكمة في أضيق نطاق : نطاق العبادات و الشعائر دون الأخلاق و النظم السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . و كانت تلك العزلة من أكبر عناصر المأساة الأخلاقية في حياة مصر حكومة و شعبا و ما زالت عناصر كثيرة من تلك المأساة تفرض نفسها على واقعنا المعاصر حتى اليوم . إن شعوبا هنا و هناك قد بدأت مثلنا تاريخها الحديث و هي مبهورة بحضارة الغرب و تفوقه مثل اليابان و الاتحاد

السوفيتي و الصين و من قبلهم الولايات المتحدة الأمريكية . و لكنهم أدركوا فيما بعد و قبل أن ندرك نحن هنا في مصر أن النموذج الغربي في التمدن لا يستطيع أن يقدم لهم إلا قشرة خارجية من الحضارة المادية يدفعون ثمنها زلزلة في القيم و العادات و المثل العليا التي ينبغي لها أن تستمر . و من هنا فإن تلك الدول راحت تدعم هويتها و تبحث عن ذاتها فكان لها ما أرادت من تقدم و نهوض في ظل الأصالة والعودة إلى الذات . أما في مصر فما زلنا للأسف الشديد لم نرجع بعد إلى ذاتنا الإسلامية الأصيلة . و إن كانت نسبة عالية من مثقفي اليوم قد بدأت تدرك حقيقة الإسلام . و بدأت تحتل أماكن القيادة و التوجيه و مراكز صناعة القرار كذلك فإن عددا من أصحاب الثقافة الإسلامية قد بدأوا يدركون ضرورة تحركهم من جديد لإنقاذ مصر من هذا الضياع الطويل و هذا التخبط بحثا عن الذات و إن كانت جهودهم ما زالت أقل من الواجب المفروض عليهم كما و كيفا حتى اللحظة الراهنة .

إن أزمة التربية الخلقية في مصر سوف تنفرج حتما في تصور البحث عندما يزداد وعي هذا الشعب بحقائق هذا الدين و تطبيقاته في جميع الميادين سياسة و اقتصادا و اجتماعا . و عندما يزداد عدد المثقفين ثقافة إسلامية واعية و عندما يزداد عددهم في أماكن التأثير و التوجيه . إن الإسلام الحقيقي في تصور البحث هو الذي سيخلق الظروف الطبيعية لكي يجد شباب مصر القدوة الصالحة في حكامه و قواده و معلميه و موجهيه . و الإسلام الحقيقي في تصور البحث هو الذي سيحدث تغييرا جذريا في مدارسنا و جامعاتنا و صحافتنا و إذاعتنا و تليفزيوننا و كل وسائل الإعلام لدينا . و الإسلام الحقيقي في تصور البحث هو الذي سيحقق لنا مكاسب حقيقية في مجالات السياسة و الاقتصاد و الاجتماع و العمران و يخلق أجيالا جديدة تعيش الإسلام و تعيش من أجل الإسلام و يمكنها بالفعل أن تخلق المجتمع الإسلامي المنشود الذي يقدم النموذج الحي للإسلام . و بذلك يكون لنا دورنا في العالم العربي و الإسلامي بل في عالمنا المعاصر كله المتطلع إلى حل لأزمته الأخلاقية و الحضارية .

تواجه مصر أزمة أخلاقية حادة . ناقش موضحا الجذور الحقيقية لتلك الأزمة ؟

تواجه دول العالم معضلة تمويل التعليم بدرجات متفاوتة من تأزم تلك المعضلة ، و قدرة تلك الدول علي مواجهة تلك الأزمة ، و مع ازدياد عدد المعلمين على مستوى العالم كله ، و ازدياد تكلفة التعليم باستمرار لازدياد تكلفة بناء المؤسسات و تقديم الخدمات التعليمية المختلفة من حيث كم تلك الخدمات و كيفها ، فإن تلك الدول تلجأ إلى أساليب عديدة لتمويل التعليم بجوار الإنفاق العام الذي يأتي من خزينة الدولة ، سواء من خلال التبرعات أو الهبات أو الوصايا ، أو من خلال إلزام قطاع الأعمال بتقديم نسبة معينة من أرباحها لميزانية التعليم على أساس أن التعليم هو الذي يمد القطاع بقواه العاملة ، أو عن طريق عقود البحث بين الجامعة أو أحد أقسامها و الشركات الصناعية ، و هو ممارسة شائعة في الدول المتقدمة و خاصة الولايات المتحدة الأمريكية . إلى غير ذلك من الأساليب العديدة التي تلجأ إليها الدول لتمويل التعليم .

و هناك أساليب عديدة لمواجهة مشكلة تمويل التعليم تلجأ إليها العديد من الدول ، ويمكن إيجاز تلك الأساليب فيما يلي :

(١) : الضرائب :

تختلف المصادر باختلاف الدول و درجة تقدمها و اهتمامها بتعليم الكبار ، ففي السويد على سبيل المثال يدفع أصحاب الشركات و المصانع ضريبة خاصة تستخدم في تمويل التدريب المهني و الصور الأخرى لتعليم الكبار ، و في فرنسا توجد ضريبة إجبارية تستقطع من رواتب الموظفين تستخدم في تمويل التدريب ، و في المملكة المتحدة في الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٣ نظام إجباري لتقديم التبرعات ، يتم فيه إجبار أصحاب الشركات و المصانع على دفع ضريبة

خاصة للتدريب ، و تم استبدال هذا النظام في عام ١٩٧٣ ، بنظام الإعفاء من هذه الضريبة مقابل قيام أصحاب الشركات و المصانع بتمويل تدريب جيد كميا و كيفيا .

و في بلاد أخرى عديدة تقع مسئولية التمويل على المنظمات الدينية و الثقافية التطوعية أو منظمات المجتمع المحلي ، مثل الغرف التجارية و المنظمات السياسية و يمكن أن يمنح أصحاب الشركات و المصانع للعاملين لديهم ساعات غياب مدفوعة الأجر ، لكي يمكنوهم من الحضور في الفصول الدراسية ، كما يمكنهم دفع المصروفات الدراسية للالتحاق بتلك الفصول الدراسية للعاملين لديهم أو الالتحاق ببرامج التدريب عن بعد .

و مصدر آخر للتمويل هو قيام المتعلم نفسه بدفع النفقات الكلية لتعلمه ، و قد أكدت دراسة وول هولي أن ٥٥% من المشاركين في برامج تعليم الكبار يقومون بتمويل تعلمهم هم و أسرهم ، و أن ٢٥% من أصحاب الشركات هم الذين يمولون تعلمهم ، و أن ١٨% كان التمويل الحكومي هو المصدر الرئيسي لتمويل التعليم ، و توفر الحكومات هذا التمويل من خلال الضرائب العامة أو الخاصة ، و تشمل الضرائب العامة و ضرائب الدخل و ضرائب الإنفاق و الجمارك و المنح و القروض من دول أو من هيئات دولية ، أو من خلال الدخل الحكومي الناتج عن الاستثمارات ، و أرباح المؤسسات المملوكة للدولة ، و تشمل الضرائب الخاصة و الضرائب على الملكية المحلية أو السحب على أوراق اليانصيب .

و أوضح تقرير لليونسكو أن هناك ثلاثة مصادر رئيسية لتمويل البحث و التطوير في الدول العربية هي الميزانية الحكومية ، و الصناعات الوطنية ، و المؤسسات القومية للإنتاج أو الخدمات ، و المنح الأجنبية الثنائية و الإقليمية ، و المنح الدولية .

و فرضت كوريا الجنوبية بدءا من ١٩٨٢ ضرائب على بعض المنتجات ، و على دخول الأفراد من الاستثمارات و بلغت حصيلة هذه الضرائب عام ١٩٨٧

إلى حوالي ١٥% من ميزانية وزارة التربية ، و فرضت البرازيل ٢,٥% ضريبة على مرتبات الموظفين في القطاع الخاص من أجل التعليم الابتدائي ، و بلغت الضريبة المخصصة للتعليم العالي في الأردن حوالي ٤٠% من ميزانية الجامعات الأردنية ، و فرضت باكستان ضريبة على الموارد المستوردة تخصص للتعليم .

و للأسف فإن عالمنا العربي و الإسلامي كان يملك أداة ناجحة من أدوات تمويل التعليم و هي الأوقاف ، و التي قامت بدورها في نشر العلوم و المعارف في عالمنا العربي و الإسلامي عبر العصور فشيدت المدارس و الجامعات ، و مساكن الطلاب ، و وفرت لهم الرعاية الصحية و الموارد المالية اللازمة لحياتهم العلمية و لتفرغهم الكامل لطلب العلم . و لقد ازدادت تلك الأوقاف عبر العصور حتى شملت الأرض ، و الدور ، كما أشاعت روح الخير بين الناس إلى أن سيطرت الحكومات على تلك الأوقاف و تصرفت في مواردها على غير إرادة الواقفين ، فقل إقبال الناس على وقف أموالهم و حرم التعليم موردا شعبيا هائلا كان ينعم به عبر العصور .

(٢) : *نموذج التمويل الذاتي :*

يدفع الأفراد تكاليف التعليم المعاود من مدخراتهم ، أو من دخلهم الجاري ، أو من عوائدهم المستقبلية ، و هذا يتيح حرية اختيار الفرد للبرنامج التعليمي ، إلا أن هذا النموذج سوف يعكس توزيعا غير عادل للطلب على التعليم مدى الحياة إلا أنه يدعم الإطار الديمقراطي للنظام التعليمي .

(٣) : *نموذج حقوق السحب :*

يؤكد هذا النموذج على الحق في الاستفادة من الأصول المملوكة للفرد في نظام التأمين الاجتماعي الموسع لضمان الحصول على دخل أثناء فترات البطالة في ظل درجة عالية من الحرية الشخصية ، و هذا يتطلب إلزام جميع الموظفين بالالتحاق بنظام التأمين الاجتماعي ، حيث يصبح لهم الحق في السحب من حسابهم

بمقدار يساوي حجم أصولهم الفعلية أو المتوقعة ، و هذا النموذج يجعل أثار فترات العمل و البطالة مرنة ، و يدعم حرية اختيار الأفراد لتخصيص أوقاتهم و أنشطتهم ، و هو نظام إجباري عكس نظام التمويل الذاتي ، كما أنه لا يسمح إلا باستخدام نسبة محددة من المدخرات عكس التمويل الذاتي أيضا ، و هذا النظام يبدأ من خلال اللامساواة في فرص الادخار مما يعزز الفجوة بين الدخل و بين الاستثمار في التعليم و بين عوائد التعليم .

(٤) : *المنح أو القروض الفردية :*

يعطى كل فرد مبلغا من المال بعد الانتهاء من مرحلة التعليم الإلزامي للالتحاق بالتعليم قبل العمل و في أثنائه ، و هذا النموذج يتيح حرية الاختيار الفردي لنمط التعليم و وقته ، و هذا يساعد على تحسين العدالة الاجتماعية إلا أنه يزيد من الأعباء في الميزانية الحكومية .

(٥) : *نموذج تمويل صاحب العمل :*

و هو يعد امتدادا للتدريب أثناء العمل ، و لنظم التدريب المهني المستمر ، إلا أن برامج التعليم مدى الحياة تظل مرتبطة بطبيعة العمل ، مما يقلل فرص الحراك الاجتماعي للأفراد ، و هذا يؤدي إلى سوء تخصيص للتعليم ، إلى جانب أن هذا النموذج يستبعد العاطلين ، و أن قرارات العاملين سوف تتأثر بقرارات صاحب العمل و لن تتحسن العدالة الاجتماعية .

(٦) : *نموذج الصناديق الإضافية :*

و هي عبارة عن مؤسسات مستقلة ذات صبغة متوسطة بين الحكومية و الخاصة ، تتكون من العضوية الإجبارية لأصحاب العمل ، و هذه الصناديق لها الحرية في جمع و أنفاق الأموال على التعليم مدى الحياة ، و خاصة التدريب المهني الأولى ، و لإعادة التدريب (مثل مجالس التدريب الصناعي الجماعي في

أمريكا اللاتينية) و يتم جمع الضرائب ، و تدار بطريقة تشاركية من خلال مجالس إدارة مكونة من أصحاب الشركات و أعضاء الاتحادات التجارية ، و خبراء مستقلين ، و متخصصين في التربية ، و هذا النموذج يساهم في تحسين الكفاية الداخلية إلا أنه يستبعد العاطلين .

(٧) : نموذج تمويل الدول :

يتم من خلال توفير برامج حكومية و تقل حرية اختيار الفرد و قد تقلل المصالح السياسية من مشاركة المتعلمين في هذه البرامج .

(٨) : يقترح تقرير ديلور ١٩٩٦ ***فتح صناديق توفير للتعليم على أساس التناوب بين الزمن الذي يقضى في التعليم و العمل و التدريب*** ، عن طريق فتح حساب للتلميذ في بنك يقوم على إدارة رأس المال الزمني الذي اختاره التلميذ ، و يسانده التمويل المناسب ، و يسحب منه التلميذ وفقا لخبرته المدرسية ، و لاختياراته المهنية ، و يمكن أن يودع مبلغا من المال كنوع من الادخار يمكن أن يستخدمه .

(٩) : يقترح تقرير ديلور أيضا ***تمويل التعليم الأساسي المجاني عن طريق إسهام المجتمع المحلي في نفقات التعليم*** ، و توفير راتب للأطفال من الأسر الفقيرة ، للإسهام في التكاليف غير المباشرة التي تتحملها الأسر ، و قد تمثل عائقا بالنسبة للفقراء يحول دون مواصلة التعليم ، أو حتى الالتحاق بالتعليم الأساسي ، و كذلك ***منح قروض للفقراء شريطة أن يستمر الأبناء في التعليم ،*** و بالنسبة للتعليم يمكن تأجيل دفع المصروفات لما بعد التخرج و العمل ، و إذا كان هذا يقلل من فرص الهدر ويقلل من تكاليفه ، و يذكر التقرير أن إعادة الصف في البرازيل يتكلف ٢,٥ بليون دولار في السنة .

(١٠) : يشير تقرير ديلور إلى ***ضرورة أن يخصص للتعليم نسبة لا تقل عن ٦% من الناتج القومي الإجمالي*** ، و أن رفع فعالية تكاليف التعليم من خلال إطالة

السنة الدراسية ، و استخدام طرائق التعلم عن بعد ، و أن يطلب من أصحاب الأعمال أن يسهموا في رفع مهارات قوتهم العاملة ، و تنويع مصادر المعرفة بما فيها التكنولوجيات ذات الحجم الصغير رخيصة الثمن . و الاستفادة من التجارب التي تقدم التعليم المفتوح مثل المدرسة القومية المفتوحة في الهند التي تقدم برامج للتعليم الأساسي و الثانوي و العالي و التعليم المهني ، و كانت تكلفة الطالب أقل من ربع تكلفته في المدرسة النظامية ، و هذا يجعلنا ننظر إلى التعليم غير النظامي و صيغ التعلم من بعد نظرة تضعه في المكانة التي تجعله بمثابة القاطرة التي تسهم في حل المشكلات التقليدية المزمنة تنمويا و تعليميا .

(١١) : يمكن رفع كفاية التعليم دون إضافة أعباء مالية إضافية من خلال مراجعة فلسفة التعليم و أهدافه و بنيته و محتواه ، و برامج إعداد المعلم و معلم المعلم ، و يمكن أيضا عن طريق فتح القنوات بين التعليم النظامي و التعليم غير النظامي ، مثل السماح للتقدم للشهادات العامة لغير المنتظمين في التعليم النظامي ، انطلاقا من فلسفة التعليم المستمر الذي يعتمد على التعلم الذاتي مدى الحياة .

ما أهم الأساليب التي تلجأ لها الدول لتمويل التعليم ؟

الوقف الإسلامي : مصدر لتمويل التعليم :

الوقف THE TRUST يعني :

ما قاله الرسول صلى الله عليه و سلم لعمر رضي الله عنه :

(احبس أصلها وسبل ثمرتها) ، فالوقف بهذا النص يعني : عدم التصرف في الأصل الموقوف و التصرف في عوائده و استثماره في مجالات البر و الإحسان .

الأدلة على مشروعية الوقف في الإسلام :

الأدلة من القرآن :

حث القرآن الكريم في آيات كثيرة على فعل الخير و البر و الإحسان ، و هذا ما يعنيه و يهدف إليه الوقف ، و من الآيات الكريمة الدالة على استحسان الوقف ما يلي :

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

(سورة آل عمران : آية ٩٢) و قال تعالي في (سورة الحج : آية ٧٧) :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾

و قال تعالي في (سورة البقرة : آية ٢٨٠) :

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ
لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

و قال تعالى في (سورة المائدة : آية ٣٥) :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي
سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

و قال الله تعالى في (سورة آل عمران : آية ١١٥) :

وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

هذه الأيات العظيمة و غيرها من كتاب الله العظيم أعظم دليل على مشروعية الأوقاف في الحياة الإسلامية و مشروعية ظهور هذا الجهاز و المؤسسة ذات النفع العام و الخاص بين فئات الأمة و التي عرفت بالأحباس أو الأوقاف ثم وزارة الأوقاف في الوقت الحاضر .

الأدلة القولية من السنة النبوية :

و تحقيقا للمعاني الفاضلة من الأوقاف فقد طبق ثم حث المصطفى صلى الله عليه وسلم على استحسان الوقف ، و من الأدلة على ذلك :

= قوله صلى الله عليه و سلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما غنم أرضا بخيبر :

" إن شئت حبست أصلها و تصدقت بثمرها "

= قال أنس بن مالك فلما نزلت الأية :(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)) قام أبو طلحة فقال يا رسول الله إن أحب أموالي بيرحاء و إنها صدقة لله أرجو برها و ذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بخ ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، و قد سمعت ما قلت ، و إني أرى أن تجعله في الأقربين ، فقال أبو طلحة : افعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة بين بني عمه و أقاربه .

= قوله صلى الله عليه و سلم : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية .. الحديث ، فالوقف صدقة جارية يبتغي الواقف أجرها في الدنيا و الأخرة .

إن نصوص الأحاديث الشريفة تدل على مشروعية الأوقاف لما لها من دور فعال و خير كبير بين المسلمين .

الأدلة الفعلية من السنة النبوية :

و تطبيقا لما حث عليه النبي صلى الله عليه و سلم من إجراء الوقف على أعمال البر و الخير ، فقد أسس أول مسجد في الإسلام " مسجد قباء " و هو أول وقف ديني في الإسلام . ثم المسجد النبوي الذي بناه بعد وصوله المدينة و أوقفه للعبادة . و في الحديث أنه صلى الله عليه و سلم قال : لبنى النجار في الحائط الذي بنى مسجده فيه : يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا فقالوا : لا ، و الله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . رواه البخاري بهامش فتح الباري ، ج٥ ، ص ٢٣٦ .

و أول وقف من " المستغلات الخيرية " ما وقفه النبي صلى الله عليه وسلم و هو سبعة حوائط " بساتين " ، و هي التي تركها مخيريق اليهودي ، الذي قتل في غزوة أحد ، و كان قبل موته أوصى بأمواله للنبي صلى الله عليه و سلم يضعها حيث يشاء ، فلما قتل قال عنه صلى الله عليه و سلم " مخيرق خير اليهود " فتصدق بها النبي صلى الله عليه و سلم أي أوقفها . و من هنا يتضح لنا مشروعية إقامة الأوقاف لصالح المسلمين سواء لعبادتهم مثل المساجد . أو للعمل الخيري بجميع أنواعه و لجميع المحتاجين إليه .

الأدلة الفعلية للصحابة والتابعين :

يقتدي الصحابة الأجلاء بقدوتهم و مثلهم الأعلى النبي صلى الله عليه و سلم لذا فعندما أقر الرسول صلى الله عليه و سلم لعمر و لأبي طلحة رضي الله عنهما بوقف ممتلكاتهما لأعمال البر و الخير توالى و تسابق الصحابة في الوقف . الذي كان يعرف بالصدقة و الحبس . فأوقف عثمان رضى الله عنه من أمواله . و على بن أبي طالب رضي الله عنه تصدق بأرضه " ينبع " حبسا و صدقة على الفقراء و المساكين و قد بلغ قطاف نخيلها في عهده رضي الله عنه حمل ألف بعير .

و لعلها المعروفة الآن بينبع النخل ، و كذلك وقف الزبير بن العوام بيوته على أولاده ، لاتباع و لا تورث و لا توهب ، كما شرط أن للمطلقة من بناته أن تسكن غير مضرة و لا مضر بها . فإذا تزوجت فليس لها الحق إلا ما لغيرها من ثمر الوقف . و كذلك سائر الصحابة و الصحابيات مثل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها و أسماء بنت أبي بكر ، و معاذ بن جبل و زيد بن ثابت و سعد بن أبي وقاص و خالد بن الوليد و غيرهم مما يدل على تسابق الصحابة و الصحابيات على البر و الخير في الدنيا و الآخرة إقتداء و اهتداء بسيد البشر صلى الله عليه و سلم .

و لهذا اندفع المسلمون عبر العصور إلى مزيد من الأوقاف لشتى الأغراض و منها التعليم و كانت أراضي الأوقاف الزراعية عند الفتح العثماني لمصر (٩٣٢هـ/١٥١٧م) حوالي ٤٠% من إجمالي مساحة مصر الزراعية ، بالإضافة إلى أن معظم العقارات من حوانيت و وكالات تجارية .. الخ كانت ملكا للوقف ثم عندما تسلم محمد علي الحكم كانت جملة أراضي الأوقاف ٦٠,٠٠٠ فدان من جملة مساحة الأراضي المزروعة بمصر و هي ٢,٥٠٠,٠٠٠ فدان كما شملت الأوقاف كل مناحي الحياة التي لا تنفق عليها الدولة . أو كانت تتم بعض المشاريع التي تنفق عليها الدولة ، فشارك الوقف – أو أنشأ – الطواحين و الأفران و مخازن الغلال و معاصر الزيوت و صهاريج المياه ، ووقف المال على كسوة الأيتام و الفقراء و المساكين و ترتيب الرواتب لهم و لغيرهم من العاملين في مرافق الدولة من ذوي الدخل اليسير ، كما اهتم الوقف ببناء خزانات الكتب و معاهد العلم و الكتاتيب و المدارس .. الخ ، كما شارك الوقف في حراسة البلاد من الأعداء ، و ذلك بالإنفاق على الثغور و تجهيز الجيوش ، كما شارك الوقف في مواجهة المستعمرين و حشد الكفاءات لعدم فرض سلطانهم ، و كان الفائض من الريع يعود إلى ناظر الوقف لمصلحة الوقف ، أو لتدويره في مشاريع أخرى .

و هناك علاقة وطيدة بين السياسة و الأوقاف في مصر ، فحين رفع الساسة يدهم عن التدخل في الوقف ، و ترك الوقف يدار وفق النظام الاجتماعي الذي ينظر إلى الخلل و الثلم في المجتمع فيسده ، حين رفعوا أيديهم عن الوقف ، كان الوقف على هذا الصورة المشرفة المذكورة آنفا . و لعل أول من تدخل في الوقف بصورة

سافرة في العصر الحديث هو محمد علي ثم من أتوا بعده . لا سيما فترة الثورة و ما بعدها ، حيث وصلت الأوقاف إلى أدنى مساحة لها ، و من يوليو سنة ١٩٥٢ إلى بداية السبعينات حدثت تغيرات جذرية في أوضاع الملكية الخاصة ، سواء في العقارات أو في الأراضي الزراعية ، تمثلت في القضاء على الملكيات الزراعية الكبيرة ، و توسيع الملكية الفردية الصغيرة و ظهور القطاع العام بصورة القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ الذي يقضي بإلغاء نظام الوقف على غير الخيرات ، فألغي الوقف الأهلي و هو الذري – و يعني به أن يقف الواقف الوقف على أهله و أولاده من بعده ثم الذين يلونهم – فإذا انقضى نسله انتقل هذا الوقف إلى الوقف الخيري العام . و بذلك أصبح الوقف في مصر قاصرا على الوقف الخيري فقط .

<u>إن إلغاء الثورة الأوقاف الأهلية بالقرار الجمهوري رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ ثم القرار رقم ٢٤٧ في ٢١ مايو لسنة ١٩٥٣ و القاضي :</u>

أولا : بوضع جميع الأوقاف الخيرية تحت نظارة وزارة الأوقاف ، لتولى هي إدارتها و تحصيل ريعها و إنفاقه في وجوه الخيرات .

ثانيا : تخويل وزير الأوقاف سلطة تغيير مصارف تلك الأوقاف و جعلها على جهات أولى دون تقيد بشروط واقفيها .

إنه بالأمر الأول تم القضاء على الاستقلال الذاتي لإدارة الوقف الخيري ، و بالأمر الثاني تم تسييس نظام الأوقاف برمته ، و تم وضعه في خدمة السياسة العامة للسلطة الحاكمة ، و كان ذلك في سياق الاتجاه العام الذي تبنته تلك السلطة لإحكام قبضة البيروقراطية الحكومية على كافة أشكال العمل الأهلي و أنشطته ومؤسساته الاجتماعية . إن تدخل الدولة في الوقف و تغيير الاعتبارية له ، إذ هو مال الله و حق الله و ليس مال الدولة أو حق الحكومة ، إن هذا التدخل أصاب النظام الفقهي للوقف حيث أعيد صياغته من جديد عبر سلسلة من القوانين و التشريعات التي أصدرتها الدولة ، و قامت المجالس المحلية و هيئات الاستصلاح

الزراعي بنهب الوقف الإسلامي و اغتصابه و طمس معالمه ، و هذا لا يجوز شرعا .

على أية حالة تم إضعاف وضع الوقف في مصر ، و بذا فرغ من مشاركته الحقيقية في دعم الاقتصاد القومي ، بل نص القانون ٣١ يناير لسنة ١٩٦٢ بتسليم الأوقاف و الأعيان إلى الهيئة العامة للإصلاح الزراعي و المجالس المحلية . و تفريغ وزارة الأوقاف للعمل الدعوى الإسلامي ، و من هنا ضعف الوقف عن القيام بالمشاركة في تحمل العبء البشري و المادي .

لماذا ضعف الوقف بعد الثورة ؟ وما أثر ذلك على التعليم ؟

ومن أبرز سمات الوقف المصري في عصر ما بعد الثورة :

(١) : ضعفه الكمي و النوعي و قلة الواقفين له .
(٢) : توجيهه إلى غير المجالات الاجتماعية الخدمية أو الاقتصادية أو الإنمائية ، إذ يصرف نسبة ٧٠% من الوقف لا سيما الجديد منه على المساجد .

إن هذا النظام الإسلامي الرائع قد تعرض في ظل الدولة القومية العلمانية إلى مزيد من النقد إذ أن علماء الاقتصاد اليوم ينظرون إلى الوقف نظرة مريبة ، فيرون فيه محاذير و أضرار بالنسبة إلى المقاصد الاقتصادية العامة ، لا تجعله لديهم من التدابير المستحسنة ، ***و خلاصة تلك المحاذير في نظرهم هي :***

(١) : أن الوقف يمنع من التصرف في الأموال ، و يخرج الثروة من التعامل و التداول فيؤدي إلى ركود النشاط الاقتصادي ، و يقضي على الملكية .

(٢) : إنه غير ملائم لحسن إدارة الأموال ، لانتفاء المصلحة الشخصية في نظار الأوقاف ، فلا يهتمون في إصلاح العقارات الموقوفة فتخرب .

(٣) : إنه يورث التواكل في المستحقين الموقوف عليهم ، فيقعد بهم عن العمل المنتج اعتمادا على موارده الثابتة ، و هذا مخالف لمصلحة المجتمع .

وجه الكثير من النقد لمؤسسة الأوقاف . ناقش موضحا وجهة نظرك .

ثم يرد عليهم الأستاذ الزرقا بقوله :

<u>و لا يخفى أن هذه المحاذير ، إذا سلم كلها أو جلها ، لا تسلم من الرد عليها بما يبرر فكرة الوقف ، ويرجح جانب المصلحة فيه :</u>

(أ) : المحذور الأول : يقابله ما في الوقف من مصالح البر و الخير التي تحيا به ، و ليس يصح وزن كل شئ بميزان الاقتصاد ، إذ ليس غاية الأمة مادية بحتة ، و هناك من المصالح العامة و الخدمات الاجتماعية التي تؤديها الدولة نفسها ، كالمعارف و سواها ، لا سبيل إليه إلا بتجميد طائفة من الأموال و العقار ، لتكون مراكز العلم و الثقافة ، و ينفق عليها عوضا عن أن تستغل ، لأن المحذور الاقتصادي في تجميدها ، يقابله نفع أعظم منه في الأغراض العامة التي تجمد ، أو تنفق الأموال في سبيلها .

(ب) : *المحذور الثاني* : يرد مثله في أعمال الدولة و عمالها ، و في الوصاية على الأيتام ، فكل من عمال الدولة ، و كذا الأوصياء لا يعملون لمصلحة شخصية تحفزهم على الإتقان و الإصلاح ، و القائمون على إدارة أملاك الدولة ليس لهم في حسن إدارتها و إصلاحها منفعة شخصية مادية ، تنقص بتقصيرهم و تزداد بعنايتهم ، و مع ذلك لا يصح الاستغناء عن أن تقتني الدولة أملاكها ، و توظف في أعمالها المالية و غيرها عمالا ، و كذا لا يستغني عن نصب الأوصياء و لكن يجب حسن الانتقاء في هؤلاء جميعا ، بحيث ينتخب للعمل القوي الأمين الذي يشعر ضميره بالواجب و التبعية ، و من وراء ذلك إشراف و حساب و قضاء و هذا ما أوجبه الشرع في إدارة الأوقاف و من يتولونها .

(ج) : *المحذور الثالث* : فيقال في الميراث فإن كثيرا ممن يرثون أموالا جمة ، يتواكلون عن الأعمال التي أفاد بها مورثوهم ما خلفوه لهم من ثروة ، و ينصرفون إلى الصرف و التبذير ، عن الجد المنتج و التوفير ، و لم يصلح هذا سببا لعدم الإرث ، ولو لم يكن المال الموقوف وقفا ، لأصبح إرثا و داهمنا فيه المحذور نفسه . و قد رأينا أن نظام الوقف في الإسلام له في الواقع من المنافع العملية و الخيرية ما يجل عن التقدير ، وليس الكلمة للاقتصاد وحده ، بل هناك مصالح عامة أخرى غير مادية ، لها شأن كبير في الوزن التشريعي .

لقد قام هذا الوقف بدوره في بناء حضارتنا الإسلامية عبر العصور وكفى أنه

قد حقق الأهداف التالية :

(١) : المساهمة في الوفاء بالحاجات الأصلية للفقراء و التي تتضمن الغذاء و الكساء و المسكن . الأمر الذي يرفع الكثير من الحرج و الشدة عن الفقير . إضافة إلى أن توفير تلك الحاجات يمكن أن يتخذ في ظل نظام الوقف طابعا منتظما و عاما بحيث يكون فاعلا في إيصال الأموال إلى مستحقيها . و مثال ذلك توفير المأوى للمشردين و ما يمكن أن يصاحبه من تقديم العناية الطبية و الإرشاد

الاجتماعي و الديني الذي ساعد الفقير على حماية جسده و عقله و عقيدته من آثار التشرد و المذلة إضافة إلى أنه يصاحب ذلك في حالة الأطفال المشردين توفير بعض ما فقدوه أو لم يتعلموه أصلا من التعليم الأساسي و التدريب المهني خاصة و أن الأماكن التي تتوفر فيها الحاجات الأساسية ستصبح في النهاية محط أنظار الفقير و منطقة جذب للمساكين و بالتالي يمكن من خلالها التعرف على احتياجاتهم مما يؤدي إلى تحويل المزيد من الموارد إليهم بما يرفع مستوى معيشتهم و يقلل الهوة بينهم .

(٢) : توفير حد أدنى من الطيبات للفقراء و التي تتضمن السلع و الخدمات التي تستهلك جماعيا كالتعليم و الصحة و البحث العلمي الأساسي . لتعليمهم و رفع مستواهم العلمي و الصحي و العقيدي بل و تدريبهم و جعلهم مواطنين صالحين منتجين ، و تقديم المزيد من الطيبات العامة للفقراء يعني في النهاية تقليل الفروق بينهم و بين الأغنياء خاصة و أن الفقير كثيرا ما يجد نفسه محجوبا عن الوصول إلى تلك الطيبات .

(٣) : المساهمة في تطوير العمل الخيري في المجتمع الإسلامي هذا العمل المتخصص الذي يرفع الإنتاجية و يزيد الابتكار ، و بالتالي نجد التنافس بين كل من الأوقاف التي خصصت كل منها لهدف ما خلال الإبداع و التطوير الأمر الذي يساعد على العمل و على المجتمع الخيري و على الفقراء الذين يعيشون فيه بالخير مما يؤدي إلى تضييق الفروق بين الطبقات .

(٤) : زيادة عدد قنوات العون و زيادة فاعليته دون تركيز مخل أو تفريط مقل الذي يزيد من فاعلية الجهود لرفع مستوى معيشة الفقير .

<u>ويؤكد باحث آخر على أهمية الوقف بقوله :</u>

(١) : أنه يساهم في توزيع جانب من المال على طبقات اجتماعية معينة فيعينهم على حاجاتهم و يوجد طلب على السلعة المشبعة لتلك الحاجات فتدور العجلة الاقتصادية .

(٢) : يسهم في حفظ الأصول المحتبسة من التلاشي و يعطي الأولوية في الصرف للمحافظة عليها و إنمائها قبل الصرف للموقوف عليهم و بذلك فهو ينظر إلى المستقبل و الحاضر .

(٣) : جريان الثواب للواقف حتى بعد انتهاء حياته و طي صفحة الأعمال .

(٤) : حفظ أجزاء من المال لتوزع على الأجيال القادمة .

و الغريب أنه في الوقت الذي تم فيه تفكيك هذا النظام الإسلامي فإن الأوربيين كانوا سباقين إلى الإفادة من هذا المنهج الإسلامي من خلال مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس و صقلية فأوجدوا نظام الترست " TRUST " على غرار الوقف الإسلامي فعرفوا بذلك وقف المكتبات و المدارس و دور الرعاية الاجتماعية حتى أصبحت هناك مؤسسات تعليمية عريقة تعتمد في تمويلها على هذا النظام بما يتوافق مع تطور المجتمع الغربي . فنجد الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا مثلا لها أملاك واسعة و عقارات في أفضل المواقع و مؤسسات تعليمية و صحية و غيرها . و مثل هذه المناشط المتصلة بحياة الكنائس أدت إلى شيوع العمل التطوعي حتى أصبح سلوكا أو جزءا من ثقافة سائدة و لم يعد ذلك العمل قاصرا على التبرع المادي و إنما قد يكون مشاركة في مناسبات اجتماعية تخص قطاعا من قطاعات المجتمع كتلك التي تنظمها دور العجزة و المعاقين و غيرها ، أو إسهام في حملة من الحملات التي ترمي إلى خدمة المجتمع في مجال من المجالات في الصحة و التعليم و الترفيه . و مع كل ما يمكن أن يقال عن العمل التطوعي في الغرب إلا إنه لا يخلو في بعض الأحيان من أغراض و منافع ذاتية إذ يتطلع بعض أولئك الذي يقومون بالأعمال الخيرية إلى اكتساب الشهرة و الجاه و اتخاذ هذه الأعمال وسيلة دعائية لأشخاصهم و مؤسساتهم فينظرون إليها على أنها جزء من نشاط العلاقات العامة الرامي إلى الترويج و التأثير في الرأي العام . و على كل حال فإن هذا العمل يشعر من يمارسه بالسعادة التي تدفعه إلى بذل المزيد .

و تعتبر أمريكا رائدة العمل الخيري في العالم و قد توالى هذا الدور من أول القرن الحالي ببلورة مفهوم المؤسسة الخيرية ، و في أمريكا اليوم أكثر من ٣٢ ألف مؤسسة خيرية عاملة نشطة بلغت ممتلكاتها في عام ١٩٨٩ أكثر من ١٣٧,٥ مليار دولار و قدمت من الأموال ذلك العام لعمل الخير حوالي ٨٠٠٠ مليون دولار و هذه الأرقام لا تحكي القصة كاملة لعمل الخير في أمريكا حيث أن إحصاءات عام ١٩٨٩ تكشف لنا أن مجموع ما أعطته هذه المؤسسات و تبرع به للغير يقدر بحوالي ١١٥ ألف مليون دولار و أن معدل التبرع ذلك العام للفرد الأمريكي الواحد بلغ ٥٠٠ دولار وهي نسبة ليس لها مثيل في أي بلد آخر .

المراحل التي مرت بها التجربة الأمريكية:

(١) في أواخر القرن الماضي أحدثت الثورة الصناعية في أمريكا تكدسا هائلا للثروات في أيدي عدد محدود نسبيا من العوائل الأمريكية ، و قد جمعت هذه الثروات من عرق العمال الذين عملوا في ظروف صعبة جدا تسمى بمصطلح اليوم لا إنسانية ، و بدأ التذمر يدب في صفوف الشعب و زاد الضغط على الحكومة أن تسن قوانين لحماية العمال ، في هذه الأجواء بادر كارنجي CARNEGIE الذي بنى ثروته من صناعة الصلب في تبزبورج عام ١٨٩٦ بوقفية بعشرات الملايين في وقفية ENDOW MENT و تبعه بعد سنوات قليلة عام ١٩٠٢ روكفلر الذي بنى ثروته من البترول بوقفية زادت على ١٠٠ مليون دولار خصصها للرعاية الصحية و الاجتماعية .

(٢) : في هذه الفترة كانت الحكومة الفيدرالية جادة في صياغة قانون ضريبة الدخل على الشركات و الأفراد و بعد سن القانون عام ١٩٠٦ و قيام مصلحة الضرائب تحولت تلك هذه الوقفيات إلى مؤسسات خيرية محمية من الضرائب بكل أشكالها .

(٣) : في أعقاب الحرب العالمية الأولى و قيام الثورة البلشفية في روسيا تنبه رجال الصناعة و المال و السياسة إلى هذا الخطر و رؤى أن أفضل وسيلة لحماية أمريكا من تذمر العمال و نقمتهم هي التوسع في فتح أبواب العمل الخيري و تشجيع الشركات و الأثرياء بإعفاءات كبيرة من الضرائب فزادت المؤسسات عددا و تضاعفت الهبات و الوقفيات بها حتى بلغت مئات الملايين منذ ذلك العهد المبكر .

(٤) : بعد الحرب العالمية الثانية ارتفعت الضرائب الفيدرالية على الدخول لمواجهة نفقات الحرب مما شجع الشركات إلى مزيد من التبرع للخير ، و حصلت على أثر ذلك زيادة كبيرة في عدد المؤسسات حتى بلغت الآلاف ، و كذلك بدأ أثر الحرب العالمية الثانية تظهر دور أمريكا العالمي و صحب ذلك التوسع في مجالات و نوع العمل الخيري على النطاق العالمي خاصة في المؤسسات الخيرية التي أنشأتها العوائل الثرية .

ويلاحظ أن الذين أنشأوا أول المؤسسات الخيرية مثل كارينجي و روكفلر كان لديهم قناعات واضحة أن ساحة عملهم الخيري هي العالم أجمع و أن اهتمامات مؤسساتهم هي تحسين حالة البشرية كافة THE WELL BEING OF MANKIND و حرصوا على ترك مجال واسع من حرية التحرك لمجالس الأمناء التي تدير هذه المؤسسات لتقرر في كل زمان أولويات العمل الخيري و مواطنه . و كما هو ملاحظ فإن دور مصلحة الضرائب و المشرع الأمريكي من ورائها نشط جدا من جانبين :

(*) التعمد في ترك أو إحداث ثغرات للتهرب من الضرائب حتى ينفذ منها الأثرياء و تستغلها الشركات فتوجه موارد الأمة إلى أبواب الخير ، فقد تكون في الدراسة و التعليم يوما ما ثم تنتقل إلى الرعاية الصحية أو الاجتماعية أو توفير السكن حسب الظروف .

(*) توفير الطمأنينة للواقفين و الموقوف عليهم في مقدرة مصلحة الضرائب و كفاءتها في مراقبة الهيئات و المؤسسات الخيرية لضمان سلامة أدائها و قيامها بدورها و تحقيق أهدافها مستقبلا و ذلك عن طريق التقارير التي على هذه المؤسسات تقديمها كل سنة لمصلحة الضرائب .

و ختاما : فإن الوقف الإسلامي قد قام بدوره الحضاري في تاريخنا الإسلامي الطويل حيث قدم جميع أنواع الخدمات التعليمية من إنشاء مؤسسات العلم و التعليم و المكتبات و مساكن الطلاب ، و الخدمات الصحية و المساعدات المادية ، بحيث أغنت الأوقاف الطلاب و المعلمين ، ووفرت لهم أفضل الظروف للإنتاج و الإبداع العلمي ، و لكن للأسف فقد تعرض الوقف في الفترة الأخيرة لبعض التوقف عن القيام بهذا الدور و نأمل أن يسترد في المستقبل حيويته من جديد و كما يقول أحد الباحثين و إذا جاز لنا أن نصف نظام الوقف بأنه " نهر الخير الاجتماعي " و أن نصف النيل بأنه " نهر الخير الطبيعي " فإن مركزية الدولة في مصر القديمة التي ضبطت مياه النيل و حافظت عليه ، تقابلها مركزية الدولة في مصر الحديثة التي ضبطت " نهر الوقف " و جففت منابعه أو كادت . الأمر الذي لم يكن في صالح المجتمع و لا الدولة .

تعد أمريكا من أكثر دول العالم أخذا بنظام الوقف الخيري . ناقش مع توضيح أثر ذلك على التعليم الأمريكي .

قراءات إضافية :

(١) : عبد الرحمن النقيب : ***بحوث في التربية الإسلامية*** ، ج١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(٢) : عبد الرحمن النقيب : ***بحوث في التربية الإسلامية*** ، ج٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

(٣) : عبد الرحمن النقيب : ***التربية الإسلامية رسالة و مسيرة*** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

(٤) : زغلول راغب النجار : ***أزمة التعليم المعاصر و حلولها الإسلامية*** ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٠ .

(٥) : محمد صابر سليم : ***الإنسان و مشكلات البيئة*** ، القاهرة ، بدون ، ١٩٨٦ .

(٦) : محمد نبيل نوفل : ***التعليم و التنمية الاقتصادية*** ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(٧) : مقداد يالجن : ***التربية الأخلاقية الإسلامية*** ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

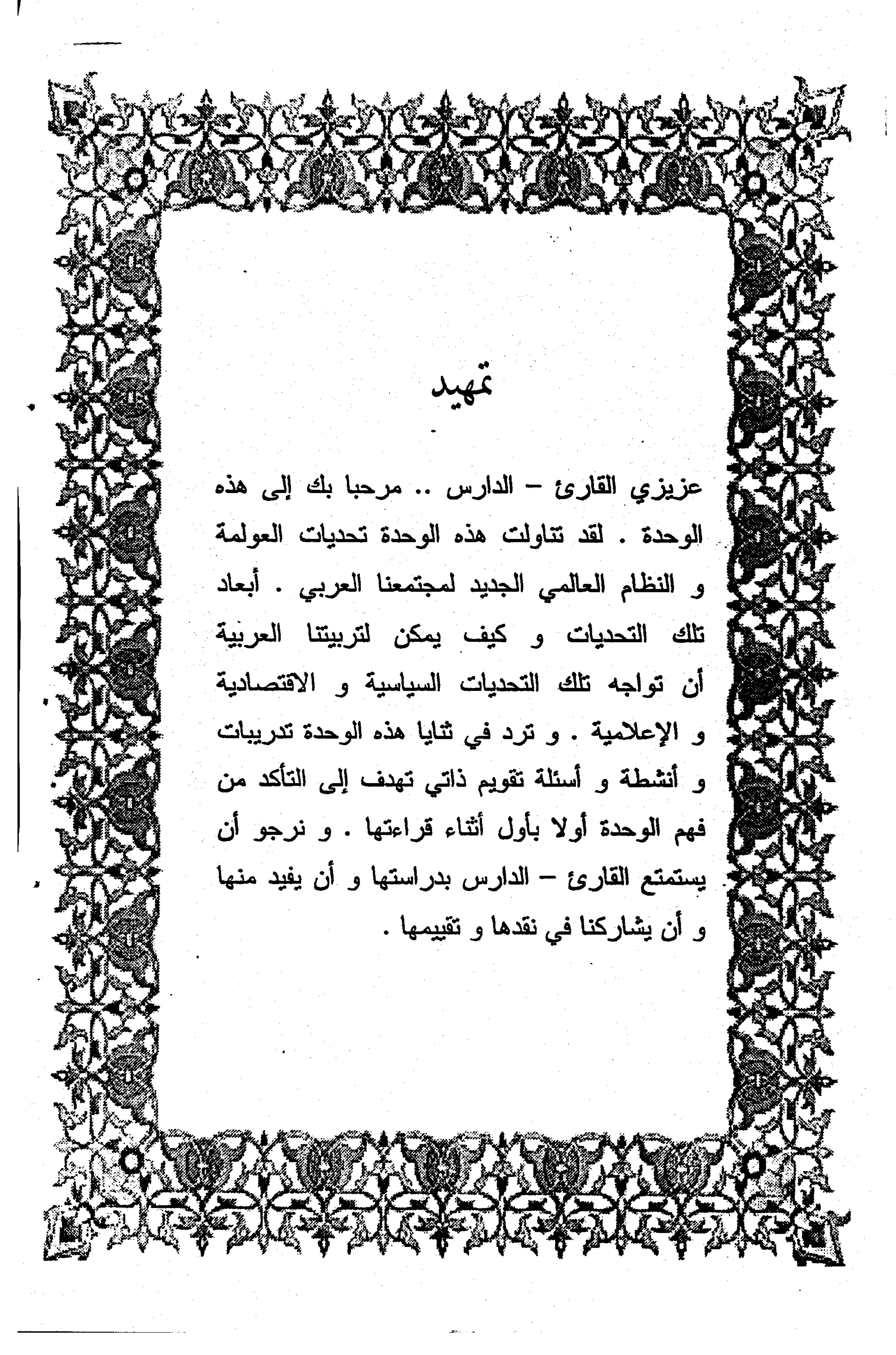
(٨) : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم : ***خطة عربية لتعليم الكبار في ضوء استراتيجية تعليم الكبار في الوطن العربي*** ، تونس ، ٢٠٠٠ .

(٩) : يحي حامد هندام ، و محمد الشبراوي علي : ***أساسيات الصحة المدرسية*** ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .



الوحدة الرابعة

التربية وتحديات العولمة



تمهيد

عزيزي القارئ – الدارس .. مرحبا بك إلى هذه الوحدة . لقد تناولت هذه الوحدة تحديات العولمة و النظام العالمي الجديد لمجتمعنا العربي . أبعاد تلك التحديات و كيف يمكن لتربيتنا العربية أن تواجه تلك التحديات السياسية و الاقتصادية و الإعلامية . و ترد في ثنايا هذه الوحدة تدريبات و أنشطة و أسئلة تقويم ذاتي تهدف إلى التأكد من فهم الوحدة أولا بأول أثناء قراءتها . و نرجو أن يستمتع القارئ – الدارس بدراستها و أن يفيد منها و أن يشاركنا في نقدها و تقييمها .

(١) : التربية و النظام العالمي الجديد .

(أولا) : نحن و النظام العالمي الجديد :

كان عام ١٩٩١ عاما هاما و بارزا في حياة أمتنا العربية بل و في حياة العالم كله من حولنا . ففي هذا العام كانت حرب الخليج و التي قادت فيها أمريكا قوى التحالف العالمي و منها دول بعض العالم العربي – لسحق القوات العراقية و القضاء الكامل على كل مقومات البناء التحتي لدولة العراق راجعة به كما تقول بعض التقارير إلى دولة من دول العصور الوسطى . و كان نتائج تلك الحرب الكريهة أن تفرقت دول العالم العربي ما بين دول أيدت التدخل العالمي لحل مشكلة الخليج و دول استنكرت هذا التدخل . و تحولت تلك الفرقة إلى قطيعة و علاقات متوترة أخشى ما نخشاه أن تستمر لأعوام طويلة مقبلة .

و في الوقت الذي كانت فيه أزمة الخليج و ما ترتب عليها تقود عالمنا العربي إلى ما يشبه تكريس التمزق و الفرقة ، كانت أمريكا قد أقامت سوقا مشتركة لقارة أمريكا الشمالية تشمل الولايات المتحدة و كندا و المكسيك ، و تفتح الباب لتضم جزر الكاريبي و باقي دول أمريكا اللاتينية ساعية من وراء ذلك إلى إيجاد قوة اقتصادية عالمية تسيطر على أكبر قدر من الاستثمارات الدولية ، كذلك كانت أوروبا تعقد اتفاقية الاندماج الاقتصادي الكامل بمدينة ماستريخت الهولندية و الذي ضم اثنتي عشرة دولة أوربية هي فرنسا و ألمانيا المتحدة " الشرقية و الغربية بعد اتحادهما " و إيطاليا و هولندا و بلجيكا و لكسمبرج و بريطانيا و الدانمرك و ايرلندا و اليونان و إسبانيا و البرتغال ، و هو اندماج اقتصادي يستهدف إيجاد أوروبا الموحدة ذات العملة الموحدة عام ١٩٩٧ ، و قوة عسكرية مشتركة بدأ تكوينها بالفعل ، و من المتوقع أن تضم أوروبا الموحدة في المستقبل القريب بلدان أوروبا الشرقية لتكون بذلك قوة سياسية و اقتصادية و عسكرية لها ثقلها في النظام العالمي الجديد .

و بجوار السوق الأمريكية المتحدة بكل ما تمثله من قوة و نفوذ و سيطرة كاسحة ، و أوروبا الموحدة ، تبرز كتلة ثالثة تضم اليابان و دول الباسفيك و دول جنوب شرق آسيا و خاصة النمور الأربعة و هي : سنغافورة و تايلاند و هونج كونج و تايوان ، و قد يضم هذا التكتل الصين و بعض الجمهوريات السوفيتية لتكون تلك المجموعة تعاونا اقتصاديا يمكن أن يتحول إلى قوة سياسية و عسكرية سيكون لها وزنها الكبير في عالمنا الجديد .

أما ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي فقد تلقى ضربات قاتلة بسقوط النظام الشيوعي الحاكم لدول أوروبا الشرقية ، ثم جاء الدور عليه لتتفكك أوصاله كدولة عظمى ، و يتحول إلى جمهوريات مستقلة في ظل ظروف سياسية و اقتصادية صعبة تنذر بمخاطر قيام الحروب الأهلية أو على الأقل حدوث توترات سياسية و اقتصادية حادة . و رغم أن اتفاق مينسك عاصمة جمهورية روسيا البيضاء نص على إقامة " الكومنولث السلافي " إلا أن ظروف ميلاد هذا الكومنولث الصعبة لا تبشر بخير حتى الآن .

إن اختفاء الاتحاد السوفيتي كدولة عظمى قد حرم دول عالمنا العربي من بعض المزايا التي كانت تحصل عليها في ظل التنافس العالمي القديم بين الشرق الشيوعي و الغرب الرأسمالي . ففي مناخ الصراع الدولي القديم تمكنت بعض دول عالمنا العربي من الحصول على المساعدات و القروض و صفقات السلاح و قليل من التكنولوجيا المتطورة . بعض المكاسب كما فعلت مصر و سوريا و ليبيا بالاتجاه للشرق الشيوعي و السعودية العربية و معظم دول الخليج بالاتجاه للغرب الرأسمالي . و لكن في ظل التفوق الأمريكي الحالي الكاسح و الذي ظهر جليا في إدارة حرب الخليج . و الذي يتوقع له أن يمتد إلى سنوات قادمة قد تطول و قد تقصر . و إلى أن تظهر القوى الجديدة بالفعل " أوروبا الموحدة " سياسيا و عسكريا ، و العملاق الآسيوي بل و ربما اتحاد الجمهوريات السوفيتية من جديد بعد مرحلة مخاض يبدو أنها ستكون طويلة و مريرة . في ظل تلك الظروف الدولية الجديدة يحق لنا – علماء التربية – أن نجلس هنا لنناقش ماذا ينتظر أمتنا العربية ؟ و ماذا نحن فاعلون لإعداد تلك الأمة لما ينتظرها من أحداث ؟

لقد بدت أمريكا بوضوح زعيمة العالم الجديد ، و ستظل كذلك لسنوات قادمة . بدون شك . لقد ظهر ذلك واضحا خلال حرب الخليج ، ثم تأكد بتفكك الاتحاد السوفيتي ، و بعجز أوروبا عن ترتيب البيت الأوروبي ، كما ظهر في إخفاقها في التوصل إلى حل سلمي للحرب الدائرة في يوغسلافيا حتى الآن . و كما سبق القول فإن تلك الزعامة لن تطول إلى الأبد ، فهناك قوى جديدة في طريقها إلى الظهور ، و لن ترضى بالقوامة الأمريكية على العالم .

و لكن الذي يهمنا حتى الآن أن هذا التطور العالمي الجديد و تصدر أمريكا لزعامة العالم يمضي لغير صالحنا . و أنه لمن الخيانة للوطن و الأمة أن نخفي التحيز الأمريكي لإسرائيل ، و النفاق السياسي الذي تعامل به أمريكا و أوروبا دول عالمنا العربي و خاصة في السنوات الأخيرة ، ففي الوقت الذي تكثف فيها إسرائيل من حركات الهجرة و الاستيطان على الأرض العربية المغتصبة و تقوم بطرد الفلسطينيين من وطنهم ، و تستصدر أمريكا قرارا دوليا في الأمم المتحدة لإلغاء مساواة الصهيونية بالعنصرية . و في الوقت الذي تصر فيه أمريكا و أوروبا على تطبيق كل القرارات الدولية ضد العراق المهزومة لا تحاول أمريكا و دول الغرب أن تفرض على إسرائيل تطبيق قرارات الأمم المتحدة رقمي (٢٤٢،٣٣٨) التي تقضي بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة ، و في الوقت الذي تتابع فيه أمريكا و أوروبا تحطيم السلاح العراقي في همة و اقتدار لا تهتم إطلاقا بترسانة السلاح الإسرائيلي ، و أخشى ما نخشاه أن يستمر هذا النفاق السياسي ضد أمتنا العربية خلال الحقبة القادمة و في ظل حالة التشرذم العربي الذي وصل إلى حد القطيعة و التمزق ، و أن تغلف أمريكا و أوروبا هذا النفاق ببعض المزايا تقدمها لتلك الدول العربية أو تلك ثمنا لسكوتها أو غواية لها لتساعد على تكريس واقع الدول العربية المتفرقة لا العالم العربي الواحد المتماسك .

(ثانيا) : العالم العربي الواحد . . التجربة و الأمل :

إن المتأمل لخريطة العالم الجديد و قواه السياسية و الاقتصادية الحاكمة يأسف إذ يقرر أن تلك القوى بحكم طبيعتها البعيدة عن هدى السماء . إنما هي قوى

يغلب عليها فكرة السيطرة على الطبيعة بواسطة العلم ، و السيطرة على الإنسان بواسطة التقنية ، و السيطرة على الشعوب المستضعفة بواسطة القوة العسكرية و الاقتصادية . هي قوى تعبد القوة و الرفاه و اللذة . قوى حصلت على شئ من العلم . و لكن غابت عنها الحكمة و اغتالت السمو الروحي و الأخلاقي للإنسان . ووضعت حاجزا بين العلم و التقنية من ناحية ، و بين الحكمة من ناحية أخرى . و مثل هذه القوى لا ينتظر منها أن تقود العالم إلى سلام حقيقي أو عدالة حقيقية . بل من المنتظر أن تقود العالم إلى مزيد من الانغماس الكامل في اللهو و المجون و السكر و الجنس و العنف الذي يشمل الأفراد و الشعوب و الدول .

و من سوء حظ عالمنا العربي و لأسباب كثيرة أن تقوم سياسة أمريكا و أوروبا من الآن فصاعدا على التعامل مع عالمنا العربي كدول متفرقة و ليس ككتلة واحدة متماسكة إلى حد ما . يساعد أوروبا و أمريكا على ذلك وجود صراعات زعامات وحدود . و هي صراعات أغلبها مفتعل بين حكام تلك الدول يحول بين شعوب المنطقة و بين ممارسة حقها الطبيعي في الوحدة . و من ثم في القوة السياسية و الاقتصادية ، و رغم أن أمتنا العربية طالما رددت شعارات الوحدة و النهضة ، و دساتيرها الرسمية قد نصت على أن كل دولة منها إنما هي جزء من أمة واحدة . و جامعة الدول العربية فكرت في مشروع اتحاد اقتصادي عربي و اقترحت إنشاء السوق العربية المشتركة منذ عام ١٩٦٤ ، و معظم الدول العربية رفعت شعارات التنمية و النهضة الحضارية . هذا على صعيد الخطاب العربي إلا أن الواقع المعاش كان يمضي على عكس ذلك تماما ، فلقد أخفقت كل الاتحادات التي قامت بين الدول العربية ، و بقدر الحماس الذي صاحب قيامها كان الحماس للهجوم عليها . يصدق هذا الكلام على الجمهورية العربية المتحدة بين مصر و سوريا عام ١٩٥٨ ، و كذلك الاتحاد بين مصر و سوريا و العراق عام ١٩٦٣ ، و الاتحاد بين مصر و ليبيا عام ١٩٧٢ و الاتحاد بين تونس و ليبيا عام ١٩٧٤ ، و غير ذلك من صور الوحدة ، إنها مثل النجوم التي برقت قليلا ثم سرعان ما انطفأت .

أما عن السوق العربية المشتركة ، فيكفي أن نذكر أن حجم المبادلات التجارية بين البلدان العربية لا يكاد يتجاوز ٥% من الحجم الإجمالي لتجارتها الخارجية ، و الباقي يذهب لصالح الدول الأجنبية ، أما عن الثروة العربية و المال العربي فقد بلغت التوظيفات العربية في الولايات المتحدة فقط مبلغ ٩١ مليار دولار ، وبالمقابل لا تكاد المشاريع العربية المشتركة تصل إلى ٤٤ مليون دولار ، ولا شك أن تلك الأرقام قد ازدادت في السنوات الخمس الأخيرة لصالح الدول الأجنبية .

كذلك فقد نجح العالم العربي في رسكلة الدولارات النفطية في عملية واسعة النطاق تستهدف استرجاع العائدات البترولية العربية نظير نقل زائف لسلع الاستهلاك ، أو سباق على السلاح يبتلع جزءا كبيرا من موارد البلدان العربية . حيث إن دويلة مثل عمان تكرس ٢٣,٨% من إنتاجها الوطني الإجمالي لنفقات التسلح ، و تخصص العربية السعودية ١٧,٧% من إنتاجها الوطني لنفس الغرض . و قس على ذلك سائر الدول العربية التي أصبحت المستورد الرئيسي للأسلحة في العالم و التي تخصص للدفاع ما يقرب من ثلث نفقاتها العمومية . و تبدو تلك الدول العربية حريصة على حماية نفسها من خطر مصدره الجار العربي للأسف أكثر من خوف العدو الخارجي و الصهيوني . و نزاعات الحدود ، و نزاعات السيادة و الزعامة قليل من كثير تعيشه دولنا العربية .

إن شراء السلاح ينطوي كما نعلم على شبكة علاقات التبعية تجاه القوى العظمى مصدرة السلاح . ذلك أن بيع سلاح معين ما هو في الواقع إلا بداية لعملية تبعية تقنية و عسكرية و سياسية بين البائع و المشتري . و عن طريق صيانة العتاد كما هو الأمر في كل نقل تكنولوجي تخضع القوى البائعة زبائنها لتبعية دائمة غالبا ما تؤدي إلى ضغوط سياسية . ولا تقتصر تلك التبعية على السلاح فقط بل تشمل كل المنتوجات و الزراعية منها بوجه خاص . فالعجز الغذائي للعالم العربي يقدر بحوالي ١٥,٦ مليون طن من الحبوب ، منها ١١,٥ مليون طن من القمح ، ٢,٧ مليون طن من السكر ، و مليون طن من الزيت ، و سيزداد هذا

العجز سنويا إلى أن يبلغ ١٤,٣ مليار دولار عام ٢٠٠٠ تدفعها الدول العربية لما تستورده من منتوجات غذائية .

ثم جاءت حرب الخليج لكي تزيل ورقة التوت التي كنا نخفي تحتها ما وصلت إليه الأمة العربية من تمزق و تبعية ، و قام العربي يحتل أرض أخيه العربي و يشرده ووجد العربي نفسه في خندق واحد مع القوى الأجنبية ضد المعتدي العراقي . و نتمزق كمثقفين و نحن نرى شعبا عربيا يكاد يدمر و تباد قدراته بيد الأجانب أولا ثم بيد أبنائه يقتل بعضه بعضا أمام سمعنا و بصرنا دون حراك . فهل يعني ذلك أن العروبة أصبحت خرافة ؟ و هل يعني ذلك أن التبعية بكل معانيها هي قدرنا الذي لا نستطيع منه فكاكا ؟ و هي يمكن لغدنا أن يكون أفضل من ماضينا و حاضرنا ؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي أن نحاول الإجابة عليه .

إننا إذا ذهبنا ندرس و نحلل الطرح العربي النهوضي الذي تصدر الساحة منذ بداية هذا القرن حتى الآن ، سوف نجد أن هذا الطرح هو الطرح العروبي العلماني الذي يحيد الإسلام بدرجات متفاوتة في معركة الوحدة و معركة النهضة و معركة مواجهة أعداء الأمة . إن الحركة الإسلامية لم يسمح لها حتى الآن أن تكون حزبا رسميا و أن تقدم الطرح الإسلامي لمشكلات الأمة . و لكي أكون دقيقا فلم أقرأ حتى الآن طرحا إسلاميا لبديل حضاري يأخذ بيد تلك الأمة من واقعها الأسيف سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا و تربويا . نعم هناك خطوط عامة يمكن أن نقرأها في كتابات تلك الجماعة الإسلامية أو تلك و لكن البديل الإسلامي الكامل لم يقدم حتى الآن بصورة متكاملة .

إن أخشى ما أخشاه أن يستمر الطرح العروبي النهوضي بعيدا عن الإسلام أو محيدا له إن لم أقل معاديا له في معظم الأحيان . مما يفوت على تلك الأمة طاقات روحية جبارة يمكن استغلالها و تحريكها في خدمة آمال تلك الأمة ووحدتها و نهضتها . إن تعاليم الإسلام يمكن أن تمد تلك الأمة بطاقات هائلة من الدعوى إلى الوحدة ، و الدعوة إلى التقدم . و سيظل النص الديني أكبر محرك للمشاعر

و الوجدان في تلك المنطقة . و إذا كان اليهود من خلال النص الديني قد جمعوا شتات الأرض في دولتهم ، و أقاموا قوة ضاربة هزمت العرب في ثلاث حروب متعاقبة ، و أقاموا دولتهم على أرض الإسراء و المعراج ، فهل يعجز النص الديني الإسلامي عن تحريك تلك الأمة و نهضتها من جديد . هذا هو السؤال الذي ينبغي أن نفكر فيه مخلصين لوطننا و أمتنا العربية و الإسلامية . لقد أثبت الطرح العربي النهوضي حتى الآن إفلاسه السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي على مستوى العالم العربي . فهل يستمر هذا الطرح بكل ما أدى إليه من عجز و فشل و تمزق و ضعف أم يحمل لنا الغد طرحا جديدا أكثر فاعلية و أكثر تحريكا لمشاعر الشعوب و تفجيرا لطاقاتها الروحية الكامنة ؟ هذا هو التحدي الذي تواجهه أمتنا العربية و يواجهه بالدرجة الأولى مثقفو تلك الأمة . و بقدر نجاحهم في مواجهة هذا التحدي سيكون نجاحهم في صناعة غد مشرق و مستقبل أفضل .

(ثالثا) : التربية الإسلامية التحدي و الاستجابة :

على ضوء ما سبق يتضح لنا أن أمتنا العربية تواجه اليوم و السنوات القادمة تحديا سياسيا و اقتصاديا و حضاريا هائلا يتقرر في ضوئه مصير تلك الأمة . وحدة أم تمزق ، قوة أم ضعف . و في مثل تلك اللحظات المصيرية لا بد أن تتجه الأمم و الشعوب إلى نظمها التربوية تبحث فيها عن أسباب الأزمة ، و تلتمس من خلال تغيير تلك النظم التعليمية وسائل تجاوزها – و هناك في عالمنا العربي اليوم ما يشبه الإجماع على فشل نظمنا التربوية الحالية في تحقيق آمال الأمة في التعليم و هو إجماع يشترك فيه رجل الدولة و رجل الشارع على السواء . و لكن هذا الإجماع يقابله اختلاف في الرأي حول كيفية العلاج التربوي لهذه الأزمة .

فما زال البعض عندنا يعتقد أن كل ما يحتاجه التعليم في بلادنا هو نوع من الإصلاح التربوي يتناول هذا الجزء أو ذلك من النظام التعليمي : المناهج ، إعداد المعلم ، المباني المدرسية ، الإدارة ، التمويل . و يمكن أن يتم هذا الإصلاح

تدريجيا وفق أولويات محددة . و هناك من يرى أن ما نحتاجه ليس مجرد الإصلاح التربوي بل التغيير الشامل أو الثورة التربوية . و لكن الثورات التربوية الحقيقية لا تأتي في ظل أوضاع جامدة بل تحتاج إلى ثورات جذرية داخل المجتمع بحيث يعكس التعليم الجديد روح الثورة السياسية و الاقتصادية داخل المجتمع .

و لكن رغم اختلاف الاجتهادات حول الإصلاح التربوي المنشود في مصر فإن دعاة " التربية الإسلامية هي الحل " ، و إن كانوا يمثلون القلة حتى الآن و خاصة في الدوائر العليا وبين أصحاب القرار التربوي في البلاد إلا أنه صدى يستحق التأمل و الدراسة ، ذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أولى بها . فماذا يمكن أن تقدم التربية الإسلامية من حلول لتلك الأمة العربية في مرحلتها الراهنة ؟ بل ماذا يمكن أن تقدم للعالم الجديد ؟

دعنا نتفق أولا على أن المقصود بالتربية الإسلامية هنا هو : ذلك النظام التربوي و التعليمي الذي يستهدف إيجاد إنسان القرآن و السنة أخلاقا و سلوكا مهما كانت حرفته أو مهنته . وهو إنسان مستخلف لله في الأرض بما يتطلبه هذا الاستخلاف من الكدح المستمر في سبيل إيجاد نوعية راقية من الإنسان . راقية من الناحية الجسدية و العقلية و الروحية و المهنية و الحرفية . و هو إنسان أنتجته التربية الإسلامية في عصورنا الزاهرة و ما زالت قادرة على إنتاجه اليوم إذا قدر لها أن تطبق في مؤسسات تربوية معاصرة .

لقد كان مجرد التفكير في شئ يسمى التربية الإسلامية يعد عملا مستنكرا و تجديفا ضد تيار العصر ، و لكن الأمر قد تغير إلى حد ما و ظهر تيار فكري و بحثي فيما يسمى بالتربية الإسلامية ، و أصبح لها الآن طلابها و أساتذتها و دراساتها العليا و بحوثها العديدة . بل تعدى الأمر ذلك إلى ظهور مدارس تحاول أن تكون إسلامية . نعم إن عددها مازال قليلا و يواجه مضايقات قد تشتد أحيانا من قبل السلطات التعليمية و غير التعليمية . و ما زالت تلك النماذج القليلة الموجودة من المدارس الإسلامية دون المستوى المطلوب من حيث المباني و الميزانيات و التجهيزات و المرافق و كفاءة الإدارة و تأهيل المعلمين و الخلفية الاقتصادية

الاجتماعية للطلاب . و أهم من ذلك كله عدم وضوح الفلسفة التي بنيت عليها تلك المؤسسات ، و التنظيم الذي تبنته تلك المدارس لتحويل تلك الفلسفة إلى واقع تربوي أكثر فعالية في تربية الإنسان المسلم الجديد القادر على مواجهة تحديات العصر في ظل ظروف داخلية و عالمية غير مساعدة . و لكن مجرد وجود هذه المدارس كمحاولات للإصلاح التربوي الإسلامي ، يمكن أن يكون بداية طريق طويل من الإصلاح و التجريب التربوي الإسلامي .

إن الأمر اللافت للنظر هنا هو أن كثيرا من تلك المدارس الإسلامية لا تعكس فكرا تربويا عميقا حاول أن يجد نفسه في مؤسسات تربوية جديدة بقدر ما جاءت معظم هذه المدارس انعكاسا لشعور قوي بضرورة التوجه الإسلامي للتربية و التعليم لدى بعض القائمين على تلك المدارس ، إلا أن الحماس الديني شئ و القدرة على صياغة محتوى تربوي عصري مناسب ، و تصميم بنية أو بنى تربوية جديدة قادرة على تحقيق هذا التوجه الإسلامي شئ آخر .

إن المشتغلين بالحقل التربوي الإسلامي لم يكونوا بعد مدرسة فكرية حقيقية تتحدى الفكر التربوي السائد ، و تحاول استبداله بفكر تربوي إسلامي أصيل يمكن أن يقود حركة تجريب تربوي في مدارس إسلامية حقيقية ، و مهما كانت الظروف المحلية و العالمية ضد هذا الفكر الأصيل الذي يمكن أن يحقق الهوية العربية المتميزة ، إلا أنه يظل أمامهم هامش من الحركة يمكنهم إن أحسنوا التنظيم و أجادوا العمل أن يستغلوه أفضل استغلال في تقديم البديل التربوي الإسلامي على مستوى الفكر و التطبيق . و يوم توجد تلك الطليعة العلمية الرائدة المتماسكة ، و يوم تستطيع أن تقدم بالفعل البديل التربوي الإسلامي على مستوى الفكر و التطبيق فمن المتوقع أن تتجه الشعوب إلى هذا النوع الجديد من التربية و لا ترضى بدونه بديلا لتربية أبنائها .

إن أجيال التربية الإسلامية ، هم القادرون وحدهم على توحيد تلك الأمة العربية الواحدة ، و جعلهم النواة الصلبة التي يتكون من حولها عالم الإسلام الكبير . و هو عالم لا يحتوي العالم العربي فقط ، و لا يمتد إلى بلدان العالم

الإسلامي ذات الأغلبية المسلمة بل يتسع ليشمل كل مسلمي العالم في كل مكان . إن العالم الإسلامي المتحد سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا هو النتيجة الطبيعية للتربية الإسلامية الراشدة في هذا العصر . و العالم الإسلامي المتحد هو الرد الطبيعي و الوحيد على ما يحوطنا من تحولات . و مهما بدا هذا الأمر صعبا قد يقترب من المستحيل . فليس أمامنا سواه من بديل . إذا أردنا أن نخرج من حلقة الضعف و الهوان و التبعية التي يدبر لنا أن نقع فيها إلى الأبد .

خاتمة :

لقد أظهرت الورقة أن قوى العالم الجديد ، إنما هي قوى غير مؤهلة لإقامة سلام عالمي عادل يقوم على الأخلاق الإنسانية الرفيعة مما يهدد بضياع كثير من الحقوق العربية و الذاتية الإسلامية . و أن عالمنا العربي مطالب في تلك اللحظة التاريخية بالذات أن يسعى إلى إيجاد تربية إسلامية خاصة به تعيد له هويته العربية و الإسلامية الواحدة المتميزة . و تكون تلك التربية هي أداة نهضته و استعادة أمجاده و حضارته . و مثل تلك التربية الإسلامية المنشودة ما زالت تحتاج إلى كثير من التفكير الجاد و البحث المتواصل لإيجاد بناء فلسفي و تطبيقات تربوية لتحقيق هذا البناء . و هو عمل يحتاج إلى جهود جيل كامل من الرواد يعيشون لهذا الهدف . و يجندون كل القوى و الطـــاقات من أجل تحقيقه . و بدون ذلك تكرس النظم التربوية الحالية واقع التجزئة في العالم العربي . و تكون أداة لاستئناس الإنسان العربي و إذلاله . و سيكون من السهل بعد ذلك اختراق وعيه و إخضاعه سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا لما يسمى حاليا بقوى العالم الجديد أو النظام العالمي الجديد .

تحتاج أمتنا إلى إصلاح تربوي شامل يمكنها من مواجهة تحديات النظام العالمي الجديد . ناقش موضحا وجهة نظرك .

(٢) : عودة إلى التربية و النظام العالمي الجديد .

لقد سبق أن قدمنا بحثا بعنوان : التربية الإسلامية و النظام العالمي الجديد و ذلك لمؤتمر التربية و النظام العالمي الجديد الذي عقدته الجمعية المصرية للتربية المقارنة و الإدارة التعليمية بجامعة عين شمس الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ يناير لعام ١٩٩٢ . و لكن أحداثا كثيرة قد جدت على الساحة العالمية منذ يناير ١٩٩٢ حتى الآن تؤكد الخط العام الذي تبناه الباحث و الذي موجزه : أن الحضارة الغربية بزعامة أمريكا غير مؤهلة للقيام بالدور الإنساني العالمي ، و أن المسلمين بإسلامهم هم البديل الوحيد لإنقاذ العالم من خلال تربية إسلامية قادرة على إيجاد أجيال التربية الإسلامية التي تحمل رسالة تحقيق الثورة الإسلامية العالمية الثانية بأهدافها الإنسانية السامية التي بدأها المسلمون بثورتهم الإسلامية العالمية الأولى في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و التي حققت للإنسانية قيم العلم و الحرية و العدل و المساواة و الفضيلة .

إن الحديث عن الحضارة الغربية في أوج عظمتها ممثلة في أمريكا ، كما يذهب إلى ذلك فوكاياما صاحب كتاب (نهاية التاريخ) و الذي يؤكد أن البشرية قد توصلت إلى أقصى ما يمكن أن يصله الإنسان ممثلا في النموذج الأمريكي حيث تسود مبادئ الديمقراطية الليبرالية ، قد أكدت الأحداث أنه حديث مبالغ فيه ، و أن تلك الحضارة الغربية في صورتها النموذجية " أمريكا " تعاني من أمراض قاتلة تجعلها غير مؤهلة لأن تكون الحضارة الإنسانية التي تسعد الإنسان و تلبي أشواقه لعالم تسوده قيم الحرية و العدل و المساواة و الفضيلة .

عدم أهلية الحضارة الغربية لقيادة النظام العالمي الجديد :

إن قراءات و شواهد واقعية كثيرة تؤكد أن الحضارة الغربية في أوج عظمتها ممثلة في أمريكا ليست هي الحضارة النموذج ، و ليست هي الحضارة

التي يمكن أن تقود النظام العالمي الجديد إلى عالم أفضل ، ذلك أن تلك الحضارة في جوهرها هي حضارة الأشياء و ليست حضارة الإنسان ، إنها كما يقرر ألدوس هكسلي صاحب كتاب (الوسائل و الغايات) و كتاب (العودة إلى عالم جرئ) و الذي قال فيه : " إن الإنسان في عصرنا لم يعد يستهلك الأشياء بل هي التي تستهلكه ، و أنه صار عبدا لعمله فانحدرت قيمته الإنسانية و عاش في أجواء القلق " و في رواية له باسم (جسور في طريق الانهيار) يورد هذه الجملة على لسان أحد شخصياتها : " أهدف إلى تكوين وعي مضاد للحضارة المرعبة ، أو أن أقوم بعملية حرق و تطهير لها) .

و الواقع أن هناك كتابات كثيرة و عديدة تصدت لما تعانيه الحضارة الغربية من تصدع و علامات انهيار . و ربما كان الفيلسوف الألماني شبلنجر من أوائل من تصدى لهذا الموضوع بشكل جدي فقد ألف كتابه الشهير (تدهور الغرب) ، بالإضافة إلى كثير من الكتب و الأعمال الأدبية التي تعرضت لمساوئ تلك الحضارة و ما تعانيه من مشاكل مثل : (الأماكن المسمومة) لترومان كابوت و (المهزلة البشرية) لوليم ساروبان و (الغزو المجهول) لميشيل رونالد و (أوروبا بعد السطر) لآلان بوزنسن و (الساعة الخامسة و العشرون) لكونستانتان جورجيو ، و كذلك كتاب (حوار الحضارات) لورجيه غارودي الذي حمل فيه بعنف على الحضارة الغربية ، و أطلق عليها عبارة " الشر الأبيض لأنها أضاعت الفرص أمام الإنسانية بسبب التفوق الغربي الذي لا يرجع إلى تفوق ثقافة و روح بل إلى استخدام تقنيات السلاح و البحر لأهداف عسكرية و عدوانية . و أن تلك الحضارة قد هدمت حضارات أسمى من حضارة الغرب باعتبار علاقة الإنسان بالكون و الطبيعة و المجتمع و الأخلاق . و لا نجاة لتلك الحضارة من وجهة نظر غارودي إلا بالانفتاح على الحضارات الإنسانية الأخرى و خاصة الحضارة الإسلامية لتتعلم منها إنسانية الإنسان و قيم الألوهية الخالدة .

و يقول غارودي في مقابلة صحفية أجريت معه : " لقد طغت على العالم صناعة الأسلحة ، وفي سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م أنفق العالم الغربي ٦٥٠ مليار

دولار على التسليح ، و هو ما يوازي ٤ أطنان من المتفجرات لكل إنسان على الأرض . و بمعنى آخر أصبح من الممكن لأول مرة في التاريخ محو أي أثر للحياة على الأرض . هذا و في السنة ذاتها أي ١٩٨٢ كان يوجد خمسون مليونا من البشر في العالم الثالث يعانون من الجوع و الأحوال المعيشية المتردية ، و هذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن العالم يسير في طريق ضال دون تفكير في العاقبة . إن القضية هي كيف ننجو بالعالم ؟ كيف نتخلص من حضارة الغرب كيف نختار الطريق الحكيم حتى يمكن للإنسان أن يعيش بتوافق مع الطبيعة من ناحية و مع الإنسان الآخر من ناحية ثم يتوافق مع الله سبحانه و تعالي .

و لا يقتصر هذا الشعور بتدهور الحضارة الغربية على المفكرين و الأدباء بل نراه لدى القادة و رجال السياسة و صناع القرار . فهذا المستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق يشير إلى الخلل الموجود في تلك الحضارة المتقدمة ماديا و المفلسة روحيا فيقول : " و نستطيع كذلك أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه ، و عن روائع الإنتاج الجماعي و عدد السيارات و أجهزة الراديو و التلفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا ، و لكن المبالغة في وصف التقدم المادي تعطى فكرة بأننا أفلسنا من الناحية الروحية " .

و لم يتحرج نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأسبق من أن يعلن في أول خطاب رسمي له بعد انتخابه رئيس لأمريكا : " إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع و لكن ممزقين في الروح ، و نصل بدقة رائعة إلى القمر و أما على الأرض فنتخبط في متاهات و متاعب كبيرة " . أما ديجول رئيس فرنسا الأسبق فقد قال : " إن مجتمعاتنا الأوربية فقدت شيئا ثمينا جدا تحت وطأة تقدمها الضخم و هو الإنسانية و أعني بها القيم الروحية البشرية العليا ، فقد جف شعورنا و تجمدت قيمنا الأخلاقية و انحطت " . و حين سئل ديجول عن ميله إلى توطيد علاقات بلاده بالعالم العربي و الإسلامي أجاب : " أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية و الإسلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها ، سينقذنا من مغبات حضارتنا و سيكون مفيدا لنا جدا ، و لهذا فإنني أحرص على تحسين علاقات فرنسا و توثيقها بالعالم العربي و الإسلامي " . و قد أعلن ديجول في أكثر من مناسبة عن إحساسه

بأن الاتحاد السوفيتي ينوء بمشكلات تنخر في جسده و ستنفجر ذات يوم ، و أن أمريكا تنوء بمشكلات مماثلة ، و تساءل : هل يمكن للإسلام أن يقدم العلاج لأدواء تلك الحضارة .

أما عن الاتحاد السوفيتي فقد ناء بمشاكله ، و انحل بالفعل انحلالا كاملا كما رأينا . و أما الولايات المتحدة فلا بد أن تلقي المصير نفسه إن آجلا أو عاجلا ، و كل الدلائل تشير إلى ذلك ، فقد نشرت إحصاءات عن الولايات المتحدة بمناسبة محاولة اغتيال رئيسها ريجان جاء فيها أن جريمة قتل واحدة تتم كل ٢٤ دقيقة ، و يجري في كل عشر ثوان اقتحام منزل و سرقة ، و يوجد من الأسلحة المعروضة للبيع الحر مسدس لكل أربعة ، و تباع قطعة سلاح كل ١٣ ثانية . و تقول روبرت هي أستاذ التاريخ في جامعة ماركيت في الولايات المتحدة : " إن الولايات المتحدة سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م مفككة إلى حد لا يطاق . و نحن في أمس الحاجة إلى الإحساس بالحياة الإجتماعية ، و من السهل أن نفهم أمريكا الضائعة الأرواح ، حيث لا يرتبط الفرد بشئ فهو يبحث عن هويته ، يبحث في العمل و في المهنة و في التقدم الاقتصادي عن علاقة تميزه و تخبره من هو " . أما القس جيري فالول فإنه يقول في كتابه "اسمعي يا أمريكا": " لدى إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق و تدمير الأسرة و الإجهاض و جنوح الناشئة و الفوضى الجنسية و تعاطي المخدرات و جرائم القتل ، إنني أشاهد حطام الإنسان و الأرواح المهدورة بأكداس تفوق الإحصاءات ، إن أمريكا بحاجة سريعة إلى الإنقاذ الروحي و الأخلاقي إن كانت تريد ألا تهلك في القرن العشرين " .

و لعل أحداث انتفاضة السود الأخيرة و التي شملت لوس أنجلوس و سان فرانسيسكو و إتلانتا و واشنطن و نيويورك تعكس ما يلاقيه السود حتى الآن في أمريكا من تفرقة عنصرية . و هي أحداث لم يستطيع ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأسبق إلا أن يقف عند دلالتها في كتابه " أمريكا و الفرصة التاريخية " . بل إن التقرير الذي أصدرته منظمة العفو الدولية مؤخرا ينبه إلى ما يلقاه سكان البلاد الأصليين في الأمريكتين من اضطهاد في بلادهم حتى يومنا الراهن استمرارا لما لاقوه خلال الخمسة قرون التي مرت على رحلة كريستوفر

كولمبس الشهيرة ، و غزو الأوربيين تلك البلاد و تدميرهم لحضارات شعوبها من الأزنيك و الأنكا و المايا مما يشير مرة أخرى إلى انعدام العدالة و المساواة داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها .

عدم أهلية أمريكا أو إحدى الدول العظمى الأخرى لقيادة النظام العالمي الجديد :

نظرا لانتشار مقولة زعامة أمريكا للنظام العالمي الجديد ، أو كما يقول نيكسون : " أمريكا الدولة العظمى الوحيدة في العالم " و لانخداع كثير من مثقفي العالم الثالث بتلك المقولة الكاذبة فسوف نوجز هنا بعض الحقائق التي تكشف زيف تلك الدعوى الكاذبة أو الأسطورة المزيفة التي توضح بجلاء أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست مؤهلة إطلاقا لأداء هذا الدور القيادي حتى بالمقاييس المادية البحتة ، دع عنك المقاييس الروحية و الأخلاقية التي تفتقر إليها تلك الدولة المتغطرسة الباغية و التي تريد فرض إرادتها بالقوة على دول العالم دون سند من قيم أو أخلاق أو شرعية إنسانية . إنها بحق كما يقول وليم فولبرايت : " غطرسة القوة " و هو عنوان كتابه الذي وصف فيه السياسة الأمريكية الحالية تحت هذا العنوان المعبر .

و يكفي أن نذكر هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الآن أكبر مدينة في العالم ، فحجم دينها الداخلي و الخارجي يتصاعد بسرعة خرافية من ٨٥٠ بليون دولار في أوائل الثمانينات إلى ٤ تريليون دولار في أوائل التسعينات . و التقديرات الموثوقة لدى صندوق النقد الدولي أن حجم الدين الأمريكي واصل سنة ٢٠١٠ إلى درجة أن فوائده وحدها سوف تزيد عن حجم الناتج الأمريكي في تلك السنة . و مما يصعب غض النظر عنه أن متوسط دخل الفرد تواضع في العشرين السنة الأخيرة من ٢٨ ألف دولار للفرد في السنة إلى ٢١ ألف دولار . و في نفس الوقت فإن تركز الفقر في مقابل تركيز الغنى أصبح حادا في الولايات المتحدة . و من الصعب أن يتصور بعضنا أن هناك ٣٠ مليون أمريكي يعيشون على حد الفقر و تحته . كما أن ٢١ مليونا من الأمريكيين أميون ، و أن المجتمع الأمريكي بصفة عامة لم يعد مجتمعا متجانسا يشعر أفراده بالمساواة الاجتماعية بل هناك فوارق طبقية

حادة ، و فوارق عرقية تتحول تدريجيا إلى كتلة منعزلة : كتل سوداء ، كتل هندية ، كتل آسيوية ، مما يهدد بانقسامات يستفحل خطرها داخل الولايات المتحدة ، مما دعا مؤرخا ممتازا مثل آرثر شليزنجر إلى إصدار كتابه : الولايات غير المتحدة الأمريكية DISUNITED STATES OF AMERICA و من اللافت للنظر أن تنشغل الصفوة الحاكمة في أمريكا اليوم إلى جانب هموم أخرى بأبحاث أثبتت أن متوسط الذكاء العام للفرد الأمريكي قد انخفض بمعدل ٨% عما كان عليه منذ عشرين عاما طبقا لقياسات علمية محددة ، و أن مستوى التعليم الأمريكي نزل من المركز العالمي الأول إلى المركز العالمي السابع .

أما من حيث الإنتاج الصناعي و التنافس التجاري فإن اليابان على سبيل المثال كما يعترف بذلك ريتشارد نيكسون - تنتج منتجات في أعلى درجات الجودة ، بينما تنتج أمريكا سلعا في مستوى الخردة ، و اليابان لها أخلاق عمل قوية في حين أن الأمريكيين كسالى ، و اليابانيون يدخرون في حين أن الأمريكيين يبذرون ، و في حين أن الاقتصاد الياباني ينمو بقفزات واسعة فإن الاقتصاد الأمريكي ينمو ببطء ، و أن ٩٥% من الشباب الياباني يتمون دراستهم العليا ، بينما لا يتجاوز هذا المعدل في أمريكا ٧٥% . و بإيجاز فإن أمريكا لم تعد قادرة على المنافسة العالمية في مجال التصنيع أو مجال العلم و التعليم .

كذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية على عكس ما يعتقد الكثيرون تواجه العديد من المشاكل الداخلية " العنيدة " كما يصفها ريتشارد نيكسون و التي يصعب إيجاد حلول لها في ظل مجتمع الرخص مثل مشاكل انتشار الجريمة و المخدرات و تراجع التعليم و تراجع الخدمات الصحية ، و التمييز العنصري و التردي العمراني . و من أجل ذلك كله فإن زعامة أمريكا للنظام العالمي الجديد أمر مرفوض حتى من قطاع كبير من سكان الولايات المتحدة ذاتها و الذين يرون أن أمريكا بأوضاعها الاقتصادية و الاجتماعية و الحضارية غير مؤهلة لقيادة النظام العالمي الجديد ، و أنه بدلا من أن تصرف أمريكا جهدا في الإلحاح على المطالبة بأن يكون لها دور رجل البوليس الدولي أو شرطي العالم فإنه من الأجدر بها أن تنفق هذا الجهد في إصلاح أوضاعها الداخلية . كما يدعو هؤلاء إلى الاحتفاظ

بالموارد الأمريكية لإنفاقها في حل المشاكل الداخلية الملحة مثل تلبية احتياجات الطبقة المعدومة و مكافحة إدمان المخدرات و مرض الإيدز ، و يزعم هؤلاء أن أمريكا بسبب فشلها في حل مشاكلها الداخلية ليست أهلا لممارسة الزعامة في الخارج .

كذلك فقد أثبتت الممارسة العملية لقيادة أمريكا للنظام العالمي الجديد حتى الآن أنها ممارسة تقوم على القرصنة على مستوى العالم كله ، و هي قرصنة لا تحكمها أية معايير سوى المصلحة الأمريكية المحدودة دون ضوابط من قيم أو عدل أو ضمير ، بحيث تبخرت تطلعات العالم في أخلاقية تلك القيادة – و هي قرصنة تمارسها أمريكا على جميع المستويات الاقتصادية و السياسية و العسكرية . إذ من خلال سيطرتها على البنك الدوالي و صندوق النقد الدولي و أخيرا على منظمة التجارة العالمية التي انتهت إليها مفاوضات الجات سوف يتم فتح الأسواق العالمية أمام السلع الأمريكية و الأوروبية ، و رأس المال الأمريكي و الأوروبي لكي يتحكم في الأسواق العالمية و خاصة أسواق العالم الثالث بحيث يزداد الأغنياء غنى و فقراء العالم فقرا .

و على المستوى العسكري فسوف تحاول الولايات المتحدة أن تحافظ على تفوقها الحالي ، و تحول دون ظهور أي قوة عسكرية منافسة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، و سوف تستخدم تلك القوة في خدمة مصالح أصدقائها فقط بما لا يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية ، و على أن يدفع هؤلاء الأصدقاء كل التكاليف العسكرية لمثل تلك العمليات . و في ضوء ذلك يمكن أن نفهم كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تبدأ في حشدها ضد العراق أثناء أزمة الكويت إلا بعد الاتفاق مع الأصدقاء الخليجيين على تسديد كل تكاليف عملية " عاصفة الصحراء " خمسمائة مليون دولار في الأيام الخمس الأولى لحشد الأساطيل و الطائرات و الجنود ، ثم خمسون مليون دولار كل يوم بعد ذلك مع إضافة عشرين مليون دولار أخرى يوميا لنفقات القوات التي وضعت في حالة تأهب و التي لم تنتقل إلى منطقة الخليج . بل إن تكاليف العملية شملت نفقات القوات الأمريكية الموجودة على السفن العاملة من الأصل في الخليج ، إلى جانب

قوات موجودة في قواعد مختلفة من دول أخرى يضاف إلى ذلك اتفاقات مسبقة أن يكون للشركات الأمريكية نصيب الأسد في إعادة إعمار كل ما دمرته الحرب ، و في ضوء ذلك يمكن أن نقدر حجم الكسب الأمريكي من تلك العملية .

و الدليل القاطع على أن أمريكا لا تمارس عملية رجل البوليس الدولي أو رجل الشرطة العالمي إلا إذا كان ذلك في مصلحتها الضيقة ، و إلا إذا أخذت فاتورة الحساب مقدما موقفها الشائن من النزاع العربي الإسرائيلي . ففي خضم أزمة الخليج سارعت الولايات المتحدة إلى إعلان التزامها القاطع بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية و السورية و اللبنانية ، فور الانتهاء من تحرير الكويت ، و ذلك في إطار تسوية سياسية شاملة وفقا لقواعد الشرعية الدولية . و أقنعت بذلك حفاءها العرب و الأوربيين ، فضلا عن الاتحاد السوفيتي و الصين و اليابان الذين أعلنوا بدورهم ضمانهم للتعهد الأمريكي . و كان ذلك في مقابل موافقتهم مع الولايات المتحدة على رفض المبادرة السياسية العراقية لحل أزمة الخليج و التي أطلقتها بغداد في الثاني عشر من شهر أغسطس عام ١٩٩٠ ، بالتعامل مع كل الاحتلالات في المنطقة و خاصة احتلال العراق للكويت و احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية و العربية وفقا لمعايير دولية واحدة ، و ها هي أمريكا بعد انتهاء الأزمة لم تف بتعهدها في إيجاد تسوية سياسية شاملة لتحرير الأرض العربية التي تحتلها إسرائيل حاليا . و في ظني و اعتقادي أنها لن تفعل ، لأن إسرائيل حتى الآن ما تزال تمثل العصا الأمريكية الغليظة التي تهدد بها كل من يحاول أن يتمرد على القرصنة الأمريكية من دول المنطقة .

إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت و لا تزال حتى هذه اللحظة الحليف الاستراتيجي الداعم سياسيا و عسكريا و اقتصاديا لإسرائيل ، و ذلك على نحو لا سابقة له و لا مثيل في تاريخ التحالفات الأمريكية مع بلدان أخرى . وقد نبع ذلك من منطلقين : (الأول) أن إسرائيل تقوم بدور القاعدة العسكرية الأساسية الحامية للمصالح الأمريكية في المنطقة بالنسبة للبترول أو بالنسبة للأمن . و (الثاني) أن اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة بات من القوة السياسية و المالية و الإعلامية إلى الدرجة التي أصبح معها عاملا حاسما و مرجحا لنجاح أو إسقاط أي مرشح

لمنصب ما في البنية السياسية الأمريكية ، ابتداء من رئيس الجمهورية حتى العمدة في أصغر مدينة مرورا بعضوية الكونجرس . و هذا واقع لن يغيره إلا انتفاضة عربية إسلامية تجبر الولايات المتحدة الأمريكية على الاعتراف بقوة المال العربي و قوة الجماهير العربية ، و قدرتها على إلحاق الأذى بالمصالح الأمريكية إذا واصلت تحيزها الكامل لإسرائيل على حساب القضية العربية . و ليس هذا بالمحال كما يتصور البعض و خاصة في ظل قوة الحركات الإسلامية في العالم العربي و الإسلامي و تصاعد الانتفاضة الفلسطينية في الأرض المحتلة ، بل و اكتشاف إمكانية نجاح مرشح لرئاسة الجمهورية مثل الرئيس بوش رغم حجب اللوبي الصهيوني أصوات اليهود عنه ، فلم يحصل منها على أكثر من ٧% فقط مما يقرر إمكانية نجاح مرشح لرئاسة الجمهورية مستقبلا لا يأتي على أسنة الأصوات اليهودية الأمريكية .

و مما يؤكد عدم مصداقية الولايات المتحدة كرجل بوليس دولي أو رجل شرطة عالمي ما حدث في البوسنة و الهرسك . ذلك رغم أن البوسنة دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة ولكن النظام العالمي الجديد بزعامة أمريكا قد أغمض عينيه عما يجري هناك . لقد قتل و جرح ما يقرب من نصف مليون مسلم ، و شرد حوالي مليونين و انتهكت حقوق الإنسان حين اغتصبت ٥٠ ألف امرأة مسلمة ، و استخدمت القوات الصربية ضد المسلمين أسلحة الدمار الشامل و الأسلحة الكيماوية المحرمة دوليا . و استعانوا في حروبهم بخبراء و مرتزقة أجانب ، حدث كل ذلك دون أن تعمل الولايات المتحدة و أوروبا شيئا لإيقاف الهولوكست الذي ينفذه أبناء هتلر الجدد : الصرب ، بل تم استخدام مجلس الأمن الدولي ليصدر قرارا بمنع وصول السلاح إلى جمهورية البوسنة مما يكفل للصرب تنفيذ مذابحهم و جرائمهم على مدى شهور طويلة دون خوف من وجود سلاح فعال لدى مسلمي البوسنة . و لكن لأن البوسنة ليس بها آبار نفط أو مصالح أمريكية معرضة للخطر ، و لأنه ليس هناك من يدفع فاتورة الحساب مقدما للتدخل الأمريكي في البوسنة ، لذلك ترك المسلمون ليلاقوا كل أنواع الإبادة و العدوان .

و يطول الحديث إذا حاولنا أن نكشف عن وجه أمريكا القبيح الذي تخفيه و هي تتحدث كذبا عن حقوق الإنسان و الدفاع عن الديمقراطية و حرية الإنسان . و لعل موقفها الأخير من مذبحة مجلس النواب الروسي و حرب الإبادة في الشيشان و الأرض العربية المحتلة و غير ذلك ، ما يؤكد عدم مصداقية الولايات المتحدة في حديثها عن النظام العالمي الجديد . بل و عدم صلاحية الولايات المتحدة لظروفها الداخلية و تكوينها الحضاري و الإنساني أن تكون قادرة أو مؤهلة لزعامة العالم الجديد و قيادته لمستقبل أفضل تسوده قيم الحرية و العدل و المساواة و الفضيلة . إن الولايات المتحدة ليست مؤهلة إنسانيا و حضاريا للقيام بهذا الدور الإنساني الخالد و تصديها لزعامة العالم حاليا يمثل كارثة حقيقية لحضارة الإنسان و مستقبل تلك الحضارة .

و إذا كانت كل القرائن تؤكد على عدم أهلية الولايات المتحدة لزعامة النظام العالمي الجديد ، و أن تزعمها الحالي لن يقود إلا لمزيد من الاضطراب و الإرهاب و الإفساد ، فإن انتقال تلك الزعامة إلى واحدة من الدول الكبرى الموجودة حاليا على الساحة العالمية لن يكون بديلا صالحا . فالصين و اليابان و الهند و ألمانيا و أوروبا الموحدة و روسيا و غيرها من الدول الكبرى لا تستطيع أن تقدم نموذجا جديدا يعد بديلا حضاريا للسيادة الأمريكية و الحضارة الأمريكية بكل ما ترمز له من سيطرة و قهر و استغلال و تغليب المصلحة القومية الضيقة . إذ إن تلك الدول جميعا تفتقر إلى البعد الروحي و الأخلاقي الذي يمكن أن يصون العالم من الدمار . و لا يبقى في الساحة إلا المسلمون و دول العالم العربي الإسلامي بما يملكون من منهج إسلامي طبق أول مرة فكانت الحضارة الإسلامية الإنسانية الخالدة ، حضارة الإنسان ، حضارة العمران لا حضارة الطغيان .

لا يمكن لأمريكا أو لغيرها من الدول الكبرى أن تكون قائدة للعالم الجديد كما ينبغي أن تكون . ناقش موضحا وجهة نظرك .

الأمة الإسلامية و قيادة النظام العالمي الجديد :

لعلنا عندما نتكلم عن الأمة الإسلامية كبديل حضاري و دورها في قيادة النظام العالمي الجديد ، نصدم الكثير من المثقفين الذين لم يألفوا الحديث بعد عن الأمة العربية الإسلامية كنواة صلبة للأمة الإسلامية الكبرى ، إن تلك الأمة العربية الإسلامية النواة الصلبة للأمة الإسلامية الكبرى هي البديل الحضاري الوحيد للسيطرة الغربية و للأمركة الأمريكية . و لقد أوضح أحمد صدقي الدجاني في كتابه " وحدة التنوع و حضارة عربية إسلامية في عالم مترابط " كيف أن العالم المعاصر قد عانى من سيطرة أيديولوجية الدولة القومية التي تسيطر عليها الأنانية الطائفية و التي تستخدم العنف لتحمي مصالحها و امتيازاتها مما ترتب عليه نشوب الحروب العديدة بين الدول القومية الأوربية المختلفة .و كيف تحاول أوروبا حاليا تجاوز نموذج الدولة الوطنية الذي سبب فرضه عليها أضرارا بالغة لها ، و كانت له أيضا نتائج وخيمة في بلدان أوروبا ذاتها مع أنه نبع تلقائيا من أراضيها ، إلى صيرورة جديدة من ضوء الاتجاه الأوروبي .

و إذا كان هذا هو الحال بين دول أوروبا ذات التاريخ الطويل من الحروب و الصراع فيما بينها ، و التي يفرق بينها اختلاف اللغات و اختلاف الجنسيات فماذا عن دول العالم العربي الإسلامي الذي يجمع بينها الكثير ، و التي لم يفرقها إلا أيديولوجية الدولة الوطنية التي أتت إليها من أوروبا ، و التي لم يعرفها عالمنا العربي الإسلامي إلا مع الاستعمار الأوروبي الذي قسم تلك الأمة العربية الإسلامية الواحدة إلى دويلات مختلفة . لقد حذر الشاعر الهندي إقبال المسلمين من تسلط هذه الفكرة الوطنية البغيضة التي تؤدي إلى الاستعلاء العنصري و تحكم الأنانية و المصلحة و سيادة منطق القوة الغاشمة ، و القضاء على النظرة الإنسانية العامة التي تشربتها نفوسهم من الإسلام . كما تحدث في دائرة الحضارة الغربية مع أولئك الذين أحلوا نظم أخلاق قومية محل الأخلاق المسيحية العالمية . و الغريب أن تحاول دول الغرب حاليا الهروب من دائرة الوطنية الضيقة إلى أفق أوروبا الموحدة في الوقت الذي تصر فيه بعض الدول العربية القزمية و التي لا تملك حتى مقومات الدولة ، تصر تلك الدول القزمية و أشباه الدول ، على كياناتها الوطنية الهشة التي

لا تملك مقومات البقاء ، إلا بالارتماء المطلق في أحضان الدول الكبرى لحمايتها و ضمان مجرد استمرار وجودها المصطنع .

إن العالم العربي الإسلامي و هو يواجه الهجمة اليهودية الأمريكية الحالية و التي تهدد وجوده و حضارته و من ثم حضارة الإنسان كلها ، لا يملك إلا أن يسعى إلى إيجاد نظام إقليمي عربي إسلامي قوي في دائرة عالم إسلامي واسع . و يكون هذا النظام العربي الإسلامي و ظهيره العالم الإسلامي الواسع هو البديل الحضاري لتلك الهيمنة الأمريكية الحالية التي لا هدف لها إلا القوة و الهيمنة و السيطرة ، و هناك عوامل عديدة تتفاعل معا و تحث على الوحدة العربية الإسلامية ضمن دائرة العمران الحضاري الإسلامي الواسع ، ***و تتمثل تلك العوامل فيما يلي :***

عوامل داخلية : تتمثل في حصيلة وحدة اللسان و الدين و التاريخ عبر عصور تاريخية ممتدة ، ***و عوامل خارجية :*** تتمثل في مواجهة تحدي حضاري يهودي أمريكي لا يرضى بأقل من التبعية الثقافية و الاقتصادية و السياسية و العسكرية و تحويل هذا العالم العربي الإسلامي الواحد إلى دويلات قزمية تعيش في ظل الهيمنة الأمنية و القرصنة الأمريكية . يضاف إلى ذلك عامل معاصر يتعلق بثورة الاتصال و ما يقترن بها من محاولة السيطرة الإعلامية و ما يستدعيه ذلك من ضرورة التميز و الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما يملكه هذا العالم العربي الإسلامي من موقع استراتيجي متميز جعله مدار التاريخ مطمعا لكثير من القادة و الفاتحين و بناة الدول و الإمبراطوريات . و خصوبة سكانية عالية ، و زيادة عدد الشباب عن عدد الكهول مما يعنى قدرة بشرية شابة فتية قادرة على البذل و العطاء و تشييد الحضارات . فضلا عن ثروات كبيرة و مواد خام عديدة تمكن هذا العالم العربي الإسلامي من بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات . يضاف إلى ذلك دين إسلامي خالد يدعو إلى الوحدة و القوة و جميع المثل الإنسانية العليا مما يؤهل هذا العالم العربي الإسلامي بالفعل لقيام نظام إقليمي عربي إسلامي قوي يشارك في

صناعة النظام العالمي الجديد ، بل و يساهم في تصحيح مساره ليكون أكثر عدلا و أكثر احتراما لإنسانية الإنسان .

و نحن إذ نؤكد على ضرورة قيام نظام إقليمي عربي إسلامي نصر على أن يكون هذا النظام العربي الإسلامي القوي نواة صلبة في دائرة عالم إسلامي واسع يشمل دول العالم الإسلامي كله . و عندما نتحدث عن نظام عالمي إسلامي واسع فإننا نتحدث عن طاقات إسلامية هائلة تشمل دولا فاعلة كالباكستان و تركيا و إيران و أفغانستان و ماليزيا و أندونيسيا .. الخ . فضلا عن الجمهوريات الست المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفيتي و التي تملك بعضها أسلحة نووية متطورة كما تملك قواعد إطلاق صواريخ طويلة المدى . بالإضافة إلى ثروات و أعداد بشرية هائلة .

إن تلك الإمكانات الهائلة في ظل عقيدة الإسلام الخالدة يمكن أن تفعل الكثير في المجالات السياسية و الاقتصادية و العسكرية و التربوية . و يكفي أن نذكر هنا فقط أن منظمة التعاون الاقتصادي الإسلامي " أيكو" و التي كانت تضم إيران و باكستان و تركيا منذ عام ١٩٦٥ و التي تضم حاليا الدول الإسلامية العملاقة الخارجة من القمقم و هي : أوزبكستان و تركستان و قرغيزستان و كازاخستان و أذربيجان و طاجكستان فضلا عن أفغانستان ، و ذلك منذ ١٩٩٢/١٢/٢٨ مؤسسين بذلك أكبر تجمع اقتصادي بعد السوق الأوربية المشتركة تضم ٣٠٠ مليون نسمة يجمع بين شعوبها تراث ثقافي مشترك و يصل ناتجها القومي إلى أكثر من ٣٠٠ مليار دولار سنويا .

و يكفي أن نذكر أيضا أن جمهورية إسلامية وليدة هي جمهورية كازاخستان لديها كم من الأسلحة النووية يضم ١٠٤ صواريخ بالستية عابرة للقارات منصوبة على منصات ثابتة ، و أربعين قنبلة نووية و ميدان تجريب للأسلحة الذرية و صواريخ مضادة للصواريخ ، بالإضافة إلى وسائل النقل و إطلاق هذه الآلة المرعبة . و بإيجاز فإن جمهوريات آسيا الوسطى تضم سبعين مليونا من المسلمين و هي في معظمها بلاد غنية بثرواتها الطبيعية كالقطن و النفط و المعادن كاليورانيوم و الذهب و غيرها . إن وسط آسيا المسلم و المنطقة الواقعة إلى جنوب

هذه الجمهوريات كايران و تركيا و أفغانستان و باكستان تستطيع أن تصبح قوة حضارية إسلامية كبرى و خاصة مع وجود الاختلاط السياسي و الديني رغم تعدد القوميات و المحافظة على التقاليد الإسلامية . و التي يمكن أن تنمو مع وجود تربية إسلامية فاعلة تزيد انتماء تلك المنطقة إلى هويتها الإسلامية التي حاولت إمبراطورية الشر السابقة " الاتحاد السوفيتي سابقا " و قوة الطغيان و القرصنة العالمية الحالية " الولايات المتحدة الأمريكية " أن تذيبها في بحور القوميات المتعصبة و الحضارة الغربية المدمرة لكل ما هو إنساني و أخلاقي .

إن تعاونا إسلاميا عالميا بين تلك الدول الإسلامية ، يضاف إليه رصيد هائل من الأقليات الإسلامية في شتى أنحاء قارات آسيا و أفريقيا و أوروبا و أستراليا و الأمريكتين ، و ما يمكن أن تقدمه تلك الأقليات المسلمة من دعم مادي و معنوي للنظام الإسلامي العالمي ، و الذي يمكن أن لا يقل إطلاقا عن الدعم المادي و المعنوي الذي تقدمه الأقليات اليهودية في العالم لدولة إسرائيل . أقول إن مثل هذا النظام العالمي الإسلامي هو وحده القادر على أن يقدم للإنسانية البديل الحضاري الجديد الذي يحفظ عليها أمنها و استقرارها و يرقى بقيمها و إنسانها و مجتمعاتها في ظل حضارة الإسلام العادلة التي جربتها الإنسانية من قبل . و حتى يتحقق ذلك فلابد من اللجوء إلى التربية الإسلامية لتربية إنسان القرآن الكريم و السنة المحمدية القادرة على إقامة الحضارة الإسلامية البديل و المنقذ ، إذ بدون إقامة نظام تربوي إسلامي قادر على تربية إنسان القرآن و السنة فلن يكون بالإمكان قط إقامة النظام الإقليمي العربي الإسلامي القوي في دائرة العالم الإسلامي الواسع و في رعاية أقليات إسلامية في جميع أنحاء العالم ، تربوا جميعا ليكونوا إنسان القرآن و السنة ، و صناع الثورة الإسلامية الثانية التي تملأ الأرض عدلا و حرية و مساواة و فضيلة كما فعلت الثورة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول صلى الله عليه و سلم و خلفائه الراشدين من بعده ، إلى أن سقطت راية تلك الحضارة الإسلامية لتتسلمها يد الحضارة الغربية و تحولها إلى راية عصبية و استعلاء و سيطرة و طغيان كما يشهد بذلك تاريخنا الحديث و المعاصر .

كيف يمكن للتربية أن تعد للعالم العربي و الإسلامي ليكون له دوره في النظام العالمي الجديد ؟

التربية الإسلامية و النظام العالمي الجديد :

إن الحديث عن نظام إقليمي عربي إسلامي قوي في دائرة عالم إسلامي واسع تحرسه أقليات إسلامية منتشرة في جميع قارات الأرض يصبح حديث خرافة إذ لم يسنده حديث عن التربية الإسلامية التي يمكن أن تربي إنسان القرآن و السنة القادر على إقامة هذا النظام و تفعيله . و هي تربية مختلفة عما يدور في معظم مؤسساتنا التربوية الحالية . تربية لا يكون الولاء فيها للوطن بالمعنى الضيق . و إنما يكون الولاء فيها للأمة الإسلامية بالمعنى الواسع الذي تحدثنا عنه . و لا يكون الولاء فيه لحاكم أو سلطان مهما كان هذا الحاكم و السلطان . بل يكون الولاء فيها لله و لرسوله و للمؤمنين . نوع مغاير من التربية لا يتغيا إيجاد المواطن المتعصب لوطنه القومي المحدود و لحدوده الجغرافية التي رسمها له أعداء الأمة ليكرس فرقتها و ضعفها و هوانها بل يكون الولاء فيها للمسلمين في كل مكان . و وحدة المسلمين اقتصاديا و عسكريا و حضاريا لكي يحملوا رسالة الإسلام ، رسالة العدل و الحرية و المساواة و الفضيلة و إنسانية الإنسان كل إنسان .

إن غياب النظام التربوي الإسلامي هو المسئول عن وجود تلك الدول و الدويلات القزمية التي وضع حدودها أعداء الأمة العربية الإسلامية ، في مرحلة الإستعمار بحيث تكون هناك دائما صراعات على الحدود و على الموارد القومية ، و بحيث تظل هذه الكيانات المصطنعة غير قادرة على الوحدة بل سوف تشلها دائما خلافات لا نهاية لها على مسائل حدود و طرقات و مياه و نفط .. الخ . و لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من تحدي الغرب و أمريكا و إسرائيل فإن هذا سيضمن خضوع تلك الكيانات لإرادة أمريكا

و إسرائيل لمدة نصف قرن على الأقل . و سوف تظل تلك الكيانات تحت رحمة الهيمنة الأمريكية اقتصاديا و عسكريا بل ثقافيا و حضاريا .

إن غياب التربية الإسلامية في وطننا العربي الإسلامي هو الذي مكن لقيام الحروب بين إيران و العراق ، ثم بين العراق و الكويت و دول الخليج ، و جعل المسلم يقاتل أخيه المسلم و يحالف اليهود و زعيمتهم أمريكا ، بينما يعادي إخوانه هنا و هناك أو على الأقل يتجاهل مصيرهم و مصالحهم انشغالا بوطنيته الضيقة المحدودة التي لا تكفل له سوى التبعية . و في غياب التربية الإسلامية الموحدة أمكن تقسم العالم العربي الإسلامي إلى تلك الدول و الدويلات . بل إن هناك مخططات لمزيد من التقسيم و التجزيء و التفتيت لهذا الوطن العربي الإسلامي . بحيث تكون هناك ثلاث دول في العراق ، إحداهما كردية سنية في الشمال و سنية عربية في الوسط و شيعية عربية في الجنوب ، و ثلاث أو أربع دويلات في سوريا ، منها واحدة درزية و ثانية علوية وواحدة سنية ، و أربع أو خمس دويلات في لبنان ، موزعة بين الموارنة و المسيحيين الآخرين و دولة سنية و أخرى شيعية ، و سيكون هناك أردنان ، أحدهما للبدو و الآخر للفلسطينيين دون الحديث عن الضفة الغربية التي ستضمها إسرائيل . أما العربية السعودية فسوف يحسن إعادتها إلى الفسيفساء القبلية التي كانت عليها قبل إنشاء المملكة عام ١٩٣٣ بحيث لا يعود لها من الوزن النسبي سوى ما للكويت و البحرين و قطر و إمارات الخليج الأخرى . و قس على ذلك تقسيم مصر و دول المغرب و إفريقيا إلى دويلات يمكن أن تقام كما قامت من قبل تلك الدول و الدويلات الموجودة حاليا .

نعم في غياب التربية الإسلامية الموحدة أمكن تثبيت دعائم تلك الدول و الدويلات الحالية ، و يمكن إقامة دول و دويلات أخرى في وطننا العربي الإسلامي . و في غياب تلك التربية الإسلامية أمكن لأمريكا و حليفتها إسرائيل أن تفرض إرادتها على دول و دويلات المنطقة ، و أمكن لأمريكا أن تضع و هي آمنة خططا لاحتلال مناطق البترول في وطننا العربي الإسلامي في حالة تعرضها لخطر يهدد مصالح الغرب و أمريكا . بل وصل الأمر إلى حد أن إسرائيل نفسها وضعت خطة تسمى " خطة شارون لغزو دول البترول العربية " و ذلك بإستخدام

القوة العسكرية الإسرائيلية لاحتلال منابع النفط عبر الأردن و إنشاء دولة فلسطينية في الأردن لحسم القضية الفلسطينية نهائيا . و الهدف من الخطة هو إقامة دولة فلسطينية شرق الأردن مع السيطرة على منابع النفط في دول الخليج " الكويت و الظهران بالسعودية " و استثمار ذلك سياسيا و اقتصاديا و عسكريا .

كذلك أمكن في غياب التربية الإسلامية ألا يعرف العالم العربي الإسلامي الكثير عن الدول الإسلامية الكبرى و خاصة إيران و تركيا و باكستان و أفغانستان و ماليزيا و أندونيسيا .. الخ . فضلا عن الأقليات الإسلامية في جميع أنحاء العالم . كما أمكن أن تكون تجارة العالم العربي و الإسلامي مع الغرب و أمريكا و قريبا مع إسرائيل أكثر من تجارتها مع الدول الإسلامية . و كذلك تعاونها العسكري و الثقافي و السياسي مما يمثل خروجا واضحا عن تعاليم الإسلام التي تدعوا إلى وحدة المسلمين و تعاونهم و تضامنهم . و مما حرم هذا العالم العربي و الإسلامي من معظم مقدرات القوة التي يملكها و المكانة العالمية و الفاعلية الحضارية التي كان يمكنه القيام بها .

إن مستقبل وطننا العربي و الإسلامي مرهون بوجود تلك التربية الإسلامية الموحدة ، التي تؤمن بوحدة هذا الإقليم كنواة صلبة لبعث الأمة الإسلامية الواحدة . و هي تربية تهتم بالعلم الإسلامي الذي يقود إلى مزيد من الإيمان و مزيد من العمران . و مزيد من القيم الإنسانية الخالدة ، و ليس العلم الغربي الذي يقود إلى مزيد من الدمار و مزيد من الطغيان و الإستعلاء في الأرض . و بدون تلك التربية فإن هذا الوطن العربي الإسلامي سيظل معرضا لمزيد من التفكك و الدمار و التبعية ، مما يمثل خسارة عالمية لضياع الإمكانية الوحيدة لإنقاذ البشرية من سيطرة " القرصنة الأمريكية " بكل ما تمثله من جنون القوة و سيطرة المادة و انتشار المتع و الرخص .

من هنا تأتي أهمية دعوة رجال التربية الإسلامية في تلك اللحظة التاريخية الحرجة من عمر أمتنا ، بل و عمر البشرية كلها إلى ضرورة تكوين جماعة علمية

تربوية نشطة تكون مهمتها الأولى : وضع تصورات عملية لإيجاد تلك التربية الإسلامية القادرة على ايجاد إنسان القرآن و السنة ، إنسان الحضارة الإسلامية السامقة ، إنسان الجيل الإسلامي المنقذ لوطننا العربي الإسلامي ، و أمتنا الإسلامية الكبرى ، و أقلياتنا الإسلامية في كل مكان ، و من ثم إنقاذ العالم كله مما عاناه و يعانيه اليوم من حيرة و يأس من إيجاد عالم إنساني فاضل تسوده قيم الحرية و العدل و المساواة و الفضيلة ، و هو عالم تحقق بالفعل في ظل الثورة الإسلامية العالمية الأولى ، و لا يمكن أن يتحقق مرة أخرى إلا في ظل الثورة الإسلامية العالمية الثانية التي لا تستطيع القيام بها إلا أجيال التربية الإسلامية الحقة ، أجيال القرآن الكريم و السنة المحمدية كما أرادها الله و رسوله ، فهل نحن قادرون على إيجاد تلك التربية الإسلامية المنشودة ، و هل نحن قادرون على تطبيقها في عالم الواقع ؟ هذا هو السؤال الكبير الذي ينبغي أن ننشغل بالكامل كتربويين إسلاميين بحثا عن أجابة له . و هذا بالله التوفيق .

(٣) : تربيتنا في عصر العولمة .

لم يعرف الفكر السياسي المعاصر لفظا مراوغا كلفظ العولمة ، المشتق من العالم لا العوالم ، على الرغم مما شاع فيه من مصطلحات و ألفاظ مخادعة أخرى مثل الشرعية الدولية و النظام العالمي الجديد .. فما هي العولمة GLOBALIZATION ؟ ، إنها تكاد أن تكون ترجمة غير مهذبة للفظ الهيمنة فمن الذي قال أن فقراء زيمبابوي و بنجلادش و موزمبيق شركاء في عالم واحد مع أغنياء واشنطن و باريس و لندن و برلين ؟ و من قال أن العلاقات بين الشمال و الجنوب وفقا لصياغة البنك الدولي و صندوق النقد الدولي هي علاقة سوية ؟ أو تقوم على تبادل الخبرات ، و قد أكد جيمس روزنار و هو أحد أشهر و أبرز علماء السياسة الأمريكيين أن مهمة إيجاد صيغة مفردة تصف أنشطة العولمة تبدو عملية صعبة ، و لضبابية تعريف العولمة أنقسم الباحثون حول مفهوم العولمة بين مؤيد رافض و مستسلم حسب المفاهيم و الأيدلوجيات التي لديهم إلا أنهم يكادوا يتفقوا على عدم تقرير زمن محدد لبداية هذه العولمة ، و قد قسمها روبرتسون ***إلى خمسة مراحل هي :***

(١) : المرحلة الجنينية : بدايتها اتصفت بنمو المجتمعات القومية و كانت هذه المرحلة مرحلة طويلة بدأت من القرن الثاني عشر حتى ظهور المجتمعات القومية في منتصف القرن الخامس عشر .

(٢) : مرحلة النشوء : و هي مرحلة شهود العلاقات الدولية " المجتمع الدولي " و قد شهدت علاقة الدولة و الفرد و الدستور و قد امتدت من منتصف القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٧٠م .

(٣) : مرحلة الانطلاق : و هي مرحلة ظهور الأفكار الكونية في السياسة و الرياضة و الاقتصاد ، و قد امتدت من عام ١٨٧٠ حتى العشرينات من القرن العشرين .

(٤) : *مرحلة الصراع من أجل الهيمنة* : و هي مرحلة الحروب الكونية و الصراعات و ظهور الأمم المتحدة و قد امتدت من العشرينات إلى الستينات من القرن العشرين .

(٥) : *المرحلة الأخيرة* : و هي مرحلة التقدم العلمي و الفني الهائل و الهبوط على القمر و عصر ثورة الاتصالات و قد بدأت من الستينات حتى أواخر القرن الحالي .

و من خلال هذه المراحل يظهر أن العولمة غربية المنطق ، رأسمالية المعالم ، أمريكية الجنسية في القرن الحالي ، و قد أصبحت العولمة تعني بإيجاز أن كلا من المجالات الاقتصادية و السياسية و الثقافية تخضع لقواعد دولية محورها انحسار دور الحكومات في تنظيمها و ترك المجال لحرية العمل في إطار المجالات السابقة دون فرض قيود تعوق أو تحد من ممارسة هذه الحرية . و من الملاحظ أنه لا يوجد اتفاق على المفهوم ، و كذلك لا يوجد اتفاق من حيث المنظور ، فتجد أن المواقف تجاه العولمة متباينة كما أسلفت بين الرافض و الخاضع و المطالب بالعولمة ، فهناك توجه يرى أن الخضوع للعولمة أمر حتمي و ينبغي الرضوخ لمقتضيات العولمة ، بينما المنظور الآخر أن العولمة أمر مفروض يجب العمل على التخلص منه ، و أصبح ينطبق على هذه الاتجاهات حول العولمة ما ينطبق على العميان إزاء الفيل في القصة الشهيرة التي يلمس فيها كل واحد من العميان جانب من الفيل فيظن أنه الفيل فيصف ذلك الجانب على أنه الفيل بأكمله ، دون أن يعرف الجوانب الأخرى المتعددة للفيل فهي متشابكة الجوانب مع عوالم أخرى ، و كل فرد في وصفه للعولمة على صواب تماما لولا أن الأفراد لا يريدوا أن يعترفوا بأن بقية العميان على صواب أيضا ، فهناك من أخذ الجانب الاقتصادي واعتبره هو العولمة ، و آخر الثقافي و اعتبره العولمة ، و قد عرف صندوق النقد الدولي العولمة على أنها التعاون الاقتصادي المتنامي لمجموع دول العالم الذي يحتمه ازدياد حجم التعامل بالسلع و الخدمات و تنوعها عبر الحدود ، إضافة لتدفق رؤوس الأموال الدولية و الانتشار المتسارع للتكنولوجيا في أرجاء العالم كله . هذا التعريف الجميل للعولمة ينافيه الواقع الذي جعل خمس دول تتزعم الاقتصاد

العالمي و منتي شركة عالمية تسيطر على العالم منها ٦٢ شركة في اليابان و ٥٣ شركة في الولايات المتحدة الأمريكية و بقية الشركات و هي ٨٥ شركة على ثلاث دول متبقية جاعلة خطواتها سحقا و تهميشا لبقية دول العالم و ابتلاعها للشركات المحلية المنافسة في الدول الأخرى ، فقل عدد المتنافسين على حساب مزيد من الاحتكار الذي أوجد طبقة من الأغنياء يعيش أبناؤهم في وضعية اللاإنتماء يكبرون بلا جذور ، و لا هوية وطنية ، فوطنهم هو المنتجات و السلع ذات الماركات ، لغتهم الرموز التجارية ، فهم مدربون منذ ولادتهم على الاستهلاك ، قد أصبحت الثقة بالماكينات لديهم أكثر من الأشخاص ، كل شئ لديهم سريع من الحياة السريعة في كل شئ إلى الأكلات السريعة إلى لعبة الحرب بواسطة قذائف الليزر يطلقونها عبر الشاشات فيموت على أرض الواقع آلاف من الأطفال نتيجة البنيان الاقتصادي الزاحف في جميع المجالات و التغلغل في السياسة و الاجتماع مما جعل مجموعة أخرى تنظر إلى العولمة الإعلامية و العولمة الثقافية و غيرها من جوانب العولمة و ليست كل العولمة حسب المنظور الشخصي للعولمة و لذلك نجد من نظر إلى العولمة على أنها وحدة المعمور الأرضي في مجالات التفاعل الإنساني ***و هي ذات مدلولين :***

(١): مدلول سالب : و هو انفعال المغلوبين القابلين لتأثير أصحاب الغلبة في عصر من العصور التاريخية للمعمور من الأرض .

(٢): مدلول موجب : هو فعل الغالبين في التاريخ بأدوات الفعل الغازي غزوا باردا بالثقافة و الاقتصاد أو حارا بالعنف و الاضطهاد .

و يتم الغزو بوسائل منه الغزو الروحي الذي يغير هوية الشعوب ، عن طريق العلوم النظرية و الاستيلاء على شروط وجودها المتمثل في التقنيات الثقافية و الإعلامية ، و كذلك عن طريق العلوم الطبيعية و الاستحواذ على شروط وجودها المتمثل في التقنيات الاقتصادية و العسكرية .

أما العولمة الثقافية فإنها تعني السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة استثمار مكتسبات العلوم الثقافية في ميدان الاتصال و من خلال ما ورد في المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية المنعقد في ٤/٦/١٩٩٩م بمدينة القاهرة ، و من الجدول الحالي يمكننا أن نستخلص بعض السمات الخاصة بالعولمة من منظورها الإسلامي و الغربي .

	العالمية الإسلامية		العولمة
١	هدفها نشر القيم الإنسانية و المبادئ الأخلاقية الربانية	١	هدفها التحرر من كل قيم الأخلاق و الدين .
٢	هدفها الحفاظ على الكرامة الإنسانية لكل البشر	٢	هدفها الحفاظ على الكرامة الأمريكية و الغربية .
٣	هدفها تأكيد حقوق الإنسان و الحرية و المساواة	٣	هدفها تأكيد حقوق الإنسان الغربي
٤	هدفها تأكيد حقوق الإنسان في حماية الأنفس و المعتقدات و العقول و الأموال و الأعراض .	٤	هدفها حماية المعتقدات الديمقراطية .
٥	هدفها إقامة موازين العدل بين الناس وفق المنهج الرباني .	٥	هدفها إقامة و ترسيخ موازين الحضارة الغربية بين الناس .
٦	هدفها صيانة مؤسسة الأسرة و أحترام المرأة .	٦	هدفها صيانة الشركات و الربح على حساب كل القيم و المعتقدات و الأخلاق .
٧	هدفها منع الظلم و الاستغلال بكل أشكالها	٦	هدفها استغلال و قهر الإنسان في الدول النامية من قبل الشركات

و من الناس من يظن أن العولمة هي إحياء لفكر العالمية في الإسلام . و الواقع أن العالمية التي جاء بها الإسلام و دعا إليها قامت على دعوى خير من خالق البشر للناس كافة للالتقاء على أسس إلاهية مصدرها الخالق

لا المخلوق و تتناول جميع جوانب الحياة في العقيدة و التشريعات و الأخلاق لضمان خير الدنيا و الآخرة للإنسان ، و الأوامر و النواهي تأتي من الخالق و ليس من المخلوق ، فلا تسلط على جماعة ، و لا فرض عادات أقوام و آرائهم و تقاليدهم على أناس آخرين . فالعالمية تجمع الناس على أسس الربانية مع التسليم بوجود فوارق و اختلافات في العادات و التقاليد في اللباس و الشراب و في العلاقات العامة بين الجماعات و الأفراد ما دامت جميعها لا تتنافى مع أوامر الله و و نواهيه ، فالمسلمون صلاتهم واحدة ، و صومهم و زكاتهم و حجهم و حدتهم العقيدة مع المحافظة على ألبسة الشعوب ، و أطعمة الشعوب لتتناسب مع بيئتهم ، كما أن مبادئ الإسلام كفلت الحرية في ضوء الشريعة لا مشرع إلا الله ، و لذلك إذا نظرنا إلى العولمة الإعلامية نجد أنها : (عملية تهدف إلى التعظيم المتسارع و المستمر في قدرات وسائل الإعلام و المعلومات على تجاوز الحدود السياسية و الثقافية بين المجتمعات بفضل ما توفره التكنولوجيا الحديثة ، و التكامل و الاندماج بين وسائل الإعلام والاتصال و المعلومات ، و ذلك دعم عملية توحيد و دمج أسواق العالم من ناحية ، و تحقيق مكاسب لشركات الإعلام و الاتصال و المعلومات العملاقة متعددة الجنسيات على حساب تقليص سلطة و دور الدولة في المجالين الإعلامي و الثقافي) .

و من التعريف السابق نلاحظ تجاوز المعلومات للحدود السياسية و الثقافية ، فهي هجمة سياسية مدعومة بسلطة اقتصادية لا يتمكن من خوض غمارها إلا من هو قادر في الدخول في عالمها عن طريق القدرة على المشاركة في صنع القرار داخل صندوق النقد الدولي I.M.F و المنظمات الدولية للتجارة C.M.O البنك الدولي B.M و الاتفاقية الدولية للتجارة GATT و المنظمة الاقتصادية للتعاون و التنمية DCOE و المعاهدة الدولية حول الاستثمار IMA و غيرها ، لذلك نجد أن هناك مواقف متعددة تجاه العولمة ، ففي يوليو عام ١٩٩١ عقد في مدنية أوتاوا العاصمة الكندية مؤتمر ثقافة العالم جاء بهدف التحذير من مخاطر الغزو الأمريكي لعقول شباب العالم عن طريق أمركة الشعوب عبر ثقافة الكاوبوي و العنف و الجينز و الهامبورجر ، *و قد تمخض هذا المؤتمر عن عدة من التوصيات ، من أهمها :*

١- تشكيل تحالف دولي من وزراء الثقافة للدول المشاركة من أجل دعم الثقافة المحلية لكل دولة .

٢- يقوم التحالف على احترام السيادة الثقافية و التعددية الثقافية في مواجهة التنميط " العولمة " .

و قد شاركت في هذا المؤتمر عدد من الدول من ضمنها فرنسا و كندا و بريطانيا و اليونان و عدد من الدول الآسيوية و الأفريقية المتضررة من سيادة الثقافة الأمريكية ، و قد أكدت دراسات اليونسكو حول الموضوع أنه يتوجب على الدول التي تخشى على ثقافتها من الضياع نتيجة لصناعة التسلية و الترفيه الأمريكية العودة إلى أصولها و معتقداتها . فالعولمة الأمريكية حريصة على توحيد ثقافة العالم على أساس الكل يتخيل أنه أمريكي دون أن يعيش في أمريكا عن طريق توحيد نمط الاستهلاك و الذوق الثقافي بين الفرد الأمريكي الذي يلبس الجينز و يحب ثقافة العنف و يشرب الكولا و يأكل الهامبورجر من ماكدونلد أو ويمبي أو الدجاج من كنتاكي مع البطاطس المقلية لفتح مزيد من الفروع في العالم للشركات الأمريكية ، مما يجعل غياب الأطعمة و المنتجات الوطنية ، فيحقر الطفل الطعام الوطني ، و يأكل مثل أي أمريكي ، و يرتدي نفس ما يرتدون ، كما أكد المؤتمر الذي عقد في جامعة هارفرد الأمريكية عام ١٩٩٧ أن نظرة العلماء الذين مثلوا دول تضم أكثر من ثلثي سكان العالم من الروس و المسلمين و العرب و الأفارقة و الصين و الهنود ، *تضمنت عدة أمور :*

١- الولايات المتحدة تمثل التهديد الخارجي الأعظم و الوحيد لمجتمعاتهم .
٢- الولايات المتحدة لا تمثل خطرا عسكريا فقط بل هي خطر على وحدة أراضيهم و استقلالهم الذاتي و رخائهم و حرية تفكيرهم .
٣- الولايات المتحدة دولة متطفلة متدخلة في شئون غيرها .
٤- الولايات المتحدة دولة مستغلة منفردة في قرارها و مهيمنة .
٥- الولايات المتحدة دولة منافقة و تطبق معايير مزدوجة .

٦- الولايات المتحدة دولة متورطة في الإمبريالية العالمية و الاستعمار الفكري .

٧- الولايات المتحدة دولة تنتهج سياسة خارجية تمليها إلى حد كبير السياسة الداخلية .

و هذه النظرة من العلماء نتيجة طبيعية للسياسة الأمريكية التي تتعامل بها مع العالم بنظرة أن شئون العالم تتصرف فيه حسب مصالحها لأن الدول لها مصالحها الخاصة و أن الجزء الخاص بالدولة يخص الدولة و ليس أمريكا ، و قد قال نلسون مانديلا : أن بلاده ترفض أن يكون لدولة أخرى من الوقاحة ما يجعلها تملي علينا إلى أين نتجه ، و أي دولة ينبغي أن نصادق .. نحن لا نستطيع القبول بأن تدعى دولة لنفسها دور شرطي العالم ، و بدأ العالم يتجه إلى لقاءات تستبعد منها الولايات المتحدة الأمريكية ، مثل لقاء موسكو لزعماء روسيا و فرنسا و ألمانيا مع استبعاد بريطانيا الحليف الأوروبي القوي للولايات المتحدة ، كما أن محاولة ظهور مثلث استراتيجي يضم كل من روسيا و الصين و الهند لتحقيق التوازن و كذلك على نطاق أوروبا ظهور الاتحاد الأوروبي و ظهور اليورو كعملة موحدة ، و قد نادى وزير الخارجية الفرنسية بعودة أوروبا لدورها الطبيعي بإيجاد توازن دولي دون سيطرة الولايات المتحدة على عالم متعدد الأقطاب .

أما أوضاع العالم الإسلامي عند ظهور العولمة فقد كان العالم الإسلامي يعيش في وضع مأساوي في ظل الأيدلوجيات المتعددة ، و النظريات المتناقضة ، و خلط في المفاهيم و محاولة تضليل و تزييف للكثير من الحقائق و لعل في ما كتبه الشايجي ما يغني عن البحث و التنقيب ، فقد استقصى أوضاع المسلمين في ظل الواقع ، و قد بدأ مقاله بقوله : أنه من المتوقع أن يبلغ تعداد المسلمين عام ٢٠٠٠ إلى ألف و ستمائة مليون نسمة من مجموع سكان العالم المتوقع أن يصل في السنة ذاتها إلى نحو ستة مليارات نسمة ، أي بنسبة تصل إلى ٢٧% أي ما يزيد على ربع سكان الكرة الأرضية حيث توجد إحدى و خمسين دولة في العالم أغلبية سكانها من المسلمين ، بعضها يصل لنسبة ٩٩% ، ١٠٠% من المسلمين ، بينما تنتشر الأقليات المسلمة في دول مختلفة من العالم ، يصل تعدادها

حسب التقديرات السائدة إلى ٤٠٠ مليون مسلم موزعون في ٩١ دولة منها ٢١ دولة في آسيا و الباسفيكي و ٢٤ دولة في أفريقيا و ٢١ دولة في أوروبا الغربية و الشرقية و أكثر من ٢٠ دولة في الأمريكيتين ، و قد أوضح أن من المتوقع أن يصل عدد الأقليات الإسلامية عام ٢٠٠٠ إلى حوالي ٥٠٠ مليون مسلم ، ***وقد قام برصد ٢٤ حالة تظهر أوضاع المسلمين في بداية عام ١٤٢٠هـ قرابة منتصف عام ١٩٩٩ م .***

١- إبادة للمسلمين في كوسوفا على أيدي الصرب .
٢- مذابح للمسلمين في أذربيجان على يد الأرمن .
٣- تدمير مساجد المسلمين في الهند على يد الهندوس .
٤- سحق للمسلمين في إقليم أركان في بورما على يد البوذيين .
٥- محاربة للمسلمين في الجزائر .
٦- تضييق على المسلمين في تونس .
٧- حملة صارمة على المسلمين في إقليم سنكيانج في الصين على يد بقايا الشيوعية .
٨- حرب تجويع للمسلمين في شمال العراق على يد البعثيين .
٩- حرب أهلية في الصومال قضت على خمسة ملايين مسلم .
١٠- مجازر للمسلمين منصوبة في أرتيريا .
١١- حصد للمسلمين في ليبيريا على يد الحكومة .
١٢- ضياع للمسلمين في الجمهوريات الإسلامية الجديدة .
١٣- قمع و تصفية للمسلمين في أوروبا على يد النصارى الأرثوذكس .
١٤- شتات للمسلمين في أوروبا .
١٥- طرد و إبعاد المسلمين في فلسطين على يد اليهود .
١٦- حرق بيوت المسلمين بمن فيها في كشمير على يد الهندوس .
١٧- مذابح جماعية للمسلمين في سيريلانكا على يد الجيش البوذي و ثوار التاميل .
١٨- حملات قتل و إرهاب للمسلمين في جزر مورو جنوب الفلبين .

١٩= بناء المعتقلات اللاإنسانية للمسلمين في الصحارى العربية و الإسلامية .

٢٠= حملات إبادة للمسلمين في كمبوديا على يد الشيوعيين .

٢١= هجوم على الإسلام و شعائره في بعض البلاد الإسلامية .

٢٢= غزو تنصيري مهول للمسلمين في إندونيسيا و ماليزيا و إفريقيا .

٢٣= تناثر اللاجئين المسلمين في أصقاع المعمورة .

٢٤= محاولة سلخ المسلمين عن دينهم في تركيا .

هذا الرصد السريع من الشايجي وضح مسبباته الدكتور / خضير جعفر ، أن مسبباته تتمحور حول ثلاثة محاور هي :

أولها : عجز علمائه ، و ثانيها : جهل أبنائه ، و ثالثها : كيد أعدائه ، هذه الثلاث كادت أن تحول العالم الإسلامي إلى جثة هامدة أثخنتها جراح الغدر ، و استنزفتها أحقاب القهر ، و أحالتها إلى رقم مهمل في زوايا النسيان ، و قد وضح جعفر أن الأماني و الطموحات و ردود الفعل و الانفعالات و الادعاءات غير قادرة على حسم الموقف لصالح معركة الحضارة الإسلامية في عالم تسوده لغة القوة ، ويتسلح أهله بآخر ما أبدعته تكنولوجيا الدمار ، و حضارة العنف و الاستعمار ، وثقافة الاستئثار و الاستهتار ، و قد سخر كل أسباب العلم ، و وسائل المعرفة ، و النظام و منطق الأرقام و الإحصائيات لصالح معركته مع المسلمين .

و لعله من الملاحظ أن العالم الإسلامي اليوم يعيش في وضع عجيب ، يظهر من خلاله ضعف المسلمين بصفة عامة ، فالمسلمين ضعفاء عالة على غيرهم ، و الإسلام قوي لم يستطع الغرب بكل ما لديه من وسائل إعلام أن يعيق تقدم الإسلام أمام أبناء معظم قارات العالم ، رغم تشويه صورة الإسلام الذي تعمدت وسائل الإعلام الغربية بتصويره بأنه الإسلام الدموي ، المتطرف ، الإرهابي ، الأصولي ، هذا الخلط لدفع الأفراد للاعتقاد أن العدو القادم بعد انهيار

الاتحاد السوفيتي هو الإسلام ، فأصبح بموجب هذه الخطة " الإسلام الأصولي " يحتل مكانا بارزا في أطروحات الإعلام الغربي ، و ذلك بقصد التعتيم الإعلامي ، و توجيه النظر إلى الإسلام الذي شوهت معالمه وسائل الإعلام بدلا من معرفة الناس أن الصراع القائم هو صراع الفقراء و الأغنياء ، أي أغنياء الشمال مع فقراء الجنوب الذي يسكنه المجتمع الإسلامي و غير الإسلامي من بقية الشعوب التي تئن من شدة الفقر و الجهل و المرض و البطالة و الجور و الظلم و الاستبداد و إحباط عام بدأ يسود شباب الثانويات و الجامعات لضيق فرص العمل حتى في الدول الغنية في العالم الإسلامي ، مما أفسح مجال الرشوة ، و أكل الحرام ، فأصبح واقع العالم الإسلامي بعيد عن قيم الإسلام العظيمة و مثله العليا و أهدافه السامية ، فضعف إحساس الناس بواجباتهم تجاه المجتمع و تجاه الدين و الدنيا معا ، فأصبح كثيرا من أبناء المجتمع يعيش عزلة شعورية بعيدة عن قول المصطفى صلى الله عليه و سلم : الذي يظهر أن الفرد لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فالقضية الرئيسية هو سيطرة الأغنياء على الفقراء من خلال الأطر السياسية و الاقتصادية و غيرها ، ففي المجال الاقتصادي على سبيل المثال نجد أن جداول الدين العالمي التي أصدرها صندوق النقد الدولي أكد أن ديون الدول النامية بلغت ١٨١٢ مليار دولار في نهاية عام ١٩٩٤ ، هذه المليارات يجب تسديدها للدول الغنية من قبل ١٥٤ دولة فقيرة تزداد في كل يوم فقرا و مرضا و جهلا ، مما جعل دولة مثل المكسيك ترهن عوائد نفطها كاملة لسداد أصل الدين و هو سبعة مليارات دولار سنويا ، بعد أن بلغت ديونها ١١٨ مليار دولار عام ١٩٩٣ ، مما يجعل المكسيك تحتاج إلى قرن كاملا لسداد ديونها إذا ثبتت نفقاتها و توقف النمو السكاني مع ضرورة إهمال فوائد الديون المتراكمة .

أما الدول الدائنة أي الدول الصناعية ، فإنها تمارس كل طرق الابتزاز و الهيمنة السياسية و الاقتصادية مع أن الدول الصناعية لم تبن قوتها الاقتصادية إلا من خلال سرقة الموارد الأولية بثمن بخس من الدول النامية أيام الاستعمار ، و بيع منتجاتها بأثمان باهظة و تقديم الأسلحة بأثمان خيالية ، ليقتل الناس بعضهم بعضا .

و بذلك يتضح أن الغرب استبدل الامتيازات الأجنبية و أصبح عصر العولمة هو عصر الابتزاز بواسطة الديون و الأرباح الربوية ، فأصبحت الدول الفقيرة هي المتلقية و التابعة للدول الغنية ، و هو تأكيد لمفهوم النظريات التي ظهرت في القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين ، ***النظرية الأولى :*** هي النظرية البيولوجية السياسية التي تتيح للدول الكبرى التهام الدول الصغرى و على الشعوب أن تموت و تفنى ، أو أن تكون تابعا طبيعيا للدول الكبرى ، ***و النظرية الثانية :*** هي نظرية الأرض التي لا صاحب لها و مضمونها إباحة استعمار الدول الكبرى لكل أرض يسكنها شعب متخلف ، أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة غير مسيحية خارج نطاق القارة الأوروبية ، مما جعل للأعمال البربرية صفة شرعية دولية ، مما خلق الثراء الفاحش حيث وصل من تتجاوز ثرواتهم المليار دولار يزيد عن خمسمائة شخص حول العالم في عام ١٩٩٩ ، بينما قبل عشر سنوات لم يتجاوز العدد ٩٠ ملياردير ، و في هذا العام أصبح ٥٦٠ ملياردير بثروة تزيد عن ألف مليار دولار أي أكثر من مجمل الدخل السنوي لنصف سكان العالم ، و تعتبر أمريكا في مقدمة الدول التي تضم المليارديرات ، منهم المواطن الأمريكي بيل غيتس أغنى رجل في العالم بدون منافس حيث بلغت ثروته ٥١ مليار دولار في عام ١٩٩٨ و قفزت إلى ٩٠ مليار دولار في هذا العام و هو ما يفوق ميزانيات الدول العربية و أصبح بثرائه لديه القدرة أن يدفع لكل مواطن أمريكي ٣٦٠ ألف دولار و لكل إنسان على وجه الأرض ١٦ دولارا ، و أن يدفع مليون دولار في اليوم لمدة ٢٣٧ عاما .

للعولمة مؤيدوها و معارضوها . ناقش مبينا وجهة نظرك .

هذه بعض مظاهر العولمة في العالم الإسلامي و في العالم بصفة العموم ، أما بالنسبة للدول العربية فإنه قد يكون من الأمور الواضحة أنه بعد انتهاء الحرب الباردة في النصف الأول من التسعينات ، برزت اتجاهات متعددة لتأكيد تبعية الشرق الأوسط الضعيف لأوروبا الغربية و أمريكا ، فكان ترسيخ للمفهوم السابق بالنظر لنفسه أنه العالم ، و الآخر شرقه و غربه أدنى و أقصى ، فالعرب

بالنسبة لمن شرق أوسط و المغرب بالنسبة لمن شرق أدنى و الشرق الأقصى بالنسبة لمن شرق أقصى فظهرت الاتجاهات العامة لرسم خريطة العالم الاقتصادية و السياسية من قبل الدول الغربية و الولايات المتحدة الأمريكية ، فبعد انتهاء جولة الأورجواي في ١٥ ديسمبر ١٩٩٣ في جنيف كانت من مخرجات أهدافها ظهور اتفاقية عامة للتعريفات التجارية ، قصد منها إزالة الحواجز التي تعوق التجارة العالمية ، أي جعل سوق أكبر للإنتاج الغربي ، و قد وقعتها ١١٧ دولة و صدق عليها في ١٢ إلى ١٥ إبريل أثناء المؤتمر الوزاري في مراكش ، و بدأت الاتفاقيات من أصحاب القرار ، و هو الولايات المتحدة و دول الاتحاد الأوروبي (١٢دولة) و بعض دول جنوب شرق آسيا ، و قد استسلمت ٩٠ دولة نامية و قامت بالتوقيع دون أن يكون لها دور رئيسي في المفاوضات الفعلية ، و قد استبعد البترول من أحكام الاتفاقية رغم أهميته في اقتصاد عدد من الدول العربية لأن الدول الصناعية الغنية هي التي تولت صياغتها بما يتناسب مع ما يخدم مصالحها و يكفل تدفق البترول بأرخص الأسعار ، و قد وضع الاتحاد الأوروبي تعريفة جمركية على الواردات البترولية على أساس ٥٠% من قيمة التعريفة المطبقة في نيسان عام ١٩٩٥ و ١٠٠% من التعريفة المطبقة في يناير عام ١٩٩٦ ، كما أن القضية الثانية أو الاتجاه الثاني و هو الشرق أوسطية فبعد مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط عام ١٩٩١ و ما تلاه من اتفاق أوسلو بين الصهاينة و الفلسطينيين في سبتمبر عام ١٩٩٣ الذي له آثاره السلبية الكبيرة على العمل الاقتصادي المشترك لما تضمنه من الإعلان عن مؤشرات للتعاون الإقليمي الشرق أوسطي فبدأت الترجمة الفعلية للاتفاق بانعقاد مؤتمر الشرق الأوسط و شمال إفريقيا بالدار البيضاء في أكتوبر عام ١٩٩٤ ثم مؤتمر عمان عام ١٩٩٥ و المؤتمر الثالث في القاهرة عام ١٩٩٦ ثم المؤتمر الرابع بالدوحة عام ١٩٩٧ ، حيث ظهر من عنوان هذه المؤتمرات مؤشر قوى لفترة العولمة و هو تمزيق للاتحاد العربي و تغيير خارطة الوطن العربي و مسخ هويته التي استقرت في وجدان العرب منذ زمن بعيد ، و بدأت الدوائر الإسرائيلية و الدوائر الغربية في توسيع مفهوم الشرق أوسطية لتضم إليه دول أخرى غير الدول العربية في محاولة جادة لتسويق مشروع التعاون الإقليمي لاستيعاب الكيان اليهودي و تمكينه من مزيد من الهيمنة على

المنطقة اقتصاديا و سياسيا و عسكريا ، كجزء من عملية إعادة تشكيل المنطقة العربية وفق الاستراتيجية التي تقوم على دعامتين أساسيتين هما : ضمان أمن إسرائيل و تفوقها النوعي على جميع الدول العربية و ضمان تدفق النفط العربي بأرخص الأسعار ، و بهذا يظهر أن فكرة الشرق أوسطية تعطي إسرائيل دورا هاما يجعلها قادرة في التدخل في ستة مجالات مهمة هي الاقتصاد و التسلح و البيئة و السكان و أنظمة الحكم و توزيع الثروة .

و لعله من الملاحظ أن نهاية القرن العشرين يمثل انهزام لثلاث أيديولوجيات و هي الفاشية و النازية و الشيوعية و تبلورت مظاهر أيديولوجيات جديدة ، و لعل العولمة بمظاهرها المتعددة سوف تمثل أيديولوجيات ، بعد أن انتقلت كمفهوم من مستوى الظاهرة إلى المجال النظري ، إلا أنه لم يتم تحديد نظري واضح لمفهوم العولمة ، ***فالعولمة كظاهرة ما زالت غير واضحة المعالم من حيث تحديد المفهوم و من حيث اختبارها على أرض الواقع ، فهي :***

تعبير عن ديناميكية جديدة تبرز داخل دائرة العلاقات الدولية ، من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة و السرعة في عملية انتشار المعلومات و المكتسبات العلمية و التقنية .. فهي تفهم ضمن سياق سياسي جديد ، ما زالت ملامحه قيد التشكيل ، تنحسر في السياسات الوطنية إزاء مجموعة القيم و الالتزامات التي تخلقت بفعل الدعوى إلى إقامة نظام عالمي جديد الغرض منه بناء نظام شمولي تلتئم فيه مصالح أممية و قطرية مختلفة في مصادرها و آفاقها ، و هذا يعني أن العولمة ينظر إليها من خلال ما تأسس من خلفية معرفية ، و تصورات فرضتها الممارسة التاريخية بعد ذهاب الاتحاد السوفيتي و حلول الولايات المتحدة الأمريكية بقوة الوقائع الجديدة بملامحها المعتمدة على الخصخصة في الاقتصاد و الاستهلاك في الثقافة ، كما أن العولمة تحاول تعميم نموذج مغاير لمفهوم المواطنة و لمعاني الإحساس به ، و الحد من حرية الدول في اتباع سياسات وطنية مستقلة ، في سبيل ترسيخ نموذج يسعى إلى إلغاء السياسة لفائدة الاقتصاد ، و تعدد نماذج الإنتاج لفائدة الاقتصاد الليبرالي المفتوح ، و اعتماد التنافس كآلية في نظام السوق ، فملامح السياسة و الاقتصاد الشمولي و ما يتواكب معهما من قيم ثقافية

تسعى إلى الهيمنة مستخدمة الإعلام كوسيط لغرس القيم الجديدة المرتبطة بالعولمة ، موجدة مشهدا ثقافيا تتشكل فيه القيم الجديدة لمجتمع مفتوح يغفل فيه الخصوصيات و الحدود الخاصة .

و إزاء تلك الأوضاع المتردية فإن التربية في عالمنا العربي و الإسلامي مطالبة بإيجاد الفرد المسلح بهوية ثقافية عربية أصلية ، و عقلية علمية قادرة على استيعاب تحديات العصر العلمية ، فرد لا تذوب هويته في بحر العولمة الطاغي ، و لا تعجز قدراته العقلية على مواجهة التطور العلمي الهائل الذي يشهده العصر ، و هل التفوق العالمي إلا صدى حقيقي للتفوق العلمي و ما ترتب عليه من تفوق عسكري و اقتصادي و ثقافي .. الخ .

و تؤكد الدراسة الحالية أن تربيتنا العربية و الإسلامية المعاصرة لا تعد الطفل العربي ليكون مسلما قويا ، و لا صاحب نظرة علمية للكون و الحياة ، و رغم أننا نحن أبناء العالم الإسلامي أصحاب عقيدة دينية لها مبادئها و خصائصها ، و هي قادرة على تحريك الأفراد و الشعوب ، و رغم أن الأيديولوجيات الأخرى قد غزت عالمنا الإسلامي و أصبح لها وجود خطير كما في اليمن الجنوبية و أفغانستان ، و رغم قدرة التربية الإسلامية الصحيحة على مواجهة هذا الغزو الأيديولوجي ، فإن الاهتمام بالتربية الدينية أقل من الاهتمام بالمواد الأخرى داخل مؤسسات التعليم ، ففي مصر مثلا نجد أن حصص مادة اللغة الإنجليزية تبلغ ثلاث أمثال حصص التربية الدينية ، و حصص المواد الاجتماعية ضعف عدد حصصها ، و كذلك بالنسبة لحصص مادة العلوم و مادة الرياضيات .

و حتى في الدول التي اهتمت بالتربية الدينية من حيث عدد الحصص كالسعودية ، حيث شكل التعليم الديني فيها ٣٢,٥% من منهج التعليم العام بالمرحلة المتوسطة ، و هي أعلى نسبة في العالم العربي و الإسلامي ، إلا أن المطالعة الأولية لموضوع الكتب الدينية تظهر بوضوح عدم ملائمة الموضوعات لقدرات التلاميذ و مراحل نموهم في صف دراسي ، كما ابتعدت تلك الموضوعات عن

معالجتها القضايا المعاصرة التي تهم التلاميذ بالإضافة إلى أسلوبها الصعب الذي كتبت به في غير مستوى الطالب .

و لا يقتصر الأمر عند قلة الحصص المخصصة للتربية الإسلامية أو صعوبة الكتب المقررة و عدم حداثتها و مناسبتها لأحداث العصر ، بل يتعدى ذلك إلى استخدام طرق التدريس التقليدية و التي تقوم على الحفظ و التلقين دون المناقشة و البحث و الحوار ، و اختفاء المناخ المشبع بالقيم الإسلامية ، و بالقدوة الصالحة التي تمثل تعاليم الإسلام و تطبقه في سلوكيات تمتد جذورها في نفوس التلاميذ .

و إذا كان هذا هو حظ أطفالنا من التربية الإسلامية في مؤسسات التعليم العام ، فإن الصورة أكثر قتامة إذا ذكرنا وسائل الإعلام من إذاعة و صحافة و تليفزيون و كتب و مجلات أطفال ، فمع القدر القليل من الاهتمام الذي يناله الطفل العربي من تلك الوسائل ، إلا أن هذا القدر يحمل في الغالب مفاهيم و قيم و أسلوب تربية تختلف إلى حد ما عن المفاهيم و القيم و أساليب التربية الإسلامية .

و لعل حظ طفلنا العربي من التربية العلمية لا يقل سوءا عن حظه من التربية الإسلامية الفعالة ، ذلك أن كمية و نوع ما يحصل عليه الطفل العربي من العلوم يدعو للأسف لعدم كفايته ، و واضح أنه أقل كما و كيفا مما يمكن أو يجب تدريسه إذا كان في نيتنا أن ندخل عصر العلم و التكنولوجيا المدخل الصحيح ، إذ يفتقر الطفل العربي بكل المعايير إلى مصادر التربية العلمية من مجلات و كتب علمية و حزم تعليمية باللغة العربية ، ***و يوجز لنا أحد الباحثين ذلك بقوله :***

> << إن أي مقارنة عشوائية بين الكتب العربية المقررة لتدريس العلوم في كل مراحل التعليم مع مثيلاتها من الكتب المستعملة في الدول المتقدمة لتظهر لنا بونا شاسعا في أسلوب و منطق العرض و التصميم النظري للمادة و مستوى الطباعة و الرسم .. فإذا انتقلنا إلى مكتبة المدرسة العلمية لوجدنا أن هناك القليل من المصادر العلمية المكتوبة بالعربية و التي يمكن

للطالب أو المدرس الاستعانة بها ، و هناك أقل من القليل من المجلات العلمية الجادة التي تساعد في تنمية الثقافة و الشغف العلمي و زرع الهوايات و الأفكار الجديدة >>

كذلك فإن أساليب التدريس المتبعة في مدارسنا ما زالت تقوم في معظمها على تقديم المعارف العلمية في صورة مجردة دون الاهتمام بالربط بينهما و بين مشكلات يحس التلاميذ بأهميتها ، فهي تهتم بالتلقين و الحفظ دون الفهم و التطبيق ولا تعنى بالتجريب و تشجيع المتعلمين على الكشف عن الحقائق بأنفسهم ، و من شأن مثل هذه الأساليب أن تقلل من ميل التلاميذ نحو الدراسة العلمية ، و من المعروف أن قصر الاهتمام على الجانب الأكاديمي العقلي للعلم لا يتماشى مع الصورة الحديثة للعلم التي تجمع في وحدة واحدة بين العلم و تطبيقاته ، كما أن النقل المعرفي وحده غير كاف لتحقيق أهداف التربية العلمية التي تتضمن إنماء التفكير العلمي و النظرة العلمية الشاملة و الاتجاهات و الميول و أنماط السلوك و غيرها من جوانب الشخصية اللازمة للحياة في المجتمع العلمي الحديث و النهوض به .

يضاف إلى هذا كله عجز مدارسنا العربية في معظمها عن توفير المناخ العلمي المناسب داخل المدرسة ، و لعل من أهم عناصر هذا المناخ العلمي النشاط الذي يمكن أن يمارسه التلاميذ من خلال النوادي العلمية و الرحلات و الزيارات إلى المؤسسات العلمية و مواقع الإنتاج و المتاحف و المعارض و الاستماع إلى المحاضرات و الندوات العلمية المبسطة ، و مشاهدة الأفلام العلمية ، و تشجيع الطلاب على القراءات العلمية و تكوين مكتبة علمية مناسبة ، إلى غير ذلك من أوجه النشاط غير الصفي الذي يساعد على نمو الاتجاهات و الميول العلمية لدى الأطفال .

و في دراسة عن الإنتاج الفكري المطبوع للطفل في المملكة العربية السعودية – و هي من الدول البترولية ذات الدخل المرتفع – تؤكد الدراسة على أنه لم تصدر للطفل في المملكة العربية السعودية دوريات متخصصة في أي مجال

علمي أو ديني ، كذلك فإن موضوعات العلوم و الزراعة و الصناعة و الطب لا يوجد لها أي أثر في مجالات التأليف للطفل بحيث لم تجد الباحثة كتابا واحدا ينتمي إلى تلك الموضوعات ، و عليه فقد دعت كتاب الأطفال أن يوجهوا كتاباتهم إلى موضوعات علمية مثل : موضوعات العلوم البحتة و التطبيقات كعلوم الفيزياء و الكيمياء و الفلك و العلوم الطبيعية كعلوم الحيوان و النبات ، و العلوم الرياضية كالهندسة و كتب الاختراعات .

و في مقابل هذا التجاهل الواضح للتأليف العلمي للطفل العربي تذكر الدراسة ما يناله الطفل الغربي من رعاية علمية ، إذ تصدر له السلاسل العلمية الأنيقة ، بل و الدوريات المتخصصة ، و من أشهرها مجلة RANGER RICK و التي تعتبر منجم ذهب من الأفكار و الأنشطة للطفل المحب للطبيعة ، و مجلة ODYSSELY و هي أول مجلة أطفال مصممة و مخططة لمعالجة الفلك و الفضاء الخارجي من خلال الواقعية ، و لذلك تقترح الباحثة في نهاية الدراسة ضرورة ترجمة المؤلفات الأجنبية الخاصة بالأطفال ، و خاصة المؤلفات التي تتناول علوم الطبيعة و الرياضيات و الصحة على أن تكون محققة للهدف منها و بأسلوب سهل يفهمه الطفل .

مما سبق يتضح أن الطفل العربي لا تتوفر له الظروف المناسبة لإعداده الإعداد العلمي و الإسلامي المناسب ، و من هموم تلك الدراسة أن نكشف خطورة استمرار ذلك الوضع التربوي المتردي إذ بدون إعداد الطفل العربي إعدادا إسلاميا و علميا فإنه لن يستطيع أن يواجه التحدي المفروض عليه مستقبلا من قبل قوى عالمية شرسة تسعى إلى التسلط و السيطرة و فرض الوصايا على كل مقدرات الحياة في العالم العربي و الإسلامي .

و عندما تركز الدراسة الحالية على الثقافة الإسلامية للطفل العربي ، فإنها تراعي في ذلك العامل الديمغرافي ، الذي يتمثل في كون الأغلبية الساحقة من الأطفال العربي مسلمين ، إذ تزيد نسبتهم حسب إحصاء ١٩٨٥ عن ٩٠% و ترتفع في بعض الدول – كدول الخليج مثلا – إلى ١٠٠% بينما تصل إلى حوالي ٦٠%

في كل من لبنان و فلسطين المحتلة ، و طبيعي و نحن نخطط لحاجات الطفل العربي الثقافية أن نأخذ بعين الاعتبار ثقافة الأغلبية المسلمة .

يضاف إلى ذلك العامل الديمغرافي ، العامل الأيديولوجي الذي يتميز به الإسلام كقوة قادرة على تعبئة الأطفال ، و تنظيم استعداداتهم بأسلوب عقائدي يستنهض الهمم ، و يستثير العقول النائمة ، و يعبئ جماهير الأطفال العربية المسلمة كي يساهموا جميعا في إقامة نمط جديد من المجتمع المسلم القادر على البناء داخليا ، و مواجهة التآمر العالمي الرأسمالي و الشيوعي و الصهيوني ، و هي مواجهة لن يستطيع العرب الانتصار فيها إلا باستخدام الأسلوب العقائدي في تعبئة القوى البشرية اللازمة لإدارة تلك المواجهة الطويلة الضارية .

أما لفت النظر إلى أهمية البعد العلمي في ثقافة الطفل العربي ، و هو البعد الغائب بصورة واضحة في تكوين الشخصية العربية ، فهو استجابة للتطورات الدولية التي أدت إلى ازدياد الاهتمام بالعلوم ، و الإيمان المتزايد بأن تقدم الإنسان في عصرنا الحديث مرتبط إلى حد كبير بتقدم العلوم و تطور القوى المنتجة ، مما يستلزم ضرورة تسليح الطفل العربي بالعقلية العلمية حتى يستطيع الاستفادة من معطيات العلم الحديث ، و تمكينه مستقبلا من المساهمة في الإنتاج العلمي أخذا و عطاء ، تمثلا و ابتكارا ، دون أن يحمله ذلك على التنكر لتراثه الثقافي الخاص به .

و لا ينازع أحد على الأخذ بالعلم في أعلى مستوياته العالمية هو سبيلنا الأكيد لمواجهة التحديات التي فرضت علينا ، و أن صراع الوجود أو العدم بين أمتنا العربية و الإسلامية و بين أعدائنا ، إنما هو بالدرجة الأولى صراع علمي تقدر نتائجه العقول العلمية القادرة على إدارة الصراع بكفاءة و نجاح ، و عليه فينبغي للعلم و الثقافة أن يصبحا من المقومات الأساسية لكل مشروع تربوي و ثقافي يخصص للأطفال و الشبان و الراشدين ، من أجل مساعدة الفرد على التحكم في الثروات الطبيعية و الطاقات المنتجة ، و حفز القوى الكامنة

في المتجمع للنهوض و المشاركة في التنمية الثقافية و العلمية الملائمة لاحتياجات الأمة .

و عليه فإن هدف ثقافة الطفل العربي في تلك المرحلة ينبغي أن يكون تنمية الوعي الإسلامي لدى الطفل ، و غرس المبادئ الإسلامية في نفوسهم ، و تلقينهم قيم الحضارة الإسلامية و الحب و الولاء للأمة العربية الإسلامية ، و بجوار هذا الهدف الأيدلوجي الإسلامي و معه في نفس الوقت ، و بنفس القدر من الأهمية تأتي ضرورة تكوين المدركات العلمية المناسبة لدى الأطفال و غرس الاهتمام بالعلوم الحديثة و تشجيع الميول و الاتجاهات العلمية الأساسية اللازمة مثل : حب الاستطلاع و التخيل و الملاحظة و مشاكل ذلك – تلك الاتجاهات التي تعين الطفل على أن يصير إنسانا مبدعا واعيا " .

إن حصر ثقافة الطفل العربي في الجانب الديني أو القومي لن يجعل منا أمة عصرية أو مسلمة ، لأننا في مثل تلك الحالة سوف نضطر إلى استيراد الخبرة الأجنبية في كثير من شئون حياتنا كما هو حادث حاليا ، و هذا فضلا على أنه يجعلنا أمة غير عصرية و غير مستقلة ، فهو في نفس الوقت يجعلنا أمة غير كاملة الإسلام ، إذ يدعونا الإسلام إلى الدراسة و البحث و التعرف على السنن الإلهية في الكون المادي و في الحياة البشرية .

إن الجانب العقائدي يدفع المسلم إلى المزيد من العلم لفهم آيات الله و مظاهر قدرته ، و بذلك يزول عنده هذا التقسيم غير الصحيح بين العلوم الدقيقة و الطبيعية من جهة ، و العلوم الإنسانية و الاجتماعية من جهة أخرى ، و هو تقسيم في وضعه الحالي مناقض لروح الإسلام ، الذي يجعل علم الإنسان علما واحدا يشمل معرفته بالله و سننه في الكون المادي و الحيوي .

و تمثل الثقافة الإسلامية العمود الفقري لشخصية الطفل العربي المسلم ، و أداة التوحيد الثقافي و التماسك الأيدلوجي القادر على مواجهة تحديات العصر ،

وعليه فإن تعميم حد أدنى من الثقافة الإسلامية بين الأطفال العرب لا يعتبر واجبا إسلاميا فقط ، بل هو واجب قومي و حضاري فضلا عن أنه ضرورة حياة .

إن غياب الثقافة الإسلامية الصحيحة و عدم توفرها بالقدر اللازم يعتبر شرخا خطيرا في شخصية الطفل العربي المسلم ، و على النقيض تماما من عدم توفير ثقافة إسلامية فعالة للطفل العربي ، نجد أن الطفل الإسرائيلي ينال حظا مناسبا و كافيا من الثقافة العبرية التي تسهم في تكوين شخصيته مهما كان تخصصه في الستقبل ، ***يقول مايربار إيلان :***

(إن روح التلمود و معرفة عامة بشرائعه و آدابه يجب أن يكون جزءا من دراسة كل يهودي متعلم ، و لو لم يكن سيجعل من حقل الدراسة هذا مجالا للعمل ، و الأمر شبيه بتعلم الفيزياء و الرياضيات ، فمع أنه ليس كل تلميذ يتخصص فيهما و لا يستخدم جميع ما يتعلمه منهما في حياته العلمية إلا أنهما ضروريان له ، كذلك بالنسبة للتلمود ، يجب أن يحفظ كل تلميذ مقاطع معينة منه و أن يتشرب روحها) .

و إذا كان هذا حظ التلمود و روحه من العناية في تربية الطفل الإسرائيلي فإن القرآن الكريم بما يحتويه من روح الوحدة و القوة و التميز الإسلامي أحق أن ينال مثل تلك العناية في تربية الطفل العربي المسلم .

و هنا تؤكد الدراسة على أهمية إيجاد الروح الإسلامية الفعالة و عدم الاكتفاء بوجود روحانية خاملة داخل مؤسساتنا التعليمية ، إن مجرد المناهج الباردة و الأنشطة الشكلية و المعلم غير المعد و غير القدوة ، و طرح موضوعات بعيدة عن قضايانا و مشكلاتنا المعاصرة ، لن تقدم للأطفال ما يريدون من حلول إسلامية لمشكلاتهم المعاصرة ، يقول أحد الباحثين : (أن الناظر إلى أحوال العالم الإسلامي عامة و إلى الدراسات الدينية لأبناء المسلمين في مراحل التعليم المختلفة يلمس أن هناك فرقا كبيرا بين جوهرها الذي يبعث على الإشراق و الأمل و بين واقعها

الممل الجاف الذي يشعر أبناؤنا من خلاله أنهم يدرسون مواد بعيدة كل البعد عن واقع حياتهم المتحرك ، و الحقيقة أن الخطط و المناهج الدراسية و طريقة إعداد المعلم الذي يدرس المواد الدينية تحتاج كلها إلى إصلاح) .

كذلك تحظى اللغة العبرية و التاريخ العبري عبر العصور بما في ذلك التاريخ المعاصر بأهمية بالغة في التربية الإسرائيلية ، و يدخل في ذلك الاهتمام بدراسة الأقليات اليهودية في العالم ، دراسة تشمل تركيبها و منظماتها و ثقافتها و عاداتها و ارتباطاتها مع إسرائيل ، و الهدف من ذلك ربط الأجيال الإسرائيلية بيهود العالم ، حتى لا ينسى الطفل الإسرائيلي شعوره بالانتماء للأمة اليهودية الواحدة داخل إسرائيل أو خارجها ، و قد آن الأوان بالفعل أن يرتبط الطفل العربي شعوريا و عمليا بكل زملائه في العالم الإسلامي و خارجه – الأقليات المسلمة في العالم – و استثمار تلك المشاعر الإسلامية في التعاون على إيجاد حلول مناسبة لمشكلاتنا المعاصرة .

و بإيجاز فعند محاولة وضع حد أدنى للثقافة الإسلامية المناسبة للطفل العربي ، فإن الدراسة توصي بضرورة إلمام الطفل العربي بمفاهيم إسلامية صحيحة عن الله و رسوله و الإسلام ، و حفظ قدر مناسب من القرآن الكريم و الحديث الشريف ، و توفير قراءات مناسبة لهذا السن في العقائد و الأخلاق و الفقه الإسلامي ، كذلك فإن الطفل في تلك المرحة لابد أن يكون المدركات العقلية و العواطف و الاتجاهات المناسبة نحو أهم القضايا و المشكلات الإسلامية المعاصرة كقضية فلسطين ، و الوحدة الإسلامية ، مشكلات الحكم و الاقتصاد و الاجتماع و حلولها الإسلامية ، و قضايا المسلمين في الفلبين و الهند و كشمير و أريتريا و غيرها ، و حجم التحديات والمؤامرات التي تواجه الإسلام و المسلمين في كل مكان كتحدي و مؤامرات الصهيونية و الشيوعية و الماسونية و جميع مظاهر التبعية الثقافية و السياسية و الاقتصادية و العسكرية ، و أن يلم بأحوال الأقليات المسلمة في العالم ، و يتعاطف مع تلك الأقليات و يعيش همومها ، و يضاف إلى ذلك وضع كتاب مبسط في الخط و الإملاء و النحو العربي و إيجاد قواميس اللغة المصورة و المبسطة و المناسبة لهذا السن .

إن تعميم هذه الثقافة الإسلامية بين الأطفال العرب و التوسعة التدريجية و التصعيد المستمر لهذه الثقافة فضلا على أنه سبيلنا الأكيد للوحدة و التوحد ، فهو أيضا طريقنا المناسب لإيجاد الأجيال الجديدة القادرة أيدلوجيا و فكريا على إدراك حجم التحدي الذي تواجهه أمتنا العربية و الإسلامية ، كذلك فإن بلوغ البعد الأقصى و بالتدريج في تلك الثقافة الإسلامية هو الذي سيوجد لنا أجيال الانتصار و التحرر ، و طبيعي أن يتم ذلك كله وفق خطة تربوية ملائمة تستعين بجميع ألوان التعبير الممكنة ، الشفوي و الكتابي و الصورة الصامتة ، فضلا عن الوسائل السمعية و البصرية المتعددة .

لم يعد العلم هذه الحرفة المقدسة التي يمارسها طائفة خاصة من الإنسان الأسمى و هم العلماء ، و رغم أن العلماء ينبغي أن يحتلوا المكان اللائق بهم كركن جوهري من أركان ثقافتنا المعاصرة ، إلا أن وجود هذه الطائفة يعتمد إلى حد كبير على وجود الإطار الثقافي العام الذي يشجع على البحث و يحترم حرية التفكير ، أي أن وجود العالم يعتمد على البيئة الثقافية التي تحيط به ، إن العالم لا يصبح عالما بالوراثة بل نتيجة تنشئة علمية مناسبة تبدأ منذ طفولته و تستمر معه طوال مراحل تكوينه العلمي و تشارك فيه مؤسسات المجتمع المتعددة .

من أجل ذلك فقد حرصت دول العالم على توفير البيئة العملية المناسبة لنمو المواهب العلمية لدى أطفالها ، و توفير الوسائل و الأدوات المتعددة لشحذ تلك المواهب ، فبجوار الكتب العلمية الطريفة المصورة ذات المعلومات الحديثة عن الإنسان و الكون و الطبيعة ، و بجوار الموسوعات العلمية المتعددة المستويات ، و القواميس العلمية الملونة ، صممت العديد من اللعب و صناديق العينات العلمية بجوار العديد من المعارض و المتاحف العلمية و القباب السماوية " البلانتزيومات " و النوادي .. الخ .

و الذي يتابع التنشئة العلمية لدى الدول المتقدمة يلاحظ مدى حرص تلك الدول على توفير ثقافة علمية حية للطفل ، و ربط تعليم العلوم بالبيئة و بحياة الطفل و ما يحيط بهم من أرض و جو و هواء و كهرباء و آلات مختلفة بحيث

يساعدون الأطفال على تكوين المدركات العلمية الصحيحة عما يحيط بهم من عناصر ، مع الاهتمام بأصحاب الميول العلمية و رعايتهم و تشجيعهم على الاستمرار في دراسات العلوم و التكنولوجيا ، و عدم الانصراف عنها أو اختيار ميادين تخصص أخرى ، و توفير المناخ العلمي المناسب لذلك كله داخل و خارج المدرسة .

و لعل طفلنا العربي ما زال يفتقد الحد الأدني من الثقافة العلمية اللازمة لهذا السن ، دع عنك التعمق و التوسع في الأمور العلمية المتصلة بالضوء و الطاقة و الحرارة و الصوت و الجاذبية و الكهرباء و الآلات و النبات و الحيوان و جسم الإنسان و سطح الأرض و الماء و الهواء و الطقس و الفضاء ، و ليس هذا النقص في تكوينه العلمي عيبا فيه أو قصورا منه بل هو حصاد ظروف أسرية قاسية تتمثل في ظروف اقتصادية متدنية و انتشار الأمية بين الآباء و الأمهات ، و يضاف إلى ذلك نظام تعليمي كسيح لا يرعى موهبة علمية و لا يضرم شرارة العلم في طفل موهوب .

إن هذا الجدب العلمي الذي يعيشه طفلنا العربي هو المسئول عن ندرة المخترعين و العلماء البارزين عالميا في أمتنا العربية و الإسلامية ، قياسا على الدول الأخرى المتقدمة بل حتى قياسا على إسرائيل نفسها ، و مهما قيل عن التسهيلات العلمية و المادية التي تحصل عليها تلك الدولة من الخارج ، و هو ما لا يتيسر لنا كأمة إسلامية فإنه لا يغير حقيقة أن صراعنا مع هذا العدو سيبقى صراعا أيدلوجيا و علميا في نفس الوقت ، و أنه لا خيار لنا سوى تكوين جيل قادر عقائديا و علميا على خوض هذا الصراع .

و يعنى ذلك أنه لم يعد أمامنا إزاء التفوق العلمي و التكنولوجي الذي يملكه الغرب و يمنحه إسرائيل و أمام التحدي العلمي و الحضاري و التقني المعاصر إلا أن نبدأ مع الإنسان العربي منذ الطفولة ، فنحيطه في جميع مراحل نموه في المنزل و المدرسة بنماذج علمية و ألعاب تقنية و نفسح المجال أمامه لكي يقضي وقتا مع هذه النماذج و الألعاب ليتدرب عليها و يلتصق بها ، ***يقول شمعون بيريز :***

(إن لعب الأطفال هي المدخل الصحيح للإلكترونيات و رحلات الفضاء ، و المدرسة هي المكان الذي يبدأ منه كشف أسرار الذرة و تحطيم النواة ، و على إسرائيل أن تبدأ مسيرتها من هذا المنطلق) .

كذلك علينا أن نسارع بتطوير مناهج العلوم و طرق تدريسها بالمدارس العربية ، مع الاهتمام بإعداد معلم العلوم ، و إيجاد الأنشطة العلمية المختلفة داخل المدارس ، و إنشاء نوادي العلوم و توفير الكتب و المجلات العلمية المناسبة و بذل جهد مضاعف لبناء أجهزة متمكنة متخصصة في العناية بتربية الطفل تربية علمية مناسبة تمكننا من اجتياز هذا المأزق العلمي و التقني .

لقد أثبتت التجربة الواقعية أن تطبيق التقنية و تحديثها لا يمكن أن يتم بأيد مستوردة ، و لا بأفكار و تصورات و قيم غربية ، و لا بمهارات فنية و إدارية و اقتصادية أجنبية ، و أن كل حالة تم فيها ذلك كانت فرصة طيبة لتدريب أبناء المسلمين و لكنها أهدرت و إلى الأبد .

و نحن في عالمنا العربي في حاجة ماسة إلى تربية علمية تبدأ منذ الطفولة لتكوين العقلية العلمية المنظمة التي تعمل و هي مؤمنة بنفسها ، و بقدرتها على ملاحقة العصر العلمي ، و إذا كانت إسرائيل و اليابان و غيرهما قد استطاعتا بنجاح تجاوز تلك الأزمة العلمية و التكنولوجية ، فليس أمامنا إلا النجاح في هذا المجال أو الكارثة .

كيف نربي الطفل العربي في عصر العولمة لمواجهة تحدياتها ؟

قراءات إضافية :

(١) : محمد حسنين هيكل : *مصر و القرن الواحد و العشرين* ، ورقة حوار ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

(٢) : أحمد صدقي الدجاني : *عمران لا طغيان ، تجديدنا الحضاري و تعمير العالم ، شواغل فكرية* ، دار المستقبل العربي ، بيروت ، ١٩٩٤ .

(٣) : رفعت سيد أحمد : *اختراق العقل المصري* ، دراسة و وثائق ، التوني للطباعة و النشر ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

(٤) : ريتشارد نيكسون : *أمريكا و الفرصة التاريخية ، كيف تواجه أمريكا الدولة العظمى الوحيدة التحديات العالمية الراهنة* ، ترجمة محمد زكريا إسماعيل ، مكتبة بيان ، بيروت ، ١٩٩٢ .

(٥) : عبد الرحمن النقيب : *التربية الإسلامية رسالة و مسيرة* ، مرجع سابق .

(٦) : عبد الرحمن النقيب : *التربية الإسلامية المعاصرة في مواجهة النظام العالمي الجديد* ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

(٧) : عمر بهاء الأميري : *الإسلام و أزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء المجتمع الحضاري* ، مؤسسة الشرق ، قطر ، ١٩٨٣ .

(٨) : محمد عبد القادر أحمد : *هموم إسلامية في نظام عالمي جديد* ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

خاتمة

عزيزي القارئ – الدارس .. لعلك خلال تلك الصفحات قد تعرفت على أهم المفاهيم المتعلقة بتلك المادة : التربية ، و المشكلة ، و المجتمع ، و الثقافة ، و النظام العالمي الجديد ، و العولمة . و لعلك أيضا قد أدركت كيف يمكن للتربية أن تساعد على حل المشكلات التي تواجهها المجتمعات . و قد عرضنا لبعض تلك المشكلات و حاولنا أن نناقش كيف تعمل التربية على إيجاد حلول علمية لها . و لا شك أن هناك مشكلات أخرى لم تتعرض لها تلك الصفحات . و كذلك قد تتفق و قد تختلف معنا في أسلوب مواجهة تلك المشكلات المطروحة . إن كل ما نرجوه من تلك الصفحات أن نثير لديك الشعور ببعض المشاكل التي تواجه مجتمعنا العربي والمصري و أن تساعدك على التفكير في تلك المشاكل بأسلوب علمي رصين . و أن نفتح أمامك المجال للتفكير في مزيد من تلك المشكلات والمزيد من الحلول العلمية لها . و أن تكون لديك عادة التفكير العلمي فيما يواجهك من مشكلات بدلا من السلبية أو الهروب من مواجهتها أو الاستسلام القدري لها .

عزيزي القارئ – الدارس .. و لعلك أيضا من خلال تلك الصفحات قد ازددت إيمانا بقدرة التربية على مواجهة مشكلات المجتمع إذا أحسن استخدامها الاستخدام الصحيح . وختاما أرجو أن تساعدك تلك الصفحات على تحديد دورك كمعلم و مربي في إيجاد حلول علمية لما تواجهه ويواجهه المجتمع المدرسي من مشكلات . و أن يكون ذلك مساعدا لك أيضا على التفكير في حلول علمية لقضايا الوطن و الأمة و الإنسانية جمعاء .

و الله وحده من وراء القصد .

الفهرس

العناوين | الصفحات

الوحدة الرابعة :